روايات الهلال

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الثانى

نيقولاى جوجول

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٦٥ ـ مايو ١٩٧٩ ـ جمادى الثانى ١٣٩٩
No. 365 — May 1979

رئيسة مجلس الإدارة : **أمينة السعيد**

نائب رئيس مجلس الإدارة : **صبرى أبو المجد**

رئيس التحرير : **الدكتور حسين مؤنس**

سكرتير التحرير : **موسى عبيد**

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

أسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا	٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان	٢٥٠ ق.ل «مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن	٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت	٣٥٠ فلسا «ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق	٤٠٠ فلس « اربعمائة فلسا عراقيا »
السعودية	٤ر٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب القاهرة .
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
تماضر محمد تركى

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الثانى

نيقولاى جوجول

إبراهيم زكى خورشيد

دار الهلال

الجـزء الثانى

مقدمة

هاكم الجزء الثانى ، وخير لى ان أقول الجزء الأخير ! ولم تكن بى رغبة فى ان أخرجه الى الناس ، اجل لم اكن اريد ان أخرجه قط ، ذلك انه لايجوز للمرء ان يطيل حتى يثقل ، ولا اخفى عليكم ان اهل القرية بدءوا يسخرون منى قائلين : « لقد اختل عقل الرجل العجوز ، فراح يتسلى بلعب الأطفال فى شيخوخته!» ، والحق انه قد آن لى ان استريح ، ولعلكم ايها القراء الأعزاء تظنون اننى انما أدعى الكبر، فكيف بى ولم يبق فى فمى سن واحدة ! وانا الآن اذا وقعت على شىء لين احاول ان امضغه ، ولكننى لا استطيع امرا اذا اصبت شيئا يابسا .

وهانذا ادفع اليكم بكتاب آخر ! وكل ما اريده ، الا تتناولونى باللوم ، فليس اللوم من شيمة الكرام عند الفراق ، فما بالك اذا جهلوا متى يكون اللقاء ، وما يعلمه الا الله ؟ وستجدون فى هذا الكتاب قصصا رواها قوم لا تعرفهونهم على الاطلاق ، اللهم الا اذا كنتم تعرفون منهم فوماجريجوريفتش الذى لم يلم بهذه الناحية منذ وقت طويل ، اجل ذلك السيد الذى كان يرتدى سترة فى لون البازلاء ، ويتحدث بتلك اللغة الفصيحة التى كانت تند عن أفهام كثير من ذوى العقول الراجحة بمن فيهم اهل موسكو انفسهم . انه لم يزرنا منذ تشاجرنا جميعا ، وانى لأحسب اننى لم أحدثكم بأمر هذا الشجار ام ترونني حدثتكم به ، لقد كان مهزلة ولاشك .

فقدحل بى فى يوم من أيام الصيف الماضى ضيوف جاءوا لزيارتى، وكان ذلك على ما اظن فى عيد القديس شفيعى . ولا اخفيكم ايها القراء الأعزاء أن جيرانى ، متعهم الله بالصحة والعافية ، لاينسون الرجل العجوز . لقد انقضى خمسون عاما منذ بدات احتفل بعيد القديس شفيعى ، أما عمرى ، فلا انا ولا زوجتى العجوز نستطيع

ان نحدده ، ولاشك انه نحو السبعين . أما الذى يعلم تاريخ مولدى فهو الأب خارلمبى ، القسيس الذى كان فى ديكانكا ، على انه يؤسفنى ان اقول انه توفى منذ خمسين عاما . اذن فقد حل بى ضيوف جاءوا لزيارتى وهم زخاركيريلوفتش شوخوبوبنكو، وستيفان ايفانوفتش كوروشكا ، وتاراس ايفانوفتش سماتشننكى ، ومساعد القاضى خارلمبى كيريلوفتش خلوسطا ، وكان بينهم زائر آخر نسيت اسمه .. اوسيب .. اوسيب .. تالله ان كل من فى ميرجورود يعرفه ! فانه ما ان يبدأ فى الكلام حتى يفرقع بأصابعه ويضع ذراعيه فى خاصرتيه ، ولكن دعونا من هذا ! ولاذكرن اسمه حالا . وجاء ايضا ذلك السيد البلتاوى الذى سبق ان عرفتم امره . أما فوماجريجوريفتش فلم ادخله فى عداد الضيوف لأنه واحد منا . وراح كل من الحاضرين يتحدث ، ولا اخفيكم اننا لا نتحدث ابدا فى توافه الأمور ، ذلك اننى دائما احب الحديث اللائق الظريف حتى اجمع بين المتعة والمنفعة كما يقولون ، وكان حديثنا يدور حول تخليل التفاح ، وقالت زوجتى : ان التفاح يجب ان يغسل اولا غسلا جيدا ثم ينقع فى الجعة الخفيفة ، ثم ..

وهب السيد البلتاوى يقاطعها وهو يضرب يده فى جيب سترته التى فى لون البازلاء ويذرع الغرفة فى رصانة ووقار : « لا غناء فى ذلك كله على الاطلاق ! بل يجب أولا ان تذرى حشيشة الدود على التفاح ثم .. » ولكننى أسألكم ايها القراء الأعزاء : «هل سمعتم بتفاح يذر بحشيشة الدود؟ ان الناس قد يستعملون اوراق الزبيب الأسود وعشب الخنزير والحندقوق ، اما ان يضاف على التفاح حشيشة الدود فشىء لم اسمع به من قبل ، وانى لأحسب انه ما من احد يعرف فى هذه الشئون اكثر مما تعرف زوجتى ، ولكن هذا هو ما حدث ! » وانتحيت بالرجل جانبا فى هدوء كما يفعل الجار الطيب وقلت له : « على رسلك يامقارنازاروفتش ، ولكن لاتجعل الناس يضحكون منك ! فانك رجل ذو شأن ، وقد تناولت عشاءك على المائدة التى تناول عليها المحافظ عشاءه على حد قولك انت نفسك ، ولئن قلت شيئا من هذا القبيل جعلت القوم جميعا يسخرون منك ! » فكيف كان جوابه فيما تظنون ؟ انه لم يجر

جوابا ! بل بصق على الأرض وتناول قبعته ثم مضى . لقد كان خليقا به ان يلقى بكلمة وداع الى انسان ،او يومىء الينا برأسه ايماءة واحدة ، ولـــكن كل ما سمعناه هو صوت عربته بجرســـها المثبت فوقها ، ثم وقفت عند الباب فركبها وسارت به ، ثم .. مع السلامة ايضا !

ذلك اننا لانريد ضيوفا على شاكلته ،ولا اجد مفرا ايها القراء الاعزاء من ان اقول لكم انه ليس فى هـــذا العالم أسوأ من اولئك الناس الذين ينتمون الى الطبقة العليا . ان الرجل يشمخ بأنفه على كل انسان لأن عمه كان مأمورا فى يوم من الأيام ، كأنما لا يوجد فى العالم طبقة أعلى من طبقة المأمور ! ولاشك أن من الناس من هم اعظم من المأمير . كلا ! اننى لا أحب اولئك الناس الذين ينتمون الى الطبقة العليا ، ولـكن مثلا فوما جريجوريفتش ، فهـــو ليس من هذه الطبقة ،ولكن انظروا اليه ،ان وجهه ينم عن العزة والكرامة فى هدوء ووقار ، ولا يســـعك الا أن تحبه وتحترمه ، حتى حـين يصيب قدرا من السعوط المألوف . ويعجز القلم عن وصف مايبلغه صوته من اثر فى النفس عندما ينشد مع فرقة المرنمين فى الكنيسة ، ان قلوبكم لخليقة بأن تذوب ذوبانا عند سماعكم هـذا الصوت ! على حين ان الرجل الآخر ، ولـــكن دعونا منه ، فانه يظن الا غنى لنا عن قصصه ، ولا عليكم فهاكم كتابا من القصص لاشأن له به .

وانى لأذكر اننى كنت قد وعدتكم بأن اضمن هذا الكتاب قصتى انا ايضا ، وقد صـــح عزمى على أن ادخلهـــا فيه فعلا ، الا اننى وجدت انها سوف تقتضينى ثلاثة كتب من هذا الحجم على الأقل، فاستقر رايى على ان اطبعها على حدة ، وقـد فكرت فى الأمر مليا ، فانى قد خبرتكم ، ولو اننى فعلت هذا لسخرتم من الرجل العجوز ، كلا ! لن اطبعها ! ووداعا ! وليمضين وقت طويل قبل ان نلتقى مرة اخرى اذا قـدر لنا ان نلتقى ، ولكنكم لن تعبئـــوا بهذا ، بل لن تعبئوا بوجودى ابدا ، ولسوف تتوالى الأعوام عاما فى اثر عام ولن يذكر احدكـم مربى النحل العجوز أو يحزن عليه !

بانكو الأحمر الشعر

ليلة عيد الميلاد

ليلة عيد الميلاد

انقضى آخر يوم قبل عيد الميلاد ، واسدل الظلام ستاره ، وحلت ليلة من ليالى الشتاء صافية الأديم ، وبصبصت النجوم ، وطلع القمر مهيبا جليلا يظل بنوره اهل الصلاح ، بل يظل القوم جميعا حتى ينعم الكل بانشاد اناشيد الكولياداكى (١) ويسبحون بحمد الله ، واخذ الصقيع يشتد عما كان فى الصباح ، وازداد السكوت شمولا حتى كان صوت الجليد يترامى الى الأسماع وهو يقرقع تحت وطء الحذاء على بعد نصف ميل ، ولم تك قد ظهرت بعد جماعة واحدة من جماعات الفتيان تحت النوافذ ، وانما كان القمر يختلس النظر اليهم كأنما يهيب بالفتيات اللواتى كن يرتدين اغلى ما عندهن من ثياب ، ان يعجلن ويركضن على الجليد المقعقع ، وانبعث الدخان فى تلك اللحظة يرتفع حلقات من مدخنة كوخ ويسبح كالسحاب فى اجواز الفضاء ، وارتفعت فى الجومع الدخان ساحرة تمتطى مكنسة .

ولو ان مساعد القاضى فى بلدة سوروتشينتسى قد برز بقبعته التى حليت أطرافها بجلد الشاة وسويت على طراز قبعة

(١) من عاداتنا أن تنشد تحت النوافذ ليلة عيد الميلاد أناشيد تسمى « كولياداكى » وتلقى ربة البيت أو ربة اى شخص بقى فيه من أهل الدار ، فى كيس المنشد دائما بعض السجق أو الخبز أو قطعة من النقود النحاسية أو ما استطاع اليه سبيلا ، ويقال : انه اتفق يوما ان كان ثمة شخص غبى يقال له كولياديا فحسبه الناس الها ، ومن ثم نسبت هذه الاناشيد اليه ، ومن يدرى ؟ لعله لا يجوز لقوم بسطاء من أمثالنا أن يدلوا برأيهم فى موضوع كهذا ، وقد حرم الاب أوسيب على الناس فى العام الماضى أن ينشدوا الكولياداكى فى المزارع قائلا : انهم انما يمجدون الشيطان بفعلهم هذا ، مع أن هذه الاناشيد قد خلت من كلمة واحدة تشير الى كولياديا ، وهى تدور فى كثير من الاحيان حول مولد المسيح ، ثم يتمنى القوم فى نهايتها الصحة السابغة لرب البيت وربته واطفالهما وأفراد الاسرة جميعا .

« تعليق مربى النحل »

الأوغلان (١) ، ومعطفه الأزرق القاتم المبطن بفراء استراخان الأسود، ومر فى تلك اللحظة بعربته المشدودة الى جياده الثلاثة المستأجرة وسوطه المجدول جدلا جهنميا الذى الف ان يستحث به حوذيه ، لرآها بلا شك ، ذلك انه ما من ساحرة فى العالم تستطيع ان تفلت من عين مساعد قاضى سوروتشينتسى ، فهو يستطيع أن يعد على أصابعه عدد ماوضعته خنزيرة كل فلاحة من صغار ، ومقدار ما تحتفظ به فى صندوقها من كتان ، واى ثوب من اثوابهم أو متاع من امتعة المنزل يرهنه القوم الصالحون فى الحانة يوم الاحد ، ولكن مساعد قاضى سوروتشينتسى لم يمر بهذا المكان فى عربته ، واى شأن له فيه حتى يمر ؟ لقد كان حسبه ان يعنى بشئون ناحيته .

ولم تلبث الساحرة فى هذه الاثناء ان شقت اجواز الفضاء حتى غدت نقطة سوداء صغيرة فى كبد السماء ، وكلما ظهرت هذه النقطة السوداء اختفت النجوم واحدا فى اثر آخر ، وسرعان ماجمعت الساحرة منها ملء ردنها ، وبقى من النجوم ثلاثة أو أربعة ظلت تتألق ، ثم ظهرت فجاة نقطة صغيرة اخرى من مكان آخر ، واخذت تكبر وتكبر ثم تستطيل وتستطيل ، فلم تعد نقطة فحسب ، وما كان لشخص قصير النظر ان يعرف قط ما الذى صارت اليه ولو وضع على انفه عجلتى عربة المامور بدلا من النظارات . لقد كان الشكل الذى انتهت اليه يبدو من الامام كالالمانى القح (٢) وكان وجهه الصغير الطويل ، الذى راح يتلوى ويتلفت ويتشمم كل شىء فى الحاح لاينقطع ، ينتهى بزر كالزر الذى تنتهى به خطم خنازيرنا، وبلغت ساقاه من النحافة مبلغا لو قدر لشيخ قرية باريسكى ان يكون له مثلهما لكسرهما ولاشك فى أول رقصة قوزاقية يؤديها ، اما من الخلف فقد بدا فى نظر الناس جميعا وكيلا للنيابة فى زيه الرسمى ، فقد كان له ذيل طويل مستدق الطرف كالسترات

(١) الاوغلان هم رجال الحرس من التتر .

(٢) لقد اصطلحنا على ان نطلق على اى شخص قادم من بلد أجنبى اسم الالمانى ، فهو المانى عندنا حتى لو كان فرنسيا أو هنغاريا او سويديا .

المؤلف

الرسمية فى هذه الأيام ، وانما كانت لحية التيس التى فى اسفل ذقنه والقرنان الصغيران البارزان فى جبهته ولونه الذى لايزيد فى بياضه عن لون كناس المداخن ، أجل كان ذلك كله هو الذى يجعل المرء ينكر انه كان المانيا أو وكيلا لنيابة ناحية من النواحى ، ويجزم انه من الشيطان . وقد بقيت له ليلة واحدة فحسب يطوف فيها بهذا العالم الفسيح ليقود القوم الصالحين الى المعصية ؛ ولكن ما ان ينبلج الصبح ، وتدق الأجراس دقاتها الأولى تدعو الناس الى صلاة الفجر ، حتى يضع ذيله بين ساقيه ويمضى الى وكره لايلوى على شىء .

واسترق الشيطان الخطا فى هذه الأثناء صاعدا الى القمر . ومد يده ليمسك به ، ولكنه استردها بسرعة كأنما لسعه القمر بحرارته، ومص اصابعه ، وراح يرقص هنا وهناك ، ثم طار ملتفا به من الجانب الآخر، ثم انقلب مرة أخرى وقد رد يده ، الا ان الشيطان الخبيث لم يكف عن الاعيبه بالرغم مما أصابه من خيبة فوق خيبة، فقد طار مصعدا وامسك بالقمر فجأة بكلتا يديه ، وراح يقذف به بيد ليلقاه بالأخرى وهو يقطب حاجبيه وينفخ فيهما كما يفعل الفلاح اذ يلتقط جذوة نار لفليونه بأصابعه المجردة ، ولم يلبث ان وضعه فى جيبه آخر الأمر ، ومضى فى طريقه كأن لم يحدث شىء البتة .

ولم يلحظ احد من اهل ديكانكا ان الشيطان قد سرق القمر ، صحيح ان كاتب الناحية راى القمر ، وهو يخرج من الحانة يدب على اربع ، يتراقص فى السماء لغير ما سبب ، واقسم على ذلك للقرية بأسرها ، ولكن الناس هزوا رءوسهم بل سخروا منه . ترى ما الذى دعا الشيطان الى ان يسلك هذا المسلك الشائن ؟ لقد دعاه الى ذلك انه علم أن القندلفت كان قد دعا شوب القوزاقى الثرى الى وليمة عشاء من العصيدة يرتدى فيها قريب من أقرباء القندلفت ، يعمل مع فرقة المرنمين التابعة للأسقف ، سترة زرقاء قاتمة ويستطيع ان يؤدى اغلظ القرارات من النغم ، وقد دعى الى هذه الوليمة أيضا شيخ القرية وسفير بيجوز القوزاقى وغيرهما ، واعد العشاء بحيث يشتمل على الفودكا المطيبة والفودكا المعالجة بالزعفران ، واطايب المأكولات من كل لون ، فضلا عن عصيدة عيد الميلاد ، ولسوف

تترك ابنته وهى فتنة القرية ، وحيدة فى المنزل فى أثناء ذلك .

ولم يك ثمة شك فى ان الحداد ، ذلك الفتى الوسيم العظيم القوة سيزورها ، وكان الشيطان يكرهه أكثرمما يكره عظات الأب كوندرات. وكان الحداد يصرف أوقات فراغه فى النقش حتى عده الناس أبرع الفنانين فى الناحية ، ولا أدل على ذلك من أن الضابط القوزاكى ب ـ كو الذى كان لايزال على قيد الحياة فى تلك الايام ، قد أرسل فى طلبه من بلتاوة خصيصا لينقش له السور الذى يحيط بمنزله ، وكانت جميع الطاسات التى يتناول فيها قوزاق ديكانكا عشاءهم من الحساء من نقش ذلك الحداد .

لقد كان رجلا يخشى الله وكثيرا ما نقش الأيقونات ، بل انك لترى حتى اليوم الصورة التي صنعها للوقا الانجيلى فى كنيسة ت ، ولكن أروع آثاره هى الصورة التى رسمها على جدار الكنيسة فى الهيكل الذى الى اليمين ، وقد صور فيها بطرس الرسول يطرد الشيطان من جهنم يوم الحساب ، وتملك الشيطان الفزع وهو يتكهن بمصيره فأخذ يجرى على غير هدى ، على حين شرع أهل المعصية الذين اطلق سراحهم يطاردونه ، ويضربونه بالسياط وقطع الخشب وكل ما يقع فى أيديهم . وبينما كان الفنان يصنع هذه الصورة ويرسمها على لوح كبير من الخشب ، راح الشيطان يبذل كل ما فى وسعه ليعوقه عن عمله ، فلكزه فى ذراعه خفية ونفخ بعض الرماد من الكور الى دكان الحداد ونثره على الصورة ، الا ان الحداد انجز الصورة بالرغم من ذلك ثم حملت الى الكنيسة وركبت فى جدار الهيكل الجانبى ، فأقسم الشيطان لينتقمن من الحداد .

ولم تك قد بقيت للشيطان الا ليلة واحدة يجوس فيها خلال الأرض ، وكان يبحث عن وسيلة يصب بها جام غضبه على الحداد فى تلك الليلة ، ولذلك صح عزمه على سرقة القمر مقدرا أن شوب العجوز كان بليدا بطىء الحركة وان كوخ القندلفت كان بعيد الشقة. وكان الطريق يمر بالطواحين وبالمقبرة التى فى خارج القرية ويلتف حول الحدود ، وكانت الفودكا المطيبة والفودكا المعالجة بالزعفران خليقتين باغراء شوب اذا كانت الليلة مقمرة ، اما اذا كانت ليلة حالكة الظلام كهذه الليلة فقد كان من المشكوك فيه ان يستطيع انسان

جره من اريكة الموقد واخراجه من الكوخ ، وما كان الحداد الذى ساءت علاقته به منذ وقت طويل ، ليجرؤ مهما كانت الحال ، ومهما بلغ من قوته ، على زيارة الابنة وابوها مقيم فى المنزل .

وهكذا كان ، فما ان اخفى الشيطان القمر فى جيبه حتى ساد الظلام العالم كله فجأة فتعذر على أى امرىء ان يشق طريقه الى الحانة ، فما بالك اذا كان مقصده هو كوخ القندلفت . واطلقت الساحرة صرخة عندما وجدت نفسها فى الظلام فجأة وهرع اليها الشيطان ، وهو يكثر لها من الانحناء والابتسام ، وامسك بذراعها واخذ يهمس فى أذنها بتلك العبارات التى الف الرجال ان يهمسوا بها فى آذان النساء جميعا . الا ما اعجب تدبير الأمور فى عالمنا هذا ! ان كل من يعيشون فيه يحاولون دائما ان يقلد بعضهم بعضا كانهم القردة ! لقد كان القاضى والعمدة فى الايام الخالية هما الوحيدين من اهل ميرجورود اللذين الفا ارتداء معاطف من النسيج مبطنة بجلد الماعز فى الشتاء ، على حين كان صغار الموظفين يرتدون جلد الماعز العادى .

اما اليوم فان مساعد القاضى وملاحظ الأراضى قد اكتسيا بالمعاطف الجديدة المصنوعة من النسيج والمبطنة بفراء استراخان . وقد اشترى كاتب المركز وكاتب الناحية فى العام الأسبق جلد بط ازرق قاتما ودفعا فى الياردة منه ستين كوبكا ، واكتسى سادن الكنيسة بسروال صيفى من النسيج المعروف باسم « نانكين » ، وصديرى مخطط من الصوف المغزول .

وصفوة القول ان كل انسان كان يحاول ان يكون صاحب شأن ، وا عجبا ! متى يكف الناس عن الغرور ؟ انى لعلى استعداد أن اراهن بأن كثيرا منهم تنتابهم الدهشة اذا هم راوا الشيطان يسلك هذا المسلك . ومما تضيق له النفس اشد الضيق انه يخال نفسه بلاشك فتى وسيما بالرغم من ان منظره مشين معيب ، اما وجهه فاشنع من الشناعة كما يقول فوما جريجوريفتش ، ومع ذلك فهو يصطنع الظرف والرقة ! الا ان الظلام كان قد أسدل ستاره على السماء وما تحت السماء ، فعز على الأنظار أن ترى ما وقع بين الشيطان والساحرة من بعد !

ووجه شوب القوزاقى ، وهو يخرج من باب كوخه ، سؤالا الى فلاح طويل القامة نحيل يرتدى جلد ماعز قصيرا : « اذن فانك لم تذهب لزيارة القندلفت فى كوخه الجديد ياصاح . » وبدا على لحية الفلاح الكثة انه لم تمسسها ، منذ أسبوعين على الأقل ، قطعة مكسورة من منجل الف الفلاحون ان يحلقوا بها لحاهم لافتقارهم الى الموسى ، ومضى شوب يقول وهو يبتسم ابتسامة كشف بها عن نواجذه : « لتكونن سكرة طيبة هناك الليلة ، وارجو الا تكون قد تأخرنا ! »

وشرع شوب فى اصلاح شأن الحزام الذى كان يطوق به فى احكام جلد الماعز الذى كان يرتديه ، واحكم القبعة على رأســـه وامسك بسوطه الذى كانت ترتعد منه الكلاب المزعجة ، ولكنه رنا ببصره الى السماء ثم توقف .

«يا للشيطان ! انظر ، انظر يا باناس ! »

وساله صديقه وهو يرنو ببصره ايضا الى السماء : « ما الخبر؟»

« ما الخبر ، عجبا ! ليس ثمة قمر ! »

« يا له من امر مزعج ! ليس ثمة قمر حقا ! »

وقال شوب وقد نمت لهجته عن شيء من الضيق لما اظهره صديقه من عدم اكتراث يتسم بالهدوء والرزانة : « صدقت كل الصدق ! فليس ثمة قمر ! ولاشك عندى انك لا تحفل بالأمر ! »

« وى : وماذا استطيع ان افعل ؟ »

واسترسل شوب يقول وهو يمسح شاربه بردنه : « لاشك ان شيطانا تدخل فى الأمر . الا فليحرم هذا الكلب حرمانا حتى لايجد قدحا يصيبه من الفودكا صباحا ! لعمرى ، كأنه يريد ان يســخر منا ! لقد كنت اجلس داخل الكوخ ثم تطلعت من النافذة ، فوجدت الليل غاية فى السحر والفتنة ! كان الضوء يفيض والجليد يتألق فى ضوء القمر ، حتى لترى كل شيء كأنك فى وضح النهار، وهانذا لا استطيع ، ولما ابارح باب الكوخ ، انارى يدى وهىمبسوطة امامى!»

وراح شوب يدمدم ويلقى باللوم وقتا طويلا ، الا انه كان فىالوقت نفسه يفكر فيما عساه ان يصنع . لقد كان يتوق الى الثرثرة بلغو الحديث على جميع اشكاله وضروبه فى كوخ القندلفت ، حيث كان

شيخ القرية ولاشك جالسا الآن ، هو وذلك المنشد الجهير الصوت وميكيتا تاجر القطران الذى ألف ان يقصد مرة كل اسبوعين سوق بلتاوة ويلقى من الملح والنكات ما تشق له جنوب القرويين جميعا من الضحك ، وكان شوب يرى بعين الخيال الفودكا المطيبة على المائدة ، وفى هذا من الاغراء ما فيه ، ولكن حلكة الليل ذكرته بحلاوة الكسل الذى يميل اليه كل قوزاقى من كل قلبه . الا ما امتع ان يستلقى الآن على اريكة الموقد ، وقد طوى ساقيه تحته ، وأخذ يدخن غليونه فى هدوء منصتا فى نشوة النعاس اللذيذ الى الأغانى والكولياداكى التى ينشدها فتيان وفتيات فاضت قلوبهم بالبشر ، والتأم شملهم جماعات تحت النوافذ ! ولوكان وحده لاستقر رأيه ولاشك على هذا المسلك، اما وهما اثنان معا فلم يكن التماس الطريق فى ظلمة الليـــل بالأمر الذى يدعو الى كل هـــذا الخوف والفزع ، زد على ذلك انه كان لايحب ان يظهر بمظهر الكسول أو الجبان فى أعين الآخرين ، وما ان فرغ من اللوم حتى التفت الى صديقه قائلا :

« اذن فليس ثمة قمر يا صاح ؟ »

« اجل »

« ما أعجب هذا حقا ! اسمح لى بنشقة من السعوط ، فان سعوطك لرائع يا صاح ، من اين لك به ؟ »

فأجاب صديقه وهو يغلق صندوق السعوط المصنـــوع من لحاء شجر البتولا والمحلى ببعض الرسوم البارزة : « أرائع هو حقـــا ؟ عجبا ! انه لايحمل دجاجة عجوزا على العطس ! »

فقال شوب : « اذكر ان زوزوليا صاحب الحانة أتى لى ببعض السعوط من نزين ، آه ، لقد كان سعوطا بحق ! اجل كان سعوطا طيبا ! والان مارأيك ياصاح ؟ ان الظلام حالك كما تعلم »

فأجابه صديقه وهو يمسك بمقبض الباب : « اذن ، فخير لنـــا فيما أظن أن نلزم الدار » .

ولو لم يقل صديقه هذا لاستقر راى شوب ولاشك على ان يلزم الدار ، الا ان شيئا كان يستحثه الآن فيما يظهر على معارضته : « كلا ياصـــاح فلنذهب ! فانه لا يليق بنا التخلف ، بل يجب ان نذهب »

واحس شوب حتى وهو يقول ما قال ، بالغيظ من نفسه لانه اقدم على هذا الفعل ، ذلك انه كان يكره كل الكره ان يخرج فى ليلة كهذه ، على انه احس بالرضا والغبطة ، فقد كان هو صاحب القرار ولم يستمع فى ذلك لنصح أحد .

وتلفت صديقه حوله وحك كتفيه بمقبض سوطه ولم تبد على وجهه اية علامة تدل على الضيق شأن من لايبالى : الزم الدار أم بارحها ؟.. وهكذا شرع الصديقان فى رحلتهما .

ولنر الآن ماذا كان من أمر ابنة شوب الجميلة وهى وحيدة فى كوخها . لقد كان الناس جميعا قبل ان تبلغ اوكسانا السابعة عشرة، لايكادون يتحدثون الا عنها سواء فى هذا الجانب من ديكانكا أو فيما وراءه ، وقد اجمع الفتيان على ان القرية لم تشهد ولن تشهد فتاة اجمل منها . وكانت اوكسانا تسمع وتعرف كل ما يقال عنها ،كما كانت كفيرها من الحسان متقلبة الأهواء ، ولو انها ارتدت من الملابس ماترتديه السيدات الفاضلات بدلا من النقبة المخططة والمئزر، ما استطاعت ان تحتفظ قط بخادم . وكان الفتيان يهرعون خلفها زرافات ، الا ان صبرهم كان ينفد ، فينصرفون عن هذه الفاتنة العنيدة واحدا بعد واحد ، ويتحولون الى غيرها من الفتيات اللواتى لم يكن فى مثل دلالها ، ولم يبق منهم الا الحداد الذى ظل يلاحقها بغزله بالرغم من انها لم تكن تعامله البتة خيرا مما تعامل سواه .

وما ان خرج ابوها حتى قضت اوكسانا وقتا طويلا ترتدى أفخر ثيابها ، وتتزين وتتانق امام مرآة صغيرة فى اطار من الزنك ، الا انها لم ترض عن زينتها وحسنها كل الرضا .

وقالت كانما شرد منها الفكر، فارادت ان تتحدث الى نفسها بشيء وحسب : « ما الذى القى فى روع الناس ان يذيعوا عنى اننى جميلة؟ انهم يكذبون ، فلست جميلة على الاطلاق ! »

الا ان الوجه الصبوح الذى انطبع فى المرآة ، بشبابه النضير البريء وعينيه السوداوين المتألقتين وابتسامته الفاتنة التى تجل عن الوصف وتهز النفس هزا ، كان ينقض ما تزعم فى الحال .

ومضت الفتاة تقول وهى لاتزال ممسكة بالمرآة : « ايمكن ان يكون حاجبای الأسودان وعيناى بهذا الجمال الذى لايعرف له فى

العالم مثيل ولا ضريب ؟ اى جمال فى هذا الأنف المرفوع وفى هذين الخدين وهاتين الشفتين ؟ وما بال ضفيرتى السوداوين ؟ اجميلتان هما ايضا ؟ اف ! انهما خليقتان بأن تدخلا الرعب فى قلب المرء اذا جن الليل ، فهما تلتويان وتلتفان حول راسى كأنهما الأفاعى الطويلة، وانى لأرى الآن اننى لست جميلة على الاطلاق ! » ، ثم ابعدت المرآة قليلا وصاحت : « اى نعم ، انى لجميلة ، آه ، ما اروع حسنى ! ان جمالى لعجيب ، ولاكونن قرة عين من يتزوجني من الرجال ! ولشد ما يعجب بى زوجي ! ليستخفنه الطرب ، فيقبلنى ويقبلنى حتى ليزهق منى الأنفاس ! »

وهمس الحداد وهو يدخل الكوخ فى رفق وهدوء : « يا لها من فتاة عجيبة ! ثم الم ينل منها الغرور شيئا ؟ لقد ظلت واقفة امام المرآة ساعة لا تستطيع ان تنتزع نفسها منها ولا تكف ايضا عن اطراء نفسها جهارا نهارا ! »

ومضت الفتاة الجميلة ذات الدلال قائلة : « او كفء انا لكم ايها الفتيان ؟ انظروا الى وتأملوا رشاقة خطوى ان قميصى مطرز بالحرير الأحمر ، ويا للشرائط التى تزين راسي ! لن تقع عينكم ابدا على اثمن من هذه الشرائط ، لقد اشترى لى أبى كل هذا ليزوجنى زينة شباب العالم طرا » ، ثم قهقهت والتفتت فرات الحداد .

فاطلقت صرخة ووقفت تواجهه ساكنة رابطة الجاش .

وسقطت يدا الحداد الى جنبيه فى يأس .

وليس من اليسير ان نصف التعبير الذى لاح على وجه الفتاة الضارب الى السمرة ، لقد كان فيه صرامة تلمح من خلالها لونا من الوان السخرية بالحداد الذى ظهر عليه الارتباك . وشابت وجهها فى الوقت نفسه مسحة رقيقة لا تلحظ من الخجل الدال على الغضب، واختلط هذا كله ، فأكسبها حسنا يجل عن الوصف ، ولا تستطيع حياله الا ان تمطرها لتوك بفيض من القبلات لايحصى ولايدرك له عدد.

وانشات اوكسانا تقول : « لماذا جئت ؟ اتريد منى ان القى بك من الباب بمجرفة ؟ ما ابرعك فى تخير الوقت لزيارتنا ! انك لتتنسم من فورك اللحظة التى يغيب فيها الآباء عن المنازل . واها لك ، فانى اعرفك ! هل اتممت صنع صندوقى ؟ »

« لأنجزنه بعد عيد الميلاد ياقرة عيني ، آه لو تعلمين مقدار ما انفقت من جهد فى صنعه ، انني لم ابارح الدكان ليلتين ، وهيهات ان تحظى ابنة قس بصندوق مثله . ان الحديد الذى طوقته به لأفضل من الحديد الذى وضعته فى عربة الضابط عندما كنت أعمل فى بلتاوة ، ويا للطلاء الجميل الذى سأطليه به ! لن تجدى له مثيلا وان فتشت فى الناحية بأسرها سعيا على قدميك البيضاوين الصغيرتين، ولانثرن عليه الأزهار الحمر والزرق ، فيتوهج توهج النار ، فلا تغضبى منى ، واسمحى لى على الأقل بأن أحدثك وأن انظر اليك!»

« لتحدثنى وتنظرن الى ماشئت .. فما من احد يمنعك »

وجلست على الأريكة وتطلعت فى المرآة مرة اخرى ، واخذت تصلح شعرها ، ونظرت الى عنقها والى قميصها الجديد المطرز بالحرير الأحمر ، وتلألأت شفتاها ووجنتاها الناضرتان بشعور خبيث بالرضا تجلى اثره فى عينيها .

وقال الحداد : « اسمحى لي ان اجلس بجوارك »

فقالت اوكسانا ، وما زال الشعور نفسه يتلألأ على شفتيها وفى عينيها الراضيتين « اجلس »

وقال الحداد وقد ازداد جراة : « ما اروع حسنك اى اوكسانا الجميلة ! اسمحي لى ان اقبلك ! » ، وجذبها نحوه وقد اعتزم ان يختلس منها قبلة ، ولكن اوكسانا اشاحت عنه بخدها الذى كان قريبا من شفتيه كل القرب ، ودفعته بعيدا عنها .

« او تريد شيئا آخر؟ لن تنال الشهد حتى تلتمس الوسيلة اليه! اغرب عنى ، فان يديك اقسى من الحديد ، ورائحة الدخان تفوح منك ، وانى لأحسب انك لوثت جسمى كله بالسناج الذى ينضح منك »

ثم تناولت المرآة ، واخذت تتأمل نفسها فيها مرة اخرى .

وقال الحداد يحدث نفسه وقد مال راسه : « انها لاتحبني ! وانما هى تعبث فى كل هذا الأمر ، على حين اقف انا امامها كالأبله لا استطيع أن احول عينى عنها ، بل احب ان اقف امامها دائما لا ارد عنها بصري ابدا ! يا لها من فتاة غريبة الأطوار! وانى لأبذل النفس والنفيس لأعلم ما فى قلبها ومن تحب ، ولكنها لا تبالى احدا، وانما هى تعجب بنفسها . انها تعذبنى انا المسكين ، فينفطر قلبى من

الحزن حتى لأجد نفسي فى ظلام ليس بعده ظلام . انى احبها حبا لم يكابده أحد من قبل ولا من بعد »

وقالت اوكسانا : « اصحيح ان امك ساحرة ؟ » ، ثم ضحكت ، وشعر الحداد بأن كل ما فيه يضحك ، وبدا له ان هـذا الضحك يتردد صداه فى قلبه وفى عروقه التى أخذت تختلج اختلاجا عذبا ، الا ان نفسه كانت بالرغم من هذا كله قلقة لأنه لم يكن يحق له ان يقبل ذلك الوجه الضاحك البديع .

« وماذا يهمنى من أمر امى ؟ انما انت ابى وامى بل كل ما هو عزيز فى هذا العالم ، ولو ان القيصر ارسل طلبى وقال لى : « ايها الحداد فاكولا تمن على أعز ما فى مملكتى اعطك اياه ــ لآمرنهم ان يصنعوا لك كورا من الذهب تعمل فيه بمطارق من الفضة ، أجل لو أن القيصر قال لى هذا لأجبته : « لست أبالى الأحجار الكريمة او مملكتك وحسبى ان تهب لى فتاتى أوكسانا » .

فقالت اوكسانا وهى تبتسم فى مكر ودهاء :« يا لك من فتى ان ابى ليس ايضا بالفر الأحمق ! ولتعلمن هذا عندما يحجم عن الزواج من امك ! ولكن الفتيات لم يحضرن بعد ، فما بالهن ؟ لقد كان أولى بنا ان نبدأ فى انشاد الكولياداكى منذ زمن طويل ، فانى قد مللت الانتظار ! »

« خير لنا ان ينأين عنا يا فاتنتى ! »

« آه ، كلا ! وانى لأحسب ان الفتيان سيأتون معهن ، فنستطيع ان نلهو ونمرح ، وانى لأتخيل القصص التى سوف يروونها ! »

« اذن ستمرحين معهم ؟ »

« اجل ، وليكونن مرحى معهم اكثر من مرحى معك ، آه ! ان بعضهم يقرع الباب ، ولابد انهم الفتيان والفتيات »

وقال الحداد بينه وبين نفسه : « فيم بقائى بعد ؟ انها تسخر منى ، ولست عندها بأكثر قيمة من حدوة حصان قديمة علاها الصدأ . ولكن اذا كان الأمر كذلك فلن ادع رجلا آخر يهزأ بى ، فلئن تبين لى انها تعجب بشخص أكثر مما تعجب بى ، لأؤدبنه حتى يبتعد عنها »

ودوت طرقة على الباب وصيحة مجلجلة فى الصقيع ، تهتف :

« افتحى : » فقطعت عليه تأملاته .

وقال الحداد : « انتظروا ! وسأفتح الباب » ، ثم خرج وقد تملكه الغضب حتى نوى أن يكسر ضلوع أى شخص ألم بالباب .

وزاد الصقيع حدة ، واشتد البرد فى الطبقات العليا من الجو حتى أخذ الشيطان ينط على ظلف تارة وعلى الظلف الآخر تارة اخرى ، وينفخ فى قبضتيه محاولا ان يبعث الدفء فى يديه المتجمدتين، واى عجب فى أن يشعر بالبرد وهو الذى الف ان يجوس فى ارجاء الجحيم يوما بعد يوم ، حيث لا تبلغ البرودة ، على ما نعرف جميعا ، مبلغ الشتاء عندنا ، وحيث يضع قبعته على رأسه ويقف امام الموقد ، كأنه الطاهى الحق ، يشوى أهل المعصية مغتبطا اغتباط الفلاحة وهى تقلى المقانق « السجق » فى عيد الميلاد .

وشعرت الساحرة ايضا ببرودة الجو ولو انها كانت ترتدى من الملابس ما يبعث فى أوصالها الدفء ، فقذفت بذراعيها الى اعلى ووقفت تمد قدما من قدميها واتخذت هيئة رجل يسابق الريح على قبقاب التزحلق دون أن تحرك عضلة واحدة من عضلات جسمها ، ثم انزلقت فى الهواء كأنها تهبط منحدرا من الثلج ، ودخلت مدخنتها لا تلوى على شىء .

وتبعها الشيطان على هذا النحو نفسه ، ولكن هذا المخلوق كان اخف حركة من اى رجل متعاجب يرتدى الجوارب ، فلا غرو انه وقع على عنق خليلته عند قمة المدخنة ، ووجد كلاهما نفسه بين القدور فى فرن رحب فسيح الأرجاء .

وزحزحت الساحرة باب الفرن خلسة لترى : ادعا ابنها فاكولا بعض الضيوف الى الكوخ ، أم لم يدع ؟ ولكنها لم تر أحدا ، الا الأكياس الملقاة على الأرض ، فتسللت من الفرن وخلعت عنها معطفها الدافىء وعادت الى حالتها الطبيعية ، وما كان لأحد أن يذهب فى القول الى انها كانت تمتطى مكنسة منذ لحظة .

وكانت أم فاكولا لاتجاوز الأربعين من عمرها ، ولم تك بالوسيمة ولا بالدميمة ، والحق ان من العسير ان يكون اى مخلوق وسيما فى تلك السن ، على انها كانت بارعة جدا فى غواية القوزاق ، فلا يمتنع عليها خيرهم استقامة وصلاحا « ولا يفوتنا ان نذكر ان هؤلاء

KMH

القوزاق كانوا لايحفلون بالجمال كثيرا » حتى ان شيخ القرية واوسيب نيكيفوروفتش والقندلفت « عندما تغيب زوجته من الدار بطبيعة الحال » ، والقوزاقى كورنى شوب والقوزاقى كاسيان سفير بيجوز قد الفوا زيارتها ، ومن آياتها انها كانت تسوسهم فى براعة عجيبة ، فلا يدور بخلد أحد ان له منافسا ، ولو ان سيدا او فلاحا ممن يخافون الله « كما يصف القوزاق انفسهم » يطرح على كتفيه دثارا ذا قلنسوة قد قصد الكنيسة يوم الأحد او الم بالحانة، مافاته قط ان يزور سولوخا ويأكل لقيمات القاضى المصنوعة من الجبن والقشدة المتخثرة ، ويثرثر فى الكوخ الدافىء مع ربته المحدثة اللبقة الأنيسة .

وكان القوزاقى يتعمد ان يلف ويدور طويلا قبل ان يبلغ الحانة ، ويسمى هذا « التطلع اثناء الطريق » ، وعندما كانت سولوخا تذهب الى الكنيسة فى يوم من أيام الراحة مرتدية النقبات ذات الخطوط الزاهية اللون ومئزرا من القطن ، ومتشحة فوق ذلك بدثار أزرق قاتم طرز على ظهره وشى من ذهب ، وتتخذ موقفها بالقرب من الجانب الأيمن من فرقة المنشدين ، كان القندلفت لايفوته ان يسعل، وان يزر عينيه مومئا اليها فى غير فطنة . أما شيخ القرية فكان يسوى شاربه ويلف قنزعة رأسه خلف أذنه ، ويقول للرجل الذى يجاوره : « آه ، هاك امراة بمعنى الكلمة ، بل داهية من الدواهى!»، وكانت سونوخا تنحنى لهما ، فيظن كل منهما انها انما تنحنى له وحده.

وما من امرىء مشغوف بأن يدس انفه فى شئون الناس الا لاحظ ان سولوخا كانت تعامل القوزاقى شوب معاملة غاية فى الكرم واللطف، ذلك ان شوب كان ارمل ، تقوم أمام كوخه دائما ثمانية اكداس من القمح ، وتطل رءوس زوجين من الثيران القوية من مخزن الحبوب المسور الى جانب الطريق ، وتخور الثيران فى كل مرة ترى فيها صاحبتها الوفية البقرة أو عمها الثور الربل وهو يمر بها ، وقد الف تيس ملتح ان يتسلق الى السقف ويثغو فى صوت أجش كصوت العمدة ؛ زاجرا الديكة الرومية وهى تخطر فى الفناء ، مدبرا اذا شاهد اعداءه الصبيان الذين جروا على السخرية بلحيته . وكانت صناديق شوب تضم ذخيرة وافرة من الكتان وكثيرا من السترات

والمعاطف العتيقة قد طرزت بالمخرمات الذهبية ، فقد كانت زوجته مغرمة بالملابس النفيسة ، وكانت قطعتان من حديقة خضره تزرعان كل عام تبغا ، علاوة على الخشخاش والكرنب وعباد الشمس . وكانت سولوخا تراود نفسها قائلة « الا ضير لو ضمت كل هذا الى مزرعتها ، وراحت بالفعل تضاعف ما تغدقه على شوب العجوز من أفضال ومنن وهى تفكر فيما تكون عليه مزرعة شوب من نظام حسن عندما تئول اليها .

وارادت ان تمنع ابنها فاكولا من مغازلة ابنة شوب والاستيلاء على مزرعته والاستئثار بها « ولو قد تم ذلك لمنعتها على الأرجح من التدخل فى أى امر» ، فلجأت الى تلك الحيلة التى تلجأ اليها عادة السيدات فى سن الأربعين — وهى أن تثير شوب على الحداد كلما استطاعت الى ذلك سبيلا ،ولعل هذه الحيل الخبيثة وتلك التدابير التى تنطوى على الدهاء هى التى جعلت العجائز من النساء يرمين بالقول هنا وهناك اذا افرطن فى الشراب بعض الافراط فى اجتماع مرح ، بأن سولوخا ساحرة ولاشك ، وان الفتى كيزيا كولوبينكو قد راى ذيلا ينبت فى ظهرها لايزيد طوله على طول مغزل الفلاحة ، وانها عبرت الطريق مسرعة منذ وقت قريب يرجع الى يوم الخميس الماضى متخذة صورة هرة سوداء ، وان خنزيرة قصدت مرة زوجة القس ، وصاحت كالديك ، ثم وضعت قبعة الآب كوندرات على راسها ، وركضت لا تلوى على شىء .

وقد اتفق ان مر بالمكان تيميش كوروستيافى حين كانت العجائز يروين هذه الروايات ، ولم يفته ان يقص عليهن كيف اتفق له فى الصيف ، قبل صيام بطرس الرسول تماما ، ان استلقى لينام فى حظيرة البقر مسندا راسه الى شىء من القش فراى بعينى راسه ساحرة مرسلة الشعر لاترتدى من الملابس الا قميصا ، وقدشرعت تحلب البقر. وشلت اوصال الرجل وعجز عن الحركة ، فقدنال منه الذهول مناله ، ولطخت الساحرة شفتيه بشىء كريه جدا جعله يبصق اليوم التالى بأسره ، الا ان ذلك كله كان أمرا تحيط به الشكوك ، ذلك ان مساعد قاضى سوروتشينتسى كان هو الوحيد الذى يستطيع ان يرى ساحرة من الساحرات ، لذلك كان اعيان

القوزاق جميعا يلوحون بأيديهم وهم يسمعون هذه الروايات تلويحا ينم عن نفاد الصبر، وقد ألفوا ان يجيبوا على مثل هذه الأقاويل: « انهن يكذبن ، أولئك العاهرات ! » .

ولما تسللت سولوخا من الفرن وعادت الى حالها الطبيعية اخذت ترتب شئون الدار وتضع كل شيء في مكانه شـــأن ربة البيت الصالحة ، ولكنها لم تلمس الأكياس ، وقالت تحدث نفسها : «لقد جاء فاكولا بهذه الأكياس ، فعليه ان يخرجها بنفسه » ، وفي هذه الأثناء اتفق ان التفت الشيطان وهو يطير مندسا في المدخنة ، فلمح شوب يتابط ذراع جاره وهما يسيران على مسافة كبيرة من دارهما، فخرج من المدخنة طائرا وقطع عليهما الطريق وراح يثير اكواما من الجليد المتجمد ،فهبت عاصفة ثلجية ، وساد البياض الجو، وكان الجليد يدور بسرعة خلف الصديقين وامامهما حتى أوشك ان يطمس عيونهما وآذانهما وفمهما ، وعاد الشيطان طائرا الى المدخنة وهو مقتنع كل الاقتناع بأن شوب سيعود الى داره بصحبة صديقه ، وسيجد الحداد في بيته ، ولعله يؤدبه تأديبا يكفه عن ان يمســك فرشاة الرسم زمنا طويلا حتى يمتنع عليه أن يرسم صوره الهزلية الساخرة .

والحق انه ما ان بدأت العاصفة الثلجية في الهبوب واخذت الريح تصك وجهيهما صكا ، حتى تمنى شوب أن لم يشرع في رحلته ، ثم شد قبعته المصنوعة من الفراء على رأسه شـــدا محكما وراح يصب اللعنات على نفسه وعلى الشيطان وعلى صديقه ، غير ان غضبه كان مفتعلا ، ذلك ان هبوب العاصفة الثلجية افعم قلبه بالسرور ، فقد كان لايزال امامهما من الطريق ثمانية امثال ما قطعوه منه حتى يبلغا كوخ القندلفت ، فعادا أدراجهما ، وكانت الريح تلفح مؤخر رأسيهما ، الا انهما لم يستطيعا أن يريا شيئا في غمرة الجليـد الذي كان يدور بسرعة .

وقال شوب بعد ان سارا قليلا : « قف ياصاح ! فاني لأحسب اننا ضللنا الطريق ، اذ لا أرى امامي كوخا واحـدا ، يا لها من عاصفة ثلجية ! امض قليلا في ذلك الاتجاه ، وانظر ان كنت تستطيع ان تجد الطريق ، أما انا فسأرقب الناحية الأخرى ، وما هذا الا

من فعل الشيطان الملعون الذى هيأ لى ان اضرب فى هذه العاصفة، لا تنس أن تنادى عندما تجد الطريق ، آه ، يا لكوم الجليد الذى القى به الشيطان فى عينى ! »

على ان الطريق غاب عن انظارهما ، فقد ابتعد صديق شوب عنه ، واخذ يتخبط على غير هدى منتعلا حذاءه الطويل ، ووقع آخر الأمر على الحالة المعهودة ، وسرته هذه اللقيـة الموفقة حتى نسى كل ما عداها ، ونفض الجليد عن ملابسه ، ودخل الحانة لتوه ، غير عابىء بثقال ذرة بصديقه الذى تركه فى الخارج. وخيل الى شوب فى الوقت نفسه انه قد وجد الطريق ، فوقف وصاح باعلى صوته ، الا ان صديقه لم يظهر، فاستقر رأيه على ان يسير وحده ، ومضى قليلا فشاهد كوخه تحيط به أكوام الثلج من كل جانب وتعلو سقفه ، وصفق بيديه المتجمدتين ، ثم قرع الباب وصاح فى لهجة حازمة هاتفا بابنته أن تفتح له الباب .

وصاح الحداد فى تجهم وعبوس وهو يخرج اليه : « فيم مجيئك الى هنا ؟ »

وعرف شوب صوت الحداد فتراجع قليلا ، وقال يحدث نفسه: « آه ، اذن فهذا ليس كوخى ، وما كان الحداد ليهبط على كوخى، على اننى قد تبينت بعد ان انعمت النظر انه ليس بكوخ الحداد ايضا . ترى كوخ من هذا ؟ لقد عرفته ! ولم اك قد تبينته بعد ! انه الكوخ الذى يقيم فيه ليفشنكو الأعرج الذى تزوج شابة فى مقتبل العمر منذ عهد قريب ، ذلك ان كوخه هو الوحيد الذى يشبه كوخى ، اذن فما الذى جاء بالحداد الى هنا ؟ وى ! لقد جاء يزور زوجة ليفشنكو الشابة ! وهذا هو السر فى الأمر! مرحى لقد فهمت الآن ! »

وقال الحداد وهو يدنو من شوب وقد ازداد تجهما وعبوسا : « من انت ؟ وما الذى يدعوك الى التسكع على أبواب الناس ؟ »

وقال شوب يحدث نفسه : « لن اكشف له عن شخصيتى والا ضربنى ابن الخنازير ضربا موجعا » ، ثم غير صوته واجابه بقوله: « اننى انا ايها الرجل الصالح ! لقد جئت أروح عنكم بانشاد الكولياداكى تحت نوافذكم »

فصاح فاكولا غاضبا : « اذهب الى الشيطان انت وانا شيدك ، لماذا تقف هناك ؟ اتسمعنى ؟ اغرب عنى ! »

وكان شوب قد عزم بالفعل على سلوك هذا المسلك الغطن ، الا ان احساسه بالاضطرار الى الرضوخ لأوامر الحداد اثار فيه الضيق والحنق ، ويظهر ان روحا شريرة قد لكزت ذراعه واكرهته على الاعتراض ، فقال ملتزما الصوت الذى حدثه به أولا : « لم تصرخ هكذا ؟ انما اريد أن انشد الكولبادكى، وهذا هوكل ما فى الأمر!»

« وى ! ارى ان الكلام لايكفيك ! » ، ولم يلبث شوب ان شعر بضربة موجعة تصيب ذراعه .

فقال وهو يرتد قليلا : « ارى انك قد بدأت !القتال ! »

وصاح الحداد وهو يدفع شوب دفعة أخرى : « اغرب عنى ! اغرب عنى ! »

فقال شوب فى صوت ينم عنالألم والتبرم والوجل : «ماذا تفعل؟ ارى انك تقاتل بحرارة ، وتضرب ايضا ضربا موجعا »

فقال الحداد : « اغرب عنى ! اغرب عنى ! » ثم صفق الباب .

وقال شوب عندما أصبح وحيدا خارج الباب : « انظر كيف يتبختر ويختال ! بل حاول أن تدنو منه ! يا له من فتى ! انه ليحسن الظن بنفسه ! أو تحسب اننى لن انالك بسطوة القانون ؟ كلا ياصاحبى العزيز، فلأذهبن من فورى الى المأمور ، والقىعليك درسا ! ويستوى عندى ان تكون حدادا أو نقاشا ، ولكن لا محيص من ان القى نظرة على ظهرى وكتفى ، فانى اظن انه قد شابهما الآن السواد والزرقة . لاشك ان ربيب الشيطان كان يضربنى بقوة ، ويؤسفنى ان الجو بارد يمنعنىمنان اخلع معطفى. صبرا ايها الحداد الشرير، وليحطمنك الشيطان ، انت ودكانك معك ، ولأحملنك على الرقص ! آه ، يا للوغد الملعون ! ولكنى لا اظن انه فى داره الآن ، بل انى لأحسب أن الدار قد خلت الا من سولوخا . ايه ، انها ليست بعيدة علىكل حال ، وانى لمستطيع ان امضى اليها، ثم ان الجو ممعن فى السوء ولن يفاجئنا أحد ، وقد تواتينا الفرصة .. واها لى ! لقد اشتد هذا الحداد فى ضربى ! »

وحك شوب ظهره ثم سلك طريقا آخر، وخفف من الله بعض

الشيء ما كان يتوقعه من فرص مواتية فى لقائه المنتظر لسولوخا ، وافقده ذلك الاحساس بالصقيع الذى كان صوت قرقعته يطغى فى جميع الطرق على هدير العاصفة ، وكانت ترتسم على وجهه من حين الى حين سمة كريهة من الرضا ، وان كانت العاصفة الثلجية قد غطت لحيته وشاربه بزبد من الجليد اخف وقعا من اى حلاق يمسك بأنف ضحيته فى تجبر واستبداد . ولو لم تكن غاشية الجليد قد اخفت كل شيء لرايت شوب يقف بعد ذلك بوقت طويل ويحك ظهره مغمغما : « لقد ضربنى الحداد الملعون فأوجع ! » ثم يمضى فى طريقه .

وبينما كان المخلوق المتعاجب الخفيف الحركة ، يطير من المدخنة بذيله ولحيته التى تحاكى لحية التيس ثم يعود اليها ، اذا بالجيب المتدلى من حمالة الى جانبه ، أجل الجيب الذى كان يضع فيه القمر الذى سرقه ، قد علق بشيء فى الموقد فانفتح ، وانتهز القمر هذه الفرصة فانطلق من مدخنة كوخ سولوخا وسبح فى سهولة ويسر يشق اجواز الفضاء ، وغمر الضوء كل شيء ، كأنما لم تغش الجو عاصفة ثلجية ، وتألق الجليد سهلا فضيا فسيح الأرجاء مرصعا بنجوم كأنها البللور ، وبدا ان الصقيع قد خفت برودته ، وظهرت للعيان جماعات الفتيان والفتيات يحملون الأكياس ، وانسابت الأناشيد ، وانبعثت جماعات المنشدين تصدح بالكوليادكي تحت النوافذ لا تكاد تترك كوخا الا حيته بالغناء .

وما كان أروع ضوء القمر! وأين أين القلم الذى يستطيع ان يجد من الكلمات ما يستطيع ان يعبر به عن مقدار مايتملك النفس من سرور فى مثل هذه الليلة؟ اذ يختلط المرء بجماعة الفتيات المنشدات الضاحكات ويندمج وسط هؤلاء الفتيان الذين لايجدون ضربا من ضروب اللهو والمرح توحى اليهم به هذه الليلة الباسمة المرحة الا التمسوه . ان الدفء ليسرى فى الأوصال تحت العباءة السميكة ، وتزداد الوجنتان من الصقيع وهجا فوق وهج ، ويغرى ذلك الشيطان الخبيث نفسه بالأذى والضرر .

واقتحمت جماعات من الفتيات يحملن الاكياس كوخ شوب ، واجتمعن حول اوكسانا ، واصاب أذنى الحداد وقر من صياحهن

وضحكهن وماكن يروينه من قصص ، ورحن يتنافسن فى رواية نبأ من الأنباء للغادة الفاتنة وفى افراغ اكياسهن والمفاخرة بالأرغفة الصغيرة والمقانق « السجق » ولقيمات القاضى المصنوعة من الجبن التى جمعن منها عددا لابأس به بانشادهن الأناشيد ، ولاح السرور على وجه اوكسانا ، فأخذت تحدث هذه تارة ، ثم تحدث تلك تارة أخرى ، وتضحك ضحكا متصلا لاينقطع .

وكان الحداد ينظر بعين الحسد والغضب الى هذا المرح ويلعن ما أخذ به القوم انفسهم من انشاد الكولياداكى ،وان كان هو شخصيا مولعا به

وصاحت الغادة التى استخفها المرح ملتفتة الى فتاة من الفتيات: « آه يا اوداركا ! انك ترتدين خفا جديدا ! ما أجمله ! وى ، وعليه وشى من ذهب أيضا ! يالك من فتاة سعيدة يا اوداركا ، فقد وهب الله لك رجلا يشترى لك كل شىء ، اما أنا فأين من يشترى لى مثل هذا الخف البديع ؟ »

وقال الحداد : « لا تحزنى ياحبة قلبى اوكسانا ، فسآتيك بخف لم تحظ به الا القليلات »

فقالت اوكسانا وهى ترمقه بنظرة سريعة تنم عن الاباء والاستعلاء: « انت ؟ بودى ان أعرف من أين تأتى لى بخف ارضى بأن أنتعله فى قدمى؟ من يدرى لعلك توافينى بالخف الذى تنتعله القيصرة نفسها!»

وصاحت الفتيات ضاحكات : « انظرن اى خف تريد ؟ »

ومضت الفاتنة تقول فى زهو: « أجل ! ولتشهدن على جميعا ، لو ان فاكولا الحداد اتى لى بالخف الذى تلبسه القيصرة نفسها فاننى أعدكن وعدا صادقا بأن اتزوجه فى اليوم نفسه ! »

وخرجت الفتيات وفى صحبتهن هذه الفتاة الفاتنة المتقلبة .

وقال الحداد يحدث نفسه وهو يتبعهن : « اضحكن اذا شئتن ! فانى اسخر من نفسى ! ولست ادرى ماذا دهانى ! انها لاتحبنى — وى ! واى ضير فى هذا ؟ كأن العالم قد خلا الا من اوكسانا ، احمد الله فان القرية لحافلة بغيرها من الفتيات الجميلات ، وماذا تكون اوكسانا ؟ انها لن تكون أبدا ربة بيت صالحة ، فهى لاتحسن

الا التانق ، ولاضمن حدا لهذا حقا ، فقد آن لى ان أكف عن السخرية بنفسى ! »

واعتزم الحداد ان يصطنع الحزم ، ولكن روحا شريرة اطلقت فى اللحظة نفسها طيف اوكسانا يسبح امامه ، وتمثلت له الفتاة ضاحكة ساخرة وهى تقول :« ائتنى بخف القيصرة أيهاالحداد اتزوجك!»، فثارت مشاعره كلها ولم يستطع ان يفكر الا فى اوكسانا .

وانبعثت حشود المترنمين بالكولياداكى زمرا من الفتيان والفتيات يسعون مهرولين من شارع الى شارع . الا ان الحداد مضى فى طريقه لايرى شيئا ، ولم يشترك فى المرح الذى كان يحبه اكثر من أى انسان آخر .

وكان الشيطان فى هـذه الأثنـاء يطارح سولوخا الغرام بحرارة فيقبل يدها فى رقة كما يفعل مساعد القاضى حين يقبل يد ابنـة القس ، ويضع يده على قلبه ويتأوه ، ويقول لها فى غلظة : « انها ما لم ترض باشباع هواه وتجزيه على اخلاصه الجزاء الحسن هان عليه كل أمر ، ومن يدرى ؟ لعله يلقى بنفسه فى الماء ويجعل روحه تنطلق الى الجحيم لا تلوى على شىء . ولم تكن سولوخا قد بلغت من القسوة هذا المبلغ ، ثم ان الشيطان كان كمـا نعلم يسايرها كل المسايرة ، فقد كانت مولعة بأن تحيط بها جمهرة من الناس ، ويندر ان تراها بغير صحبة ، على انها كانت تتوقع ان تقضى هذا المساء وحيدة ، ذلك ان اعيان القرية جميعا كانوا قد دعوا للاحتفال بليلة عيد الميلاد فى كوخ القندلفت ، غير ان الأمور جـرت على غير ما تشتهى : فما ان بدا الشيطان يلح فى طلبه حتى سمعا فجأة قرعا على الباب وطرق آذانهما صـوت شـيخ القرية البدين ، وهرعت سولوخا لتفتح الباب ، على حين تسلل الشيطان الخفيف الحركة الى كيس ملقى على الأرض .

ونفض شيخ القرية الجليد عن قبعته وشرب قدحا من الفودكا من يد سولوخا ، ثم أنبأها بأن العاصفة الثلجية قد حالت بينه وبين الذهاب الى كوخ القندلفت ، فلما رأى ضوءا فى كوخها جاء لزيارتها معتزما ان يقضى السهرة معها .

وما ان اتم شيخ القرية قوله هذا حتى سمعا طرقا على الباب

كما سمعا صوت القندلفت .

فهمس الشيخ يقول : « اخفيني فى اى مكان فانى لا اريد ان القى القندلفت الآن »

وفكرت سولوخا لحظة فى مكان تستطيع ان تخفى فيه هذا الزائر الضخم الجثة ، واختارت آخر الأمر اكبر كيس للفحم ، وافرغت الفحم فى برميل ، ثم تسلل الشيخ الى الكيس بشاربه وقبعته وفرائه وكل ما عليه !

ودخل القندلفت الكوخ وفرك يديه ثم أخبر سولوخا بانه لم يحضر حفلته احد ، وما اسعده بأن اتيحت له هذه الفرصة لينعم بزيارتها ! اما العاصفة الثلجية فهو لا يخشاها ، ثم دنا منها ولمس بأصابعه الطويلة ذراعها العارية البضة ، وهو يسعل ويتكلف الابتسام، ثم قال فى لهجة تنم عن الدهاء والرضا جميعا :

« وما هذا الذى حبيته به هنا اى سولوخا الرائعة ؟ » .، وما ان قال هذا حتى ارتد قليلا .

فأجابت سولوخا: «ماذا تعنى؟ اذراعى يا اوسيبنيكيفورو فتش؟»

فصاح القندلفت وقد سرته براعة استهلاله كل السرور: « آه ! ذراعك ، اليس كذلك ؟ ها ـ ها ـ ها ! » وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا .

ثم قال مصطنعا اللهجة نفسها وهو يدنو منها مرة اخرى ، ويلمس عنقها لمسا خفيفا ، ويرتد مرة ثانية كما فعل فى المرة الأولى: « وهذا اى سولوخا ياحبة القلب ؟ »

فأجابت سولوخا: «ماذا تعنى؟ اذراعى يا اوسيبنيكيفورو فتش؟ انه عنقى وقلادتى ! »

« آه ! قلادتك ، ها ـ ها ـ ها ! » وراح القندلفت يذرع الغرفة مرة اخرى وهو يفرك يديه .

« وهذا اى سولوخا يازينة النساء ؟ » ، ولم يك يدرى أحد ما الذى اعتزم القندلفت أن يلمسه بعد ذلك بأصابعه الطويلة لو لم يسمعا فجأة قرعا على الباب وصوت شوب القوزاقى .

وصاح القندلفت فى فزع : « يا الهى ! فضولى ! ماذا يكون من

امر رجل فى مكانتى لو ضبط هنا ! تالله ليبلغن ذلك مسامع الاب كوندرات ! »

الا ان مخاوف القندلفت كانت ، فى حقيقة الأمر ، متجهة الى ناحية اخرى ، فقد كان اخشى ما يخشاه ان يتصل نبأ افعاله بمسامع شريكة حياته التى نحلت يدها القاسية قفاه الكث أو كادت .

فقال وقد ارتعدت اوصاله جميعا : « بالله عليك اى سولوخا الطاهرة النقية ! ان شفقتك الحانية كما يقول انجيل لوقا الاصحاح الثالث و .. اواه ياعزيزتى ان شخصا يقرع البـاب ، أجل ان شخصا يقرع الباب ! اخفينى فى مكان ما ! » .

وقلبت سولوخا الفحم من كيس آخر، وتسلل اليه القندلفت ، ولم يك ضخم الجثة ، واستقر فى صميم قاعه حتى كان من اليسير ان تهيل عليه ملء نصف غرارة من الفحم .

وقال شوب وهو يدخل الكوخ : « طاب مساؤك ياسولوخا ! لقد جئت على غير انتظار ، أليس كذلك ؟ وما كنت تتوقعين قدومى، أو كنت تتوقعينه ؟ » ، ومضى شوب يقول ، وقد انشرح صدره وعلى وجهه تعبير له مغزى يوحى بأن عقله البليد كان يعمل متاهبا لالقاء ملحة ساخرة مسلية : « لعلى تطفلت عليك ، أو لعلك كنت تستضيفين شخصا هنا ، او لعلك اخفيت أحدا فى هذا المكان ، ايه ! » ، وضحك شوب وقد فتنته ملاحظته هذه ، الا انه كان يحس فى قرارة نفسه بالانتصار ، فقد ظن انه هو الرجل الوحيـد الذى سوف يحظى برعاية سولوخا .. « والآن ياسولوخا على بكأس من الفودكا التو واللحظة ، فانى لأحسب ان حلقى قد تجمد وجف بفعل هذا الصقيع الملعون ، يا للجو الذى ساقه الله الينا فى ليلة عيد الميلاد هذه ! ويا لها من عاصفة ثلجية يا سولوخا ! آه ، لقد تجمدت يداى فلا أستطيع فك ازرار جلد الماعز الذى ارتديه يا لها من عاصفة ثلجية ! »

ودوى صوت فى الشارع يهتف : « افتحى الباب ! » ، وصحبته طرقة على الباب .

فقال شوب وقد توقف عن الحركة : « انشخصا يقرع الباب»

ودوى الصوت وقد ازداد علوا : « افتحى ! »

فصاح شوب وهو يتناول قبعته : « انه الحداد ، هلا تخفيننى يا سولوخا حيث شئت ! فما من شيء فى العالم يغريني بأن أظهر أمام ابن الخنازير الملعون هذا ! الا فليبله الله بثؤلول ككومة التبن تحت كل عين من عينيه ابن الشيطان هذا ! »

وانتاب الفزع سولوخا نفسها، فأخذت تجرى هنا وهناك كالمتخبط المسلوب اللب ، ونسيت ما كانت تنوى القيام به ، ثم أشارت الى شوب بأن يندس فى الكيس الذى كان القندلفت يجلس مختبئا فيه بالفعل ، ولم يجرؤ القندلفت المسكين ان يفصح عن اله بالسعال أو التأوه حين استوى القوزاقى الثقيل فوق رأسه او كاد ، ووضع كل فردة من فردتى حذائه المتجمد على جانب وجهه .

ودخل الحداد الكوخ دون ان ينطق بكلمة واحدة او يخلع قبعته، وهوى على الأريكة أو كاد ، وقد لاح للأنظار انه ثائر منفعل الى أقصى حد .

وما ان همت سولوخا باغلاق الباب وراءه حتى طرق طارق الباب مرة أخرى ، وكان الطارق هو القوزاقى سفير بيجوز ، ولم يكن من المستطاع اخفاء الرجل فى كيس ، فقد خلا المكان كله من كيس كبير يسع هذا الرجل الذى كان اضخم من شيخ القرية وأطول من باناس جارشوب ، فقادته سولوخا الى حديقة الخضر لتسمع منه كل ما كان يريد ان يقصه عليها .

وأخذ الحداد يقلب الطرف شارد الفكر فى انحاء كوخه ، منصتا بين الفينة والفينة الى أصوات المنشدين تنساب بعيدا مجتازة القرية ، واستقرت عيناه آخر الأمر على الأكياس « ما بال هذه الأكياس ملقاة هنا ؟ لقد كان من الواجب ان تنقل من هذا المكان منذ وقت طويل ، لقد سلب هذا الحب الطائش منى اللب ، وجعلنى كالأبله سواء بسواء ، فان غدا لعيد الميلاد ولا تزال النفايات من كل نوع باقية فى الكوخ ، لأنقلنها الى الدكان ! »

وانحنى الحداد من فوره على الأكياس الضخمة وربطها ربطا محكما وتأهب لرفعها على كتفيه ، على ان فكره كان قد شرد فيما يظهر، ولا يعلم الا الله أين شرد ، ولا سمع كيف راح شوب يلهث عندما التف بشعر رأسه الخيط الذى كان الكيس مربوطا به ،

وكيف شرع شيخ القرية البدين فى الفواق بصوت واضح كل الوضوح.

وكان الحداد يقول : « اما من حيلة تخرج اوكسانا الشقية من راسى ؟ لا اريد ان افكر فيها ، ولكنى لا انقطع عن التفكير فيها ، ويشاء الحظ الا افكر الا فيها ، ترى ما بال الأفكار تتسلل الى رأسى بالرغم منى ؟ يا للعنة ! يخيل الى ان الاكياس قد ازدادت ثقلا عما كانت عليه ، ولاشك ان شيئا آخر غير الفحم قد وضع فيها ، يا لى من أحمق ! لقد نسيت ان كل شىء يبدو لى الآن أثقل مما كان ، وكنت فى سالف الأيام أستطيع ان أثنى قطعة نحاسية من النقود أوحدوة حصان بيد واحدة ، أما الآن فلااستطيع ان ارفع بعض أكياس الفحم ، ولعل الريح تحملنى من بعد » ، ثم صاح مستجمعا أطراف شجاعته بعد ان سكت لحظة : « كلا ! لست جبانا ! لن ادع مخلوقا يسخر منى ! لو ان امامى عشرة اكياس كهذه لرفعتها جميعا » ، ورفع بخفة الكيسين اللذين كان ينوء بحملهما رجلان قويان ووضعهما على كتفيه ، ثم مضى يقول وهو يتناول الكيس الصغير الذى انكمش الشيطان قابعا فيه : « لأحملن هذا ايضا ، فاننى لاحسب اننى وضعت فيه ادواتى » ، وما ان فرغ من قوله هذا حتى غادر الكوخ وهو يصفر لحن الأغنية : « لن تطيب لى الحياة مع اية زوجة ! »

واخذ الغناء والضحك والصياح يعلو ثم يعلو فى طرقات القرية ، وزاد القادمون من القرى المجاورة فى جماهير القوم المتزاحمة المتدافعة ، وامتلأت جعبة الفتيان بما فيها من معاكسات ودعابات حمقاء ، وما اكثر ما كانت تنبعث من بين اناشيد الكولياداكى اغنية مرحة يهتف بها شاب من شباب القوزاق على البديهة ! وتنطلق فجأة عقيرة واحدة من الجماعة بأنشودة يحيى بها السنة الجديد بدلا من انشودة عيد الميلاد صائحا بأعلى صوته :

ها هو ذا عيد الميلاد يولى !
فلا تدخروا شيئا !
وجودوا علينا بكعكة أو فطيرة !
أو طأس من العصيدة !
أو حبل من المقانق !

وكان هذا الماجن يكافأ بعاصفة من الضحك ، وتفتح النوافذ على مصاريعها وتمتد يد ذابلة لامراة عجوز بواحد من المقانق أو بقطعة من الفطير « ذلك انه لم يك يبقى فى الأكواخ الا عجائز النســاء والآباء من أهل الرزانة والوقار » ..

وكان الفتيان والفتيات ينافس بعضهم بعضا فى فتح اكياسهم وتلقى غنائمهم ، ويجتمع الفتيان من كل حدب وصوب فى صعيد واحد يحيطون بجماعة من الفتيات فيعلو صخبهم ويرتفع ضجيجهم ، وكان أحدهم يلقى كرة من الثلج ويخطف آخر كيسا مليئا بأطايب المأكولات على اختلاف اشكالها ، وراحت الفتيات فى مكان آخــر يقبضن على فتى ويدفعنه فينكفىء على وجهه هو وكيسه فى الجليد، وبدا ان الجميع كانوا على استعداد للمرح طوال الليل ، فقد كانت الليلة رائعة كل الروعة ! وقد تجلى ضوء القمر وزاده بريق الجليد تألقا .

ووقف الحداد بأكياسه لايبدى حراكا ، وخيل اليه انه سمع بين زحمة الفتيات صوت اوكسانا وضحكتها الرنانة فأخذ كل عرق فيه ينبض ، والقى بالأكياس على الأرض فتاوه القندلفت الذى كان يقبع فى قرار احدها مما ناله من رضوض وفاق شيخ القرية فواقا عاليا، ثم سار الحداد متمهلا والكيس الصغير على كتفيه صحبة طائفة من الفتيان يلاحقون جمهرة من الفتيات سمع بينهن صوت أوكسانا .

« اجل انها هى ! وقد وقفت كالملكة وعيناها السوداوان تتألقان، وراح فتى وسيم يلقى على مسامعها شيئا ، ولابد ان هذا الشيء يبعث على الضحك لأنها تضحك ، بيد انها تضحك دائما » ، ولم يدر الحداد كيف شق طريقه وسط زحمة الناس ووقف الى جوارها ، وان كان فى هذا من قلة الفطنة ما فيه .

وقالت الحسناء والابتســامة التى سلبت لب فاكولا أو كادت لاتزال تداعب شفتيها ، « آه انت هنا يا فاكولا ! طاب مساؤك هل اصبت الكثير لقاء أناشيدك ؟ وى ! ما أصغر الكيس الذى تحمله! أو جئت بالخف الذى تلبسه القيصرة ؟ ائتنى بالخف اتزوجك!» ، ثم ضحكت وجرت مع الفتيات الأخريات .

ووقف الحداد كأنما سمر فى مكانه ، ثم غمغم آخر الأمر قائلا :

« كلا ، لا أستطيع ان أحتمل هذا ، فانه فوق طاقتى ، ولكن ، يا الهى ! لم وضعت فيها هذه الفتنة الطاغية ؟ ان عينيها وكلماتها وكل ما فيها يلسعنى لسعا ، اى والله يلسعنى ، كلا لا أستطيع ان أتمالك نفسى ،وقد آن لي ان اضع حدا لكل هذا ، الا فلتحل بى اللعنة ! ولأذهبن واغرق نفسى فى فجوة بين الثلوج ، وعندئذ ينتهى الأمر كله ! »

ثم سار فى خطا حازمة ولحق بجماعة الفتيات حتى وقف بحذاء اوكسانا ، وقال فى صوت ينم عن العزم : « وداعا يا اوكسانا ! ولتبحثى لك عن أى حبيب شئت ، واسخرى بمن شئت ، اما انا فلن يقع على بصرك مرة أخرى فى هذا العالم » .

وبدت الدهشة على الحسناء ، وهمت بأن تقول شيئا لولا ان الحداد مضى مهرولا وهو يلوح بيده .

وصاح الفتيان وهم يرون الحداد يجرى : « الى اين يا فاكولا؟»

فصاح الحداد مجيبا : « وداعا ايها الفتيان ! اسأل الله ان يكتب لنا اللقاء فى العالم الآخر، ولكننا لن نعود للمرح فى هذا العالم ، وداعا ! واذكرونى بالخير ! وقولوا للأب كوندرات ان ينشد قداسا على روحى الآثمة ، فقد عصيت الله وآثرت عرض الدنيا على انجاز رسم الشموع لأيقونات القديس والعذراء البتول ، وكل ما تجدونه فى صندوقى من سلع هبة منى للكنيسة ، وداعا ! »

وما ان فرغ الحداد من قوله هذا حتى انطلق يحمل الكيس .

وقال الفتيان :« لقد ذهب عقله ! »

وغمغمت امرأة عجوز كانت تمر بالمكان فى لهجة تنم عن التقى والورع : « نفس ضالة ! ولأذهبن واقول للقوم : ان الحداد قد شنق نفسه ! »

وكان فاكولا فى هذه الأثناء قد توقف ليسترد انفاسه بعد أن جرى مجتازا بعض الطرقات ، وقال يحدث نفسه : « فيم انطلاقى هكذا كأننى فقدت كل شىء ؟ ولألتمسن وسيلة أخرى واحدة ، ولأمضين الى باتسيوك الزابورجاوى ذى الكرش ، فانه يعرف فيما يقال الشياطين جميعا ، ويستطيع ان يفعل مايريد ، أجل لأمضين اليه ، فقد ضلت روحى على كل حال .

وعندئذ اخذ الشيطان يقفز فرحا فى الكيس ، وكان قد قبع فى مكانه وقتا طويلا لا يأتى بحركة ، الا ان الحداد ظن انه لوى الكيس بيده على نحو ما ، فأثار هذه الحركة ، ولم يكن منه الا ان لكز الكيس بقبضته القوية ، وهزه على كتفيه ، ومضى ميمما شطر باتسيوك ذى الكرش .

وكان باتسيوك قوزاقيا زابوروجاويا فى وقت من الأوقات على انه لم يدر أحد : « اطرد من المعسكر أم هرب من زابوروجى من تلقاء نفسه ؟ »

وكان الرجل يقيم فى ديكانكا منذ وقت طويل لعله يبلغ عشر سنوات او خمس عشرة سنة ، فقد راح فى صدر حياته يعيش عيشة الزابوروجاوى القح ، لا يقوم بأى عمل وينام ثلاثة أرباع النهار ، ويزدرد من الطعام قدر ما تحصده ست محاصد ، ويشرب ملء سطل من الفودكا او نحو ذلك فى وقت واحد ، على ان جسمه كان يتسع لهذا كله ، فهو وان لم يكن فارع الطول كان مبسوط الجنبين بعض الشيء ، ثم ان السروال الذى الف أن يرتديه كان من الفضفضة بحيث لا يظهر اثر لساقه مهما افسح فى خطاه ، فاذا سار مجتازا الطريق خيل اليك انه برميل من براميل مقطرى الخمور ، ولعل هذا هو السر فى تلقيبهم اياه بذى الكرش ، وقد عرف القوم جميعا انه ساحر قبل ان يمضى وقت طويل على قدومه الى القرية ، فاذا اصيب احد بمرض استدعى باتسيوك فى الحال ، وكان حسبه ان يهمس ببضع كلمات فتزول عنه العلة ، واذا اتفق ان سيدا جائعا غص حلقه بعظم سمكة بادر باتسيوك فلطمة على ظهره ببراعة حتى يستوى العظم فى مجراه الصحيح دون ان ينال حلق السيد اى اذى ، اما فى السنوات الأخيرة فقلما كان باتسيوك يشاهد فى اى مكان وربما كان السبب فى ذلك هو الكسل ، او ربما كان الرجل يجد مشقة عاما بعد عام فى ان يضغط جسمه ضغطا حتى يستطيع أن يخرج من الباب ، واضطر الناس منذ عهد قريب ان يقصدوه اذا كانوا فى حاجة اليه .

وفتح الحداد الباب فى شيء من التهيب فرأى باتسيوك يجلس متربعا على الأرض أمام برميل صغير عليه طاس من لقيمات القاضى ،

وكان هذا الطاس فى مستوى فمه ، كأنما وضع فى هـذا الموضع عن قصد ، وكان يحني رأسه قليلا تجاه الطـاس دون ان يحرك اصبعا ثم يرتشف المرق ، ويمسك لقيمات القاضى بين اسنانه من حين الى حين .

وقال فاكولا بينه وبين نفسه : « وى ، ان هذا الرجل لأكسل من شوب نفسه ، ذلك ان شوب يأكل بملعقة ، اما هو فيكسل ان يرفع يده ! »

وما من شـــك ان باتسيوك قد شغلته لقيمات القاضى حتى استحوذت على تفكيره ، فقد بدا عليه انه لم يتـنبه اطـلاقا الى دخول الحداد الذى انحنى له انحناءة كبيرة بمجرد أن وطئت قدمه عتبة الدار .

وقال فاكولا وهو ينحنى مرة اخرى : « لقد جئت التمس منك فضلا يا باتسيوك » .

ورفع باتسيوك البدين رأسه ، وعاد مرة أخرى يزدرد لقيمات القاضى .

وقال الحداد وقد استجمع أطراف شجاعته : « يقول الناس عنك ـ وانا لا اقصد بذلك الاساءة ـ اجل اقول هذا ولم يخطر ببالى قط أن اسىء اليك ـ انك تمت بصلة من القربى للشيطان » .

وروع فاكولا اذ نطق بهذه الـكلمات ، فقد ظن انه عبر عن نفسه تعبيرا جافيا فظا ولم يهذب لغته تهذيبا كافيا ، وتوقع أن يتناول باتسيوك البرميل والطاس جميعا ويقذف بهما فى وجهه لايلوى على شىء ، فتنحى قليلا وغطى وجهه بردنه حتى لايصيبه رشاش من مرق لقيمات القاضى الســـاخن ، الا أن باتسيوك رفع عينيه وعاد يلتهم لقيمات القاضى من جديد .

وتشجع الحداد وصح عزمه على ان يمضى فى حديثه .

« لقد جئت اقصدك يا باتسيوك ، متعك الله بـكل شىء ورزقك من الأطايب على اختلاف اشكالها الـكثير ، ومن الخبز ما يناسب هذا القدر! » « وكان الحداد يستطيع أحيانا ان يتألق فى عبارته : وقد الف هذا خلال اقامته فى بلتاوة عندما كان ينقش سور الضابط» « انى لا اجد أمامى انا المذنب الا الخراب ، وليس لى فى هـذا

العالم من معين ولا نصير ! وليكن ما يكون فانى لا أجد مناصا من التماس العون حتى من الشيطان نفسه » ثم مضى الحداد فى قوله اذ رأى باتسيوك لايزال مخلدا الى الصمت : « أى باتسيوك ، ما عسى ان اصنع ؟ »

فأجابه باتسيوك وهو ماض فى التهام لقيمات القاضى دون ان يرفع بصره : « اذا كنت فى حاجة الى الشيطان فاذهب اليه » .

فقال الحداد وهو ينحنى له انحناءة أخرى : « وهذا هو ماحدا بى الى القدوم اليك ، فانى اعتقد انه ما من مخلوق فى العالم يعرف الطريق اليه سواك »

ولم ينبس باتسيوك ببنت شفة بل اتى على مابقى من لقيمات القاضى .

والحف الحداد فى طلبه قائلا : « اشملنى بفضلك ايها الرجل الصالح ولا ترفض طلبى ! ولن ابخل عليك اذا دعت الحاجة ولتكن شيمتنا فى ذلك ماجرى عليه كرام القوم ، ولك ماشئت من لحم الخنزير أو المقانق او دقيق الحنطة السوداء أو الدقيق الأبيض أو الكتان أو الدخن ، فقل لى على الأقل كيف التمس الطريق الى الشيطان ؟ »

وقال باتسيوك فى غير ما اكتراث وهو ملازم مكانه : « ان من يحمل الشيطان على كتفيه لايذهب بعيدا فى طلبه ! »

وتعلقت انظار فاكولا بالساحر كأنما كان تفسير هذه الكلمات مسطورا على جبينه ، وبدت على وجه فاكولا سيماء من يتساءل فى صمت : « ترى ماذا يعنى ؟ » ، وفتح فمه متأهبا لالتقاط اول كلمة ينطق بها الساحر كما يزدرد لقمة القاضى .

ولكن باتسيوك كان قد اخلد للصمت .

ثم لاحظ فاكولا انه لم يكن امام الساحر برميل ولا لقيمات قاض، وانما كان يقوم على الأرض بدلا منهما طاسان من الخشب : أحدهما مملوء بالفطائر المحشوة بالجبن والآخر مملوء بالقشدة ، وتعلقت عينا فاكولا وأفكاره بهذه الأطايب على غير وعى منه ، وراح يحدث نفسه قائلا : « لنر الآن كيف يأكل باتسيوك هذه الفطائر ، ولاشك ان الأمر لن يقتضيه ان ينحنى ليأتى عليها كما فعل بلقيمات

القاضي ، وما كان ليستطيع لو اراد ، فقد كان عليه ان يغمسها أولا فى القشدة »

وما ان مر بذهنه هذا الخاطر حتى فتح باتسيوك فمه ، ونظر الى الفطائر ، ثم ازداد فمه اتساعا ، وفى تلك اللحظة قفزت فطيرة من الطاس وانحطت فى القشدة ثم انقلبت على وجههـا الآخر ثم قفزت الى أعلى ، وطارت مندفعة الى فمه رأسا ، واتى باتسيوك عليها ، ثم فتح فمه من جديد ، وسلكت فطـيرة اخرى هذا المسلك نفسه ، ولم يك باتسيوك ليتحمل من المشـقة الا مضـغ الفطيرة وازدرادها .

وقال الحداد يحدث نفسه : « بالله ! اى عجيبة هذه ؟ » ، وفغر فاه دهشة وفى اللحظة نفسها أدرك ان فطيرة تنطلق فى طريقها الى فمه هو وقد لطخت شفتيه بالقشدة فعلا ، فدفع الفطيرة عنه، ومسح شفتيه ، ثم راح يفكر فى العجائب التى يحفل بهـا هـذا العالم وما يتوصل به الشيطان من مكر ودهاء ليضـل الانسان عن سواء السبيل ، محدثا نفسه بأنه ما من أحد يستطيع مساعدته الا باتسيوك .

« سأنحنى له مرة أخرى ، لعله يفصح عما يبطن .. وى لبئس الشيطان ! ان اليوم يوم صيام ومع ذلك فهو يأكل الفطائر! يا لى من غبى حقا ! اقف هنا واهم بارتكاب المعصيـة ! » ، واندفع الحداد الورع لساعته خارجا من الـكوخ لايلوى على شىء .

على ان الشيطان الذى كان قابعا فى الكيس يحدق فى فريسته لم يكن يستطيع ان يدع هذا الصيد الثمين يفلت من بين يديه فما ان وضع الحداد الكيس على الأرض حتى انفلت الشيطان منه وركب عنقه .

وسرت رعدة باردة فى جسم الحداد، وامتقع لونه، وانتابه الخوف، ولم يدر ماذا يفعل ، وهم بأن يرسم اشارة الصليب الا ان الشيطان ادنى انفه الذى يشبه انف الكلب من اذن فاكولا اليمنى وقال : « اننى انا صديقك ، ولن ادخر شيئا فى سبيل صديق وزميل!» ، ثم هتف فى اذنه اليسرى قائلا : « لأعطينك من المال ما تشاء » ، ومال بانفـه على اذن الحداد اليمنى مرة أخـرى وهمس قائلا :

« لتكونن اوكسانا من نصيبك فى هذا اليوم بالذات » .

ووقف الحداد ساكنا لايبدى حراكا وقد استغرق فى التفكير.

ثم قال آخر الأمر : « مرحى ، مرحى ، اذا كان هذا هوالثمن فانى مستعد أن اكون طوع بنانك ! » .

ولوح الشيطان بيديه ابتهاجا ، وراح يقفز على عنق الحدادصاعدا هابطا ثم قال بينه وبين نفسه : « والآن قد قضى على الحداد ! ولأجزينك الآن على كل ما رسمته ريشتك من صور، وعلىكل ما رويته من قصص قذفت بها فى حق الشياطين ! ترى اى حديث يدور بين رفاقى حين يعلمون بأن أتقى رجال القرية جميعا قد وقع فى قبضة يدى ! »

وضحك الشيطان فرحا مسرورا وهو يفكر فيما أتيح له من تعبير زبانية الجحيم الطوال الذنب جميعا ، وكيف ان الغضب سوف يشتد بالشيطان الأعرج الذى كانوا يعدونه ادهى الشياطين طرا .

وصاح الشيطان وهو يتشبث بعنقه كأنما كان يخشى أن يهرب : « اى فاكولا ، انك لتعلم انه ما من أمر يبرم بغير عقد » .

فقال الحداد : « اننى لعلى استعداد ! وقد علمت ان العقود فى شريعتكم تمهر بالدم ، فصبرا ، ولأخرجن من جيبى مسمارا » .

وعندئذ وضع يده خلفه وامسك الشيطان من ذيله .

فصاح الشيطان وهو يضحك : « انك لبارع فى الدعابة ! هلم ، ودعنى وشأنى ، فحسبك ما الحقته بى من أذى ! » .

وصاح الحداد :« اصبر قليلا ياصديقى ! مارأيك فى هذا ؟» ، وما أن فرغ من قوله حتى رسم اشارة الصليب فاذا بالشيطان يصبح فى وداعة الحمل ، ثم قال الحداد وهو يجذبه من ذيله الى الأرض : « اصبر قليلا ولأعلمنك كيف توقع بالصالحين والمسيحيين الصادقين فى المعصية ! »

وهنا قفز الحداد واعتلى ظهر الشيطان منفرج الساقين ورفع يده ليرسم اشارة الصليب .

فتأوه الشيطان مستجيرا : « الرحمة يا فاكولا ! ولافعلن كل ما تريد ، اى نعم كل ما تريد ، فابق على حياتى ولا ترسمن اشارة الصليب المهلكة ! » .

« آه ! أهكذا تتغير لهجتك أيها الألمانى الملعون ! انى لأعرف الآن ما سأصنع بك ، احملنى على ظهرك فى الحال ! اتسمعنى ؟ وطر كما يطير العصفور ! » .

وسأله الشيطان الحزين : « الى أين ؟ » .

«الى بطرسبرج ، الى القيصرة راسا ! » ، وكاد الحداد يغشى عليه من الرعب ،اذ أحس بأنه يشق أجواز الفضاء .

وقفت اوكسانا وقتا طويلا تفكر فى الكلمات الغريبة التى فاه بها الحداد : وانبعث من اعماقها هاتف يقول لها : « انها قست عليه فأمعنت فى القسوة ، وماذا يكون لو صح عزمه على ان يرتكب أمرا ادا ؟ لست أعجب ان هو فعل ! ولعل حزنه يؤدى به الى الوقوع فى هوى فتاة أخرى ، فيدعوها فى غضبه أجمل الجميلات فى القرية ، ولكن كلا ، فهو يحبنى وقد بلغت الغاية فى الحسن والبهاء ! لن يهجرنى لأى سبب ، وانما هو يتحايل ويتظاهر، ولن تنقضى عشر دقائق حتى يعود ليرانى ، أجل ، انى لقاسية حقا بل ممعنة فى القسوة ، ويجب أن أدعه يقبلنى كما لو كان يفعل ذلك على الرغم منى ، أفلا يسر ويرضى بذلك ؟ » . وعادت الحسناء العابثة الى المزاح مع أترابها .

وقالت احداهن : « صبرا ، فقد نسى الحداد كيسيه ، الا ما ابشعهما من كيسين كبيرين ! لقد جمع من انشاده أناشيد عيد الميلاد أكثر مما جمعنا ، ويخيل الى ان القوم قد وضعوا له ربع شاة فى كل منهما ، ولا أشك انهم دسوا له أيضا عددا لايحصى من المقانق والأرغفة ، مرحى ! لسوف يتوافر لنا ما يكفى الاحتفال بأسبوع عيد الميلاد كله » .

وسألت اوكسانا : « هل هذان الكيسان للحداد ؟ اذن فلنعجل بجرهما الى كوخى ولننعمن النظر فيما وضعه فيهما » .

ووافقت الفتيات جميعا على هذا الاقتراح ضاحكات .

وصاحت لمة الفتيات كلهن وهن يحاولن نقل الكيسين : « ولكننا لا نستطيع رفعهما ! »

فقالت اوكسانا : « انتظرن لحظة ، ولنمض فى طلب زلاقة ثم ننقلهما عليها ! » . وجرت الفتيات باحثات عن زلاقة .

وكان الأسرى قد ضاقوا ذرعا ببقائهم فى الكيسين ، وان كان القندلفت قد ثقب ثقبا كبيرا يختلس منه النظر ، ولو قد خلا المكان من الناس لاستطاع ان يتسلل من الكيس ، ولكن التسلل من كيس امام الجميع خليق بأن يجعله اضحوكة القوم .. وهذا هو ما حال بينه وبين تنفيذ ما يريد ، وصح عزمه على ان ينتظر، ولم يكن منه الا أن تأوه فى صوت خافت تحت وطأة حذاء شوب الثقيل !..

ولم يك شوب نفسه اقل رغبة منه فى الحرية ، وهو يحس بأن شيئا تحته لايستطاب الجلوس عليه ابدا ، فما أن سمع ما دبرته له ابنته حتى ارتاح باله ، واستقر رايه على ان يكف عن محاولة التسلل من الكيس ، معتقدا ان المسافة بينه وبين كوخه لا تقل عن مائة خطوة او قل عن مائتى خطوة ، فان هو اقدم اقتضاه ذلك ان يصلح من شأنه ويزرر معطفه المصنوع من جلد الماعز ويثبت حزامه ، ويا للمشقة التى سوف يعانيها من ذلك ! ثم تذكر ايضا انه ترك قبعته فى كوخ سولوخا اذن فلتجره الفتيات الآن فى الزلاقة .

على ان الأمور جرت على غير ما يحب ويشتهى ، ففى اللحظة التى جرت فيها الفتيات ليبحثن عن الزلاقة خرج من الحانة جاره النحيل باناس مضطرب الأعصاب ثائر النفس ، ذلك ان صاحبة الحانة ابت ان تقدم له شيئا من الخمر على الحساب ، وفكرالرجل فى البقاء فى الحانة راجيا ان يأتى سيد كريم يتحفه بكأس ، ولكن شاء سوءحظه ان يلزم السادة جميعا منازلهم ويأكلوا الأرز والشهد فى احضان اسرهم ، كما يفعل المسيحيون الصالحون ، وخرج باناس من الحانة وهو يفكر فيما اصاب أخلاق الناس من انحلال وما اتصف به قلب اليهودية صاحبة الحانة من قسوة وغلظ ، ثم وقع على الكيسين فوقف مشدوها .

وقال وهو يتلفت حوله : « يا للكيسين القى بهما شخص فى الطريق ! يقينى ان فيهما شيئا من لحم الخنزير ، ومن حسن الطالع ان يجمع هذا المنشد لأناشيد عيد الميلاد هدايا كثيرة كهذه من جميع الألوان ، ياللكيسين! وهب انهما حافلان بالكعك والبقسماط المصنوع من الحنطة السوداء فحسب فانهما جديران مع ذلك بأن استولى عليهما ، ولو قد اقتصروا على الأرغفة لرحبت بذلك ايضا،

فان اليهودية لخليقة بأن تعطيني كاسا من الفودكا عن كل رغيف ، يجب أن أسرع بنقلهما قبل ان يراهما أحد » .

ولفع على كتفه الكيس الذى كان فيه شوب والقندلفت ولكنه احس بثقله الشديد ، فقال : « كلا ، انه لاثقل من ان يستطيع رجل واحد حمله ، وها هو ذا شابوفالنكو النساج قد اقبل لحسن الحظ ، طاب مساؤك يا اوستاب ! » .

فقال النساج وهو يتوقف : « طاب مساؤك » .

« الى اين انت ذاهب ؟ »

« حيث تقودنى خطاى » .

« اعنى على حمل هذين الكيسين ايها الرجل الصالح ! لقد كان بعضهم ينشد اناشيدعيد الميلاد، والقى بهما فى الطريق ، ولنقتسم ما فيهما مناصفة » .

« كيسين ؟ وماذا فيهما ؟ ارغفة بيضاء ام ماذا ؟ » .

« اعتقد ان فيهما اشياء من كل لون » .

واسرعا فانتزعا بعض العصى من السياج ، ووضعا عليها كيسا من الكيسين وحملاه على اكتافهما .

وسأل النساج وهما فى الطريق : « الى أين نمضى به ؟ الى الحانة ؟ »

« هذا ما كنت افكر فيه ولكن اليهودية الملعونة لن تثق بنا ، ولسوف يذهب بها الظن الى اننا سرقناه من مكان ما ، ثم اننىقادم لتوى من الحانة ، فلنمض به الى حيث كوخى ، ولن يقف فىسبيلنا احد هناك ، فان زوجتى قد بارحت الدار » .

وساله النساج الحذر : « اواثق انت انها ليست فى الدار ؟ »

فقال باناس : « اننى والحمد لله لم اصل بعد الى حد البلاهة ، وانما الشيطان وحده هو الذى يستطيع ان يقذف بى الى حيث تكون ، وانى لاحسب انها ستتجول مع النساء الاخريات حتى مطلع الفجر » .

وسمعت زوجة باناس الضوضاء الصادرة عن الرجلين والكيس فى الغرفة الخارجية ، ففتحت الباب وهتفت : « من هناك ؟ » ، وعقلت الدهشة لسان باناس .

وقال النساج فى يأس : « ها نحن أولاء قد وقعنا فى مأزق » .

وكانت زوجة باناس كنزا من ذلك النوع الذى لايعز عليك ان تجد له مثيلا فى هذا العالم ، وكانت كزوجها لا تلزم الدار الا نادرا ؛ وتمضى فى كل يوم تقريبا لزيارة بعض صويحباتها وعجائز النساء الثريات ، تتملقهن وتأكل « بشهية » عظيمة على حسابهن ، ولم تك تتشاجر هى وزوجها الا فى الصباح ، فقد كانت لاتراه احيانا الا فى هذا الوقت ، وكان كوخهما أقدم بكثير من سروال كاتب الناحية او قل يزيد عنه فى العمر ضعفين ، وكانت بعض المواضع من سقفهما المعرش بالجريد خالية من القش ، ولا ترى من سياج الكوخ الا بقايا ، فقد كان كل من يخرج من داره لايرى حاجة تدعوه الى حمل عصا يطرد بها الكلاب ، وحسبه ان يمر بحديقة الخضر من كوخ باناس فينتزع عصا من سياجه . وكان الموقد يظل ثلاثة أيام متصلة بلا أحماء ، وكلما أصابت الزوجة الحنون شيئا من فيض ايدى المسيحيين الصالحين اخفته ما وسعها بعيدا عن متناول زوجها .

وكثيرا ما كانت تصطنع الخلاعة والمعابثة لتحرمه ما يكسب اذا لم يتسع لها الوقت لانفاقه على الشراب ، ولم يك باناس بالرغم مما عرف عنه من احتشام ورزانة يحب ان يرضخ لها ، فكان يغادر داره كل يوم تقريبا وقد اسود ماحول عينيه الاثنتين ، فى حين كانت شريكة حياته تتنهد وتتأوه ثم تنطلق لتخبر عجائز النساء بسوء خلق زوجها ، وما كاله لها من ضربات لم تجد بدا من التجاوز عنها .

ولتتخيل ايها القارىء مقدار ما أصاب النساج وباناس من حيرة لظهور المرأة المفاجىء ، والقى الرجلان بالكيس ووقفا أمامه وعمدا الى اخفائه باطراف معطفيهما ، ولكنهما كانا قد تأخرا كثيرا ، ذلك ان زوجة باناس لمحت الكيس بالرغم مما أصابها به الكبر من ضعف فى البصر .

وقالت ووجهها ينم عن فرح كفرح الصقر : « مرحى ، مرحى ! وجميل منكما ان تكونا قد جمعتما هذا الخير الكثير بانشاد أناشيد عيد الميلاد ! وهكذا حال المسيحيين الصالحين دائما ، ولكن كلا ، فانى لأحسب انكما سرقتماه من مكان ما ، اريانى الكيس فى الحال.

أتسمعان ؟ أريانى فى التو والساعة ! » .

وقال باناس وهو يتظاهر بالوقار : « ليرينك الكيس الشيطان الأصلع ، اما نحن فلا »

وقال النساج : « وما شأنك بالكيس ؟ اننا نحن اللذان انشدنا الكوليادكى لا أنت ! »

وصاحت الزوجة وهى تضرب زوجها الطويل القامة على ذقنه بقبضة يدها وتقتحم طريقها اقتحاما الى الكيس : « بل سترينى الكيس أيها السكير الشقى ! » ، الا ان النساج استبسل هو وباناس فى الدفاع عن الكيس واكرهاها على الارتداد ، على ان الزوجة هرعت اليهما وفى يدها محراك النار قبل ان يستردا انفاسهما ، وضربت به زوجها فى مهارة على ذراعيه ، ثم ضربت النساج ضربة على ظهره ، وبلغت الكيس .

وقال النساج وقد افاق مما أصابه : « لم تركناها تصل اليه؟» .

وقال باناس فى برود : « لم تركناها تصل اليه ؟ بل لم تركتها انت ؟ » .

واخلد النساج الى الصمت برهة ثم قال وهو يحك ظهره : «لاشك ان محراك نارك مصنوع من الحديد ! لقد اشترت زوجتى محراكا من السوق فى العام الماضى ، ودفعت خمسة وعشرين كوبكا ثمنا له ، ولكن ذلك المحراك لا ضرر منه ، فهو لايؤلم » .

وفى هذه الأثناء وضعت الزوجة الظافرة السراج المتخذ من الخزف على الأرض ، وفكت الكيس واختلست النظر اليه ولكن عينيها الواهنتين اللتين لمحتا الكيس من قبل خدعتاها هذه المرة ولا شك .

فصاحت مصفقة بيديها فى فرح وسرور : « آه ان خنزيرا كاملا يقبع فى هذا الكيس ! »

ولكز النساج باناس قائلا : « خنزير ! هل سمعت ؟ خنزير كامل ! وانك لمسئول عن هذا الخطأ كله ! » .

واجاب باناس وهو يهز كتفيه : « لا حيلة فى الأمر ! » .

فصاح النساج وهو يخطو الى الأمام : « أجل ، لا حيلة فى الأمر! ففيم الانتظار؟ ولنمضين بالكيس ! هلمى بنا ، اغربى عنا ! فالخنزير خنزيرنا ! » .

وقال باناس وهو يدنو منها : « اذهبى ، اذهبى ايتها المراة الشيطانة ! فان هذا الكيس ليس ملكك ! » .

وتناولت زوجته محراك النار مرة اخرى ، ولكن شوب تسلل من الكيس فى تلك اللحظة ، ووقف وسط الغرفة وراح يتمطى كما يفعل المرء اذ يستيقظ لتوه من نوم طويل ، وصرخت زوجة باناس، ووقفوا جميعا فاغرين افواههم .

وقال باناس وهو يحدق النظر وقد اتسعت حدقتاه : « ما بال هذه المراة الحمقاء تقول انه خنزير ؟ انه ليس بخنزير » .

وقال النساج وهو يترنح مرتدا الى الوراء فى ذعر: « يا الهى ! ويا للرجل الذى سقط فى الكيس ! الا فلتقل ما تشاء ولتنفجر ان شئت فما من ريب ان للشيطان الرئيم يدا فى ذلك ، وى ! ان الشيطان لايأتى من النوافذ ! » .

وصاح باناس وهو يدقق النظر: « انه شوب ! » .

وقال شوب ضاحكا : « ومن يكون سواه؟ مرحى ، الم اخدعكم خدعة بارعة ؟ لاشك عندى فى انكم كنتم تنوون ان تأكلونى ظانين اننى خنزير من الخنازير! فاصبروا لحظة اعوضكم عما فاتكم ، فان فى الكيس شيئا آخر ، ان لم يك خنزيرا بأكمله ، فهو بلا ريب حلوف صغير او حيوان آخر من الحيوانات الحية ، فقد ظل شىء يتحرك من تحتى » .

واندفع النساج وباناس الى الكيس ، وتشبثت ربة البيت بالطرف الآخر منه ، وربما كان التنازع عليه خليقا بأن يتجدد لولا ان القندلفت ادرك انه لم يعد له أمل بعد فى الاختفاء ، فتسلل من الكيس بمحض ارادته .

وذهلت المراة فتركت الساق التى كانت قد بدات تجر منها القندلفت الى خارج الكيس .

وقال النساج فى فزع : « هاكم رجلا آخر من الزمرة ! ان الشيطان ليعلم ماذا دها العالم ! لقد اختلط عقلى ، وكيف بى والرجال يوضعون فى الاكياس بدلا من الأرغفة او المقانق ؟ » .

وقال شوب ، وقد زادت دهشته عن الآخرين : «انه القندلفت! وى ، وى ! ما ابرعك ياسولوخا ! تضعين رجلا فى كيس ! لقد

KMH

ظننت وقتئذ ان كوخها زاخر بالأكياس والآن ادركت الحقيقة ، لقد كانت تخفى كل رجلين فى كيس ! وكنت اظن اننى الوحيد الذى ... يا لها من امرأة ! » .

وتملك الفتيات شىء من الدهشة عندما وجدن ان أحد الكيسين قد اختفى .

وهتفت اوكسانا : « لا حيلة فى الأمر ، وحسبنا هذا الكيس» .

ورفعت الفتيات الكيس والقينه على الزلاقة .

واستقر راى شيخ القرية على التزام الهدوء ، وقال يحدث نفسه : « انه لو اهاب بهن ان يحللن الكيس ويخرجنه منه لهربت الفتيات الحمقاوات ، ظنا منهن ان الشيطان هو الذى قبع فيه ، وظل وهو ملقى فى الطريق حتى يجىء اليوم التالى . ولم تلبث الفتيات أن طرن بالزلاقة متشابكات الأذرع ، كالعاصفة تجتاح الجليد المقرقع ، وجلست كثيرات منهن على الزلاقة طلبا للمتعة ، بل تسلق بعضهن واستوين على راس شيخ القرية ، وصح عزم الشيخ على ان يتحمل كل شىء .

ووصلن آخر الأمر الى الكوخ ، وفتحن الباب المؤدى الى الغرفة الخارجية و جررن اليها الكيس ضاحكات .

وصحن جميعا معجلات بفتحه : « فلنر ما فيه ! » .

وفى تلك اللحظة زاد الفواق الذى يعذب الشيخ شدة على شدة ، حتى اخذ صوته يعلو بالفواق والسعال جميعا .

وصرخت الفتيات مبتعدات فى فزع : « آه ، ان ثمة شخصا يقبع فى الكيس ! »

وقال شوب وهو يدخل عليهن : « ما بالكن ؟ لماذا تجرين كانما اصابكن جميعا مس من الشيطان ! » .

وصاحت اوكسانا : « آه يا أبت ! ان فى الكيس رجلا ! » .

« فى الكيس ؟ من اين جئتن بالكيس ؟ » .

فقلن جميعا على الفور : « لقد تركه الحداد فى الطريق » .

وراح شوب يحدث نفسه قائلا : « اذن هذا هو السر ؟ الم اقل هذا ؟ » .

« ما يخيفكن ؟ فلنلق نظرة عليه ، هيا ايها الرجل ، وارجو الا

يسوءك اننا لا نخاطبك باسمك اللائق ، هلم ولتخرجن من الكيس زاحفا ! » .

وفعل شيخ القرية ذلك .

وصرخت الفتيات « آه ! » .

وقال شوب يحدث نفسه وقد انتابه الذهول وهو يتفرس فى الشيخ من قمة رأسه الى اخمص قدميه : « اذن فقد اندس الشيخ فى كيس أيضا ! مرحى ، مرحى ! » ، ولم يزد

ولم يك شيخ القرية نفسه بأقل حيرة منه فلم يعرف كيف يبدأ الحديث .

ثم قال موجها الخطاب الى شوب : « اظن ان الليلة باردة » .

فأجاب شوب : « لقد ألم بالجو شىء من الصقيع ، ولكن اسمح لى ان أسألك بماذا تطلى حذاءك ، أبدهن الأوز أم بالقطران ؟ » ، ولم يك شوب يقصد أن يسأل هذا السؤال ، بل كان يريد ان يقول : « كيف اندسست فى هذا الكيس أيها الشيخ ؟ » ولأمر ما سأل سؤالا مختلفا عن ذلك كل الاختلاف .

وقال الشيخ : « القطران أفضل ، طابت ليلتك ياشوب » ، وشد قبعته على رأسه وغادر الكوخ .

وقال شوب ، وهو ينظر الى الباب الذى خرج منه شيخ القرية: « ماذا دهانى حتى اسأله بم يطلى حذاءه ؟ الا ما أبرعك يا سولوخا حتى تضعى رجلا كهذا فى كيس ! تالله انها لامرأة شيطانة ! وقد أدت بى غباوتى .. ولكن أين ذلك الكيس الملعون ؟ » .

فقالت اوكسانا : « القيت به فى ركن من الأركان ، فقد خلا مما فيه » .

« اننى لأعرف قصته كلها ، ليس فيه شىء حقا ! ائتى به الى هنا ، أن فيه رجلا آخر هزيه جيدا ، ماذا وجدت فيه ؟ لاشىء ؟ يا للمرأة الملعونة ! ومع ذلك فانك اذا نظرت اليها حسبتها قديسة لم تذق قط الا طعام الصائمين » .

ولنترك الآن شوب يصب جام غضبه كما يشاء ، ولنعد الى الحداد ، فان الساعة قد جاوزت الثامنة بكثير .

واستبد الخوف بفاكولا أول الأمر ، وخاصة عندما ارتفع عن

الأرض ارتفاعا أعجزه عن أن يرى شيئا مما يقع تحتـــه ، ومضى الفتى يطير كالذبابة يكاد يمس هامتـــه القمر ولو لم ينحن لعلقت قبعته به ، وما ان انقضت فترة وجيزة حتى استعاد ثقته بنفسه، بل بدا يسخر من الشـــيطان ، وكان يطرب كثيرا اذ يرى كيف يعطس الشيطان ويسعل حين يخلع صليبه الصغيرالمصنوع من خشب السرو من عنقه ويدلى به اليه ، وكان يتعمد رفع يده حتى تحك راس الشيطان ، فيظن الشيطان انه يرسل عليه اشارة الصليب، فيزيد من سرعته فى الطيران وكان الضوء باهرا فى ذلك الارتفاع ، والهواء شفافا تلتف به غلالة فضية رقيقة من الضباب ، وكان كل شيء واضحا للعيان ، حتى ان الفتى استطاع ان يرى مشمولذا يمرق مروق الســـهم بجوارهما وهو جالس فى قـــدر ، والنجوم تتجمع فى لمة لتلعب لعبة الاستخفاء ، وقد راح حشد كامل من الأرواح يدور فى سحابة مبتعدة عنهما .

واخذ شيطان من الشياطين يرقص فى ضوء القمر ويخلع قبعته حين يرى الحداد يمر به غاذا السير ، وانطلقت مكنسة تطير عائدة الى مقرها ، وكان من الجلى ان ساحرة قد ترجلت عنهـــا لتوها بعد ان بلغت مقصدها ، وصادف الفتى هو والشـــيطان كثيرا من المخلوقات البشعة ايضـــا ، وكانت جميعها تقف حين ترى الحداد لتتفرس فيه برهة ، ثم تسرع فى طريقها لا تلوى على شيء . وظل الحداد طائرا حتى لاحت له بطرسبورج فجأة وهى تتألق بالأنوار « وقد اتفق ان كانت المدينة مضـــاءة فى ذلك اليوم » ، واتخذ الشيطان ، وهو يطير فوق باب المدينة ، هيئة الجواد ، ووجد الحداد نفسه يمتطى صهوة جواد أصيل يتقد غيرة وحماسة وهو ماض فى عرض الطريق .

يا الهى ! ما أعجب هـــذا الصليل وتلك الضوضاء وذلك النور البـــاهر المتألق ! لقد كانت الجدران ترتفع وتقوم على كل جانب منها أربع طبقات ، وكان وقع حوافر الخيل وقرقعة العجلات يتردد صداها ويتجاوب من كل حدب وصوب ، وبدا للأعين ان الأرض تنشق عن المنازل فى كل خطوة ، وكانت الجسور تهتز ، والعربات يستبق بعضهـــا بعضـــا وهى تمضى فى طريقهـــا ، وسائقوا الزلاقات

وسواس الخيول يصرخون ، والجليد يقرقع تحت وطء الف الزلاقة التى كانت تسرع من جميع الأنحاء ، وكان المارة يتجمعون ويتكاكئون تحت المنازل التى كانت مرصعة بالمصابيح الصغيرة ، فتمرق ظلالهم الضخمة على الجدران حتى تبلغ رءوسهم الأسقف والمداخن .

وتلفت الحداد حوله فى ذهول ، وقد خيل اليه ان المنازل جميعا قد تعلقت به عيونها المتقدة التى لا حصر لها ترقبه ، ورأى عددا كبيرا من السادة يرتدون معاطف النسيج فلم يدر من منهم يرفع له قبعته ، وقال يحدث نفسه :« يا الهى ! ما أكثر الأعيان هنا ! انى لأحسب ان كل من يجتاز الشارع فى معطف من الفراء انما هو مساعد قاض يجىء فى أثره مساعد قاض آخر ! أما اولئك الذين يركبون تلك العربات الجميلة ذات النوافذ الزجاجية فهم من العمد أو هم بلا شك مآمير او لعلهم فى مركز ارفع » ، وقطع عليه حبل تفكيره سؤال وجهه اليه الشيطان :

« او اذهب راسا الى القيصرة ؟ » .

وقال الحداد يحدث نفسه : « كلا ، اننى لخائف ، فان القوزاق الزابوروجاويين الذين اجتازوا ديكانكا فى الخريف الماضى يعسكرون فى مكان ما هنا ، وقد جاءوا من المعسكر يحملون اوراقا من القيصرة ، فلأسألنهم الراى على كل حال » .

« ايه ايها الشـــــيطان ! ادخل فى جيبى ، وانطلق بى الى الزابوروجاويين ! » —

ولم يلبث الشيطان ان استحال شيئا غاية فى الرفع والصغر حتى انه لم يجد صعوبة ما فى ان يندس فى جيب الحداد ، ووجد فاكولا نفسه قبل ان يتسع له الوقت للتلفت أمام بيت كبير ، وارتقى درجا ، وهو لايكاد يدرى ماذا يفعل ، وفتح بابا ، ثم تراجع قليلا وقد بهره الضوء المتألق ، اذ راى الغرفة الفاخرة الرياش ؛ ولكنه استرد بعض جأشه عندما ابصر الزابوروجاويين الذين اجتـــازوا ديكانكا ، وقد استووا الآن على أرائك فرشت بالحرير ودسوا تحتهم أحذيتهم الملطخة بالقطران ، وراحوا يدخنون أقوى أنواع الطباق .

وقال الحداد وهو يتجه اليهم ، محييـــا اياهم بانحناءة كبيرة :

« طاب يومكم أيها السادة ! وليكن الله معكم ، فقد قدر علينا ان نلتقى هنا » .

وسأل الرجل الذى كان يجلس فى مواجهة الحداد تماما صاحبا له على مبعدة منه : « من يكون هذا الرجل ؟ » .

فقال الحداد :« أو لاتعرفنى ؟ اننى انا فاكولا الحداد ، وانى لاذكر انك لك ياسيدى لبثت يومين فى ديكانكا عندما قصدت اليها راكبا جوادك فى الخريف الماضى ، متعك الله بالصحة السابغة ، ومد فى عمرك ! وقد وضعت طوقا جديدا من الحديد على العجلة الأمامية من عربتك » .

فقال ذلك الزابوروجاوى نفسه : « آه ! انه ذلك الحداد الذى يجيد النقش، طاب صباحك أيها الجار! ما الذى جاء بك الى هنا؟» .

وأجاب الزابوروجاوى وهو يشد قامته فى اعتداد بالنفس : « حسنا أيها الجار » ، ثم اردف فى لكنة اوكرانية قوية يريد ان يظهر بمظهر من يستطيع التكلم بالروسية : « حسنا ، انها لمدينة كبيرة ، أليس كذلك ؟ » .

واراد الحداد أيضا ان يثبت علو كعبه فى هذه اللغة حتى لايظهر بمظهر المبتدىء ، ثم انه كان يستطيع هو أيضا ان يتحدث بلغة الكتب على ما مر بنا من قبل .

فأجاب بالروسية أيضا فى غير ما اكتراث : « انها لمدينة عظيمة ! ولا مشاحة فى ان المنازل كبيرة جدا ، كما ان الصور المعلقة متقنة الرسم الى حد عجيب ، وقد زين كثير من المنازل بحروف وشيت بالذهب فى اسراف ، وما من ريب فى ان التناسب بين هذا وذاك رائع » .

وارتفع قدر الحداد فى نظر الزابوروجاويين ، اذ رأوه يفيض فى حديثه هذه الافاضة .

« لنواصلن الحديث معك فيما بعد أيها الجار، ذلك اننا ذاهبون الآن الى القيصرة » .

« الى القيصرة ؟ أفلا تتفضلون أيها السادة وتأخذوننى معكم؟» .

وهتف زابوروجاوى يقول فى لهجة تحاكى لهجة الرجل الناضج وهو يحدث ابنا له فى الرابعة من العمر اذا هو طلب ان يمتطى

صهوة جواد حقيقى كبير : « انت ؟ وما عسى ان تفعل هناك ؟كلا، لا نستطيع ذلك ، فاننا سنتحدث مع القيصرة فى شئوننا الخاصة » ، وشابت وجهه امارات تنبىء بخطر الأمر وجلاله .

والحف الحداد فى الرجاء قائلا : « بل خذونى معكم » ، وهمس الى الشيطان فى صوت خفيض وهو يدق على جيبه بقبضة يده : « دعهم يأخذونى ! » .

وما ان قال هذا حتى هب زابوروجاوى آخر يقول : « فلنأخذه معنا ايها الرفاق ! » .

وانضم اليه آخرون قائلون : « اجل ، فلنأخذه معنا ! » .

« اذن فعليك ان ترتدى من اللباس ما نرتديه » .

وشرع الحداد يرتدى سترة زرقاء واذا بالباب يفتح فجأة ويدخل رجل تغطيه المخرمات الذهبية قائلا : « لقد حان الوقت للمضى الى القيصرة » .

وتملك الذهول الحداد مرة اخرى وهم يدفعون به فى عربة عظيمة تتأرجح على زنبركات ، واخذت البيوت ذات الطبقات الأربع تمر به سراعا على الجانبين ، بدا له ان اديم الطريق المجلجل يموج تحت وقع حوافر الخيل .

وقال يحدث نفسه : « يا الهى ! ما ابهر الضياء ! ان الضوء لايبلغ هذا المبلغ فى موطنى حتى فى اثناء النهار ! » .

ووقفت العربات امام القصر ، وترجل الزابوروجاوبون ، ودخلوا بهوا فخما ، وشرعوا يرقون درجا تتلألأ فيه الأنوار الساطعة .

وغمغم الحداد يقول بينه وبين نفسه : « يا له من درج ! ومن المؤسف ان يطأه المرء بقدميه ، يا للزخارف ! يقولون ان الحكايات تكذب، وحق الشيطان انها لاتكذب الاقليلا! يا الهى ! يا للدرابزون! وما اروعها من صنعة ! لاشك ان الحديد وحده قد تكلف خمسين روبلا سويا » .

وما ان صعد الزابوروجاويون الدرج حتى اجتازوا اول غرفة للاستقبال ، وتبعهم الحداد فى تهيب ، مشفقاان تنزلق قدماه على خشب الأرض الأملس فى كل خطوة ، ثم ساروا مجتازين ثلاث غرف للاستقبال ، والحداد لايكف عن الاعجاب الذى ملك عليه لبه،

فلما ولجوا الغرفة الرابعة لم يتمالك نفسه من المضى الى صورة معلقة على الجدار ، وكانت صورة العذراء البتول تحمل ابنها بين ذراعيها .

وراح يتحدث بينه وبين نفسه قائلا : « يا لها من صورة ! ويا لهذا الرسم البديع ! انه يوشك ان ينطق ! وكأنما دبت الحياة فيه ! ثم الابن المقدس ! انه يضغط يديه الصغيرتين كل بالأخرى ثم يبتسم هذا المسكين ! والألوان ! يا الهى ! ما أروعها ! يخيل الى ان الصورة ليس فيها من تراب الحديد الا ما يساوى كوبكا واحدا، ان كل ما فيها اخضر زمردى وصباغ قرمزى ، أما اللون الأزرق فيتلألأ تلألؤا ، يا لها من قطعة فنية رائعة ! وانى لأحسب ان بطانة الصورة قد طليت بأغلى انواع الرصاص الأبيض ، ومضى يبدىء ويعيد شاخصا الى الباب يتحسس القفل ، « وهذه الصورة على الرغم من بلوغها الغاية فى الروعة فان هذا المقبض النحاسى لأكثر منها جمالا وابداعا ، آه ، يا لجمال الصقل ! انى لأحسب ان ذلك كله قد قام به الحدادون الألمان ، وتكلف اموالا طائلة » .

ولعل الحداد كان خليقا بأن يسترسل الى تأملاته هذه وقتا طويلا لو لم يلكزه فى ذراعه خادم يرتدى لباسه الرسمى ويذكره بالا يتأخر عن رفاقه ، واجتاز الزابوروجاويون غرفتين أخريين ثم توقفوا ، وقيل لهم ان ينتظروا فى الغرفة الثالثة ، وكان فيها عدد من القواد يرتدون زيهم العسكرى الموشى بالذهب ، وانحنى الزابوروجاويون ذات اليمين وذات اليسار ، ثم توقفوا جميعا عن الحركة .

وبعد لحظة واحدة دخل الغرفة رجل أقرب الى البدانة ، عظيم الهامة فى جلال يرتدى زى زعماء القوزاق وحذاء أصفر ، وفى ركابه حاشية كاملة ، وكان اشعث الشعر يشوب عينيه شىء من الحول وتبدو على وجهه امارات الاستعلاء والاعتداد بالنفس ، تنطق كل حركة من حركاته بما الفه من اصدار الأوامر ، ودب الاضطراب بين القواد الذين كانوا يذرعون الغرفة مزهوين بزيهم الموشى بالذهب ، وبدا عليهم وهم ينحنون له انحناءات كبيرة انهم يرقبون فى لهفة اية كلمة ينطق بها ، بل أقل حركة تصدر منه حتى يهرعوا فى الحال ملبين رغباته وطلباته ، ولكن زعيم القوزاق لم يعر ذلك كله ادنى

التفات ، وكل ما فعله أن أومأ اليهم ، ثم اتجه الى الزابوروجاويين .

وانحنى الزابوروجاويون جميعا حتى مست جباههم الأرض .

فقال الرجل فى تمهل وكانت الكلمات تخرج من أنفه بعض الشيء : « أو حضرتم جميعا الى هنا ؟ » .

فأجاب الزابوروجاويون وهم ينحنون مرة أخرى : « جميعـــا يا باتكو ! » (١)

« لا تنسوا ان تتحدثوا بالطريقة التى اشرت عليكم بها » .

« لن ننسى يا باتكو ! »

وسأل الحداد واحدا من الزابوروجاويين : « هل هذا هو القيصر؟»

فأجاب صاحبه : « القيصر حقا ! انه الأمير بوتمكين نفسه !».

وطرقت أذنى الحداد اصوات تنبعث من الغرفة الأخرى ، ولم يدر فى اى اتجاه يدير بصره حتى يرى رتل السيدات يلجن الغرفة مرتديات ثيابا من من الأطلس لها ذيول طويلة ، ولمة من رجال البلاط فى سترات موشاه بالذهب وقد ربطوا شعورهم فى ضفيرة تسترسل على ظهورهم ، لقد كان الفتى لا يرى فى ذلك كله الا غاشية من نور وسنا يحار فيهما البصر .

وخر الزابوروجاويون جميعا على ايديهم وركبهم وهتفوا فى صوت واحد : « الرحمة يامامو ، الرحمة ! » (٢)

واستلقى الحداد ايضا على الأرض فى غيرة وحماسة شديدتين ، وان كان لم ير شيئا ، وهرع بعض رجـال البـلاط ، ولـكزوا الزابوروجاويين .

فصـاح الزابوروجاويون : « لن ننهض يا مامو ! لن ننهض ، ولنمت ولـكننا لن ننهض ! » .

وعض بوتمكين شفتيه ، ثم شخص اليهم بنفسه آخر الأمر، وهمس فى اذن واحد من الزابوروجاويين فى صوت حازم بات ، فهبوا وقوفا .

ثم تجرأ الحداد أيضا ، ورفع راسه ، فراى أمامه امراة قصيرة القامة ، بل هى أقرب الى البدانة ، زرقاء العينين يحف بها ذلك

(١) باتكو فى الاوكرانية معناها الاب ـ المؤلف .
(٢) مامو فى الاوكرانية معناها الام ـ المؤلف .

الجلال السنى الذى لايملك اى انسان حياله الا أن يخضع ويستسلم، اجل ذلك الجلال الذى لا نجده الا فى الملكات .

وقالت السيدة ذات العينين الزرقاوين وهى تنظر الى الزابوروجاويين نظرة فاحصة يشوبها الفضول : « لقد وعدنى سمو الأمير بأن يعرفنى اليوم ، من لم ارهم بعد من أفراد شعبى » ، ثم مضت تقول وهى تدنو منهم : « أو تحظون بالعناية الواجبة هنا ؟ » .

« أجل ، وشكرا لك يا مامو ! ان الطعام الذى يقدم لنا لجيد كل الجودة ، وان كان لحم الضأن لا يشبه فى شىء ما نصيبه منه فى زابوروجى ، ولكننا بدانا نتأقلم » .

وقطب بوتمكين حاجبيه اذ راى الزابوروجاويين ينهجون فى اقوالهم نهجا يختلف تمام الاختلاف عما أرشدهم اليه .

وشد واحد من الزابوروجاويين قامته فى اعتداد بالنفس وتقدم منها قائلا :

« كونى رحيمة يا مامو ! لم تعاقبين شعبك المخلص ؟ ترى كيف آثرنا غضبك ؟ هل وضعنا يدنا فى يد التتر الفجار ، أو عقدنا اتفاقا مع الترك ؟ وهل خنا عهدك فى قول او فعل ؟ أم فقدنا عطفك؟ لقد كان أول ما سمعناه انك أمرت ببناء الحصون فى كل مكان لمقاومتنا، ثم سمعنا بأنك تنوين ادخالنا فى زمرة الجنود النظاميين ، وها نحن أولاء الآن نسمع بمصائب جديدة فى طريقها الينا ، فأى خطأ ارتكبه الجنود الزابوروجاويون ؟ هل اخطئوا فى حقك اذ عبروا بجيشك بيريكوب واعانوا قوادك على هزيمة اهل القريم ؟ » .

وحك بوتمكين ، فى غير اكتراث ، احجار الماس التى كان يرصع بها يديه بفرشاة صغيرة ، ولم ينبس ببنت شفة .

وسألتهم القيصرة فى قلق : « ماذا تريدون ؟ » .

ونظر بعض الزابوروجاويين الى بعض نظرات ذات مغزى .

وقال الحداد يحدث نفسه : « هذا هو الوقت المناسب ! ان القيصرة تسألنا عما نريد ! » ، وانبطح على الأرض فجأة .

« لاتأمرى بعقابى ياصاحبة الجلالة ! بل رفقا بى وارحمينى ! افلا تقولين لى ياصاحبة الجلالة ، وحاشاى ان اقصد الاساءة الى شخصك الكريم ، مم صنع الخف الصغير الذى تنتعلينه ؟ فانى

لاحسب انه ما من صانع أحذية فى اية مملكة فى العالم يستطيع ان يصنع خفا مثله ، رحماك ياربى! تمنيت أن تنتعل زوجتى خفاكهذا!»

وضحكت الأمبراطورة ، وضحك رجال البلاط ايضا ، وقطب بوتمكين حاجبيه وابتسم فى الوقت نفسه ، ولكز الزابوروجاويون الحداد تحت ذراعه ، وتساءلوا فى عجب : « أجن الرجل ؟ » .

وقالت الأمبراطورة فى تلطف : « انهض اذا كانت الرغبة فى خف كهذا قد استبدت بك الى هذا الحد ، فما ايسر تدبير الأمر ! ائتوا له فورا بأحسن خف وليكن موشى بالذهب ، لشد ما أطرب حقا لمثل هذه الطوية السليمة ! » ، ثم مضت تقول . « هاك موضوعا خليقا بأن يتناوله قلمك البارع » ، ملتفتة الى سيد متوسط العمر ذى وجه مكتنز اقرب الى الشحوب كان يقف على مسافة ما من الآخرين وكانت سترته المتواضعة بأزرارها الصدفية الكبيرة تنبىء بأنه ليس من رجال البلاط .

واجاب الرجل ذو الأزرار الصدفية وهو يحنى هامته : « ما أعظم فضلك ياصاحبة الجلالة ، وهيهات ان يوفى هذا الموضوع حقه الا رجل من طراز لافونتين على الأقل ! » .

« انى لأقول لك مخلصة بأن السرور الذى أفاضته على روايتك « قائد اللواء » (١) لاتزال آثاره عالقة فى نفسى ، وان قراءة آثارك لمتعة اية متعة ! » ، ومضت الأمبراطورة تقول وهى تلتفت مرة أخرى الى الزابوروجاويين : « على اننى سمعت انه ما من أحد منكم اقبل على الزواج فى المعسكر » .

فأجاب الزابوروجاوى الذى كان يحادث الحداد قائلا : « كيف هذا ياماما ؟ انك لتعلمين أن الرجل لا غنى له عن زوجة » . وعجب الحداد اذ سمعه يخاطب القيصرة خطابا كأنما تعمد فيه ان تكون لهجته خشنة كتلك التى يتحدث بها الفلاح ولو انه كان يستطيع ان يتحدث بلغة الكتب .

فقال يحدث نفسه : « يا لهم من قوم ذوى دهاء ومكر! وانى

(١) ألف رواية « قائد اللواء » الهزلية الكاتب الروسى الساخر فونفيزين من سنة (١٧٤٥ ـ ١٧٩٢) ـ المؤلف .

لاحسب انه لا يفعل هذا الا لغرض ! » .

واسترسل الزابوروجاوى يقول : « لسنا نساكا ، بل نحن قوم آثمون ، من السهل ان نقع فى المعصية شان جميع المسيحيين الصادقين ، وكثير منا متزوجون ، ولكنهم لايقيمون مع زوجاتهم فى المعسكر، وبعضنا لهم زوجات فى بولندة ، وبعضنا فى أوكرانيا ، بل ان بعضنا لهم زوجات فى تركية » .

وجاءوا للحداد فى تلك اللحظة بالخف .

فصاح فرحا وهو يتناوله : « يا الهى ، ما ابدع ما وشى به من تطريز ! يا صاحبة الجلالة ! مادام الخف الذى تنتعلينه كهذا الخف ـ واني لأحسب ان جلالتك تتزحلقين به على الجليد ـ فما بال قدميك ! لاشك انهما مصنوعتان من السكر الخالص ! » .

وكان للأمبراطورة وايم الحق قدمان بديعتان صورتا أحسن تصوير، فلم تتمالك نفسها من الابتسام وهى تسمع ذلك الاطراء تنطلق به شفتا حداد ساذج ، يبدو فى لباسه الزابوروجاوى وسيما بالرغم من وجهه القاتم .

وسر الحداد بهذه اللفتة الكريمة ، فصبت نفسه الى سؤال القيصرة الجميلة عن كل شيء بالتفصيل : أصحيح ان القياصرة لايأكلون الا الشهد ولحم الخنزير الحنيذ وما اشبه ذلك ؟ الا انه شعر ان الزابوروجاويين ينخسونه بين ضلوعه نخسا ، فصح عزمه على ان يلزم الهدوء ، وعندما التفتت الأمبراطورة الى الرجال الذين هم اكبر منه سنا وبدأت تسألهم عن سبيلهم فى الحياة وعاداتهم فى المعسكر ارتد الحداد الى الوراء وانحنى على جيبه وقال فى رفق : « ابتعد بى من هنا واسرع ! » ، ولم يلبث أن وجد نفسه خارج أبواب المدينة .

هتفت زوجة النساج البدينة تقول فى لثغة ، وهى واقفة مع جماعة من نساء دبكانكا فى عرض الطريق : « لقد غرق ! تالله انه غرق ! ولا قدر على أن أبرح المكان ابدا ان لم يكن قد غرق ! » .

وصاحت امرأة ارجوانية الأنف ترتدى سترة فوزاقية ملوحة بذراعيها : « وى ! أكاذبة انا اذن ؟ وهل سرقت بقرة أحد ، أو حسدت أحدا حتى تنكرن قولى ؟ الا كتب على الله ان تعاف نفسى

شرب الماء ان كانت بيربير شيخا العجوز لم تر بعينى راسها الحداد وهو يشنق نفسه ! » .

وقال شيخ القرية وهو يغادر كوخ شوب ويلحق بالجماعة : « أو شنق الحداد نفسه ؟ وى ! ما كنت لاصدق هذا ! » .

وقالت زوجة النساج : « خير لك ان تقـــولى : كتب الله على ان تعاف نفسى شرب الفودكا ايتها السكيرة العجوز ! لقد كان حتما عليه أن يكون فى مثل جنونك حتى يشنق نفسه ، ، اأغرق نفسه ؟ أجل اغرق نفسه فى الفرجة التى بين الجليد ! وانى لأعلم ذلك علمى بأنك كنت فى الحانة لتوك ! » .

وردت المراة ذات الانف الأرجوانى فى حنق وغضـــب : « ايتهـا الفاجرة ! انظرن ؟ بماذا تتهمنى ! لخير لك ان تعقلى لسانك ايتها الفاجرة ! او تحسبين اننى لا أعرف أن القندلفت يذهب لزيارتك كل ليلة ؟ » .

واستشاطت زوجة النساج غضبا .

« ماذا تقولين عن القندلفت ؟ لمن يذهب القندلفت ؟ اى أكاذيب تختلقين ؟ » .

وشقت زوجة القندلفت طريقها الى المتشاجرين ، وكانت ترتدى سترة من القطن الأزرق مبطنـــة بجلد الأرانب ، وصاحت تقول : « القندلفت ؟ لأرينكما كيف تحترمان اسم القندلفت ! من منكما جرى اسم القندلفت على لسانها ؟ » .

فقالت المراة ذات الأنف الأرجوانى مشيرة الى زوجة النساج : « هذه هى الفاجرة التى يزورها القندلفت » .

فقالت زوجة القندلفت وهى تخطو صوب زوجة النساج : « اذن فانك انت ايتها العاهرة ! أجل انت ، اليس كذلك ؟ انت الساحرة التى نفثت فيه من سحرك وسقيته شرابا دنسا لتحمليه على القدوم أنيك » .

فقالت زوجة النساج وهى تتراجع مترنحة : « اختف ورائى أيها الشيطان ! » .

« آه ايتها العاهرة الملعونة ! قصف الله عمرك ، ولا كتب عليك ان ترى أطفالك ! ايتها المخلوقة الشقية ! » .

وعندئذ بصقت زوجة القندلفت فى وجه المراة الأخرى مباشرة .

وحاولت زوجة النساج أن تفعل بها مثل مافعلت ، ولكنها بصقت بديلا من ذلك على ذقن شيخ القرية ، ولم يكن حلقه بعد ، وكان قد دنا من المتشاجرين حتى يزداد سمعا لما يدور بينهما من شجار .

وصاح الشيخ وهو يمسح وجهه بطرف سترته ويرفع سوطه : ايه ايتها المرأة القذرة ! » .

وكانت حركته كافية لتفريقهن ، فانطلقن مهرولات كل فى ناحية يلقين اللوم على الشيخ صارخات هاتفات .

وردد الشيخ ولم يفرغ بعد من مسح وجهه : « ما ابشع هذا ! اذن فقد غرق الحداد ! يا الهى ! ما كان ابرعه من نقاش ! ويا للسكاكين ومناجل الحصاد الجيدة التى كان يصنعها ! وما كان أقواه من رجل ! » ، ومضى فى تأملاته يحدث نفسه قائلا : « أجل ليس فى قريتنا الكثير من أمثاله ، والحق اننى لم ألحظ وانا قابع فى ذلك الكيس الملعون أن الفتى المسكين كان شديد الاكتئاب ، اذن فهكذا انتهت حياة الحداد ! لقد كان حيا بالأمس ، أما اليوم فلم يعد له وجود ، وقد كنت انوى أن اقصد اليه لاحدى فرسى البقعاء ! » .

والتمس الشيخ طريقه الى كوخه فى هدوء وقد شغل باله بهذه الأفكار المسيحية .

واضطربت اوكسانا ايما اضطراب عندما بلغها النبأ ، وكانت لا تثق كثيرا بقول بيربير شيخا : انها رات الحداد يشنق نفسه ، ولا بثرثرة النساء ، فقد كانت تعلم ان الحداد اتقى من ان يلقى بنفسه الى التهلكة ، ولكن ماذا يكون لو انه كان قد رحل معتزما الا يعود الى القرية ابدا ؟ والحق انه كان من المتعذر على المرء ان يجد فى اى مكان فتى قويم الخلق كهذا الحداد ، ثم انه كان مفتونا بها! وقد احتمل نزواتها اكثر من اى فتى غيره ، واخذت الحسناء تتقلب فى فراشها الليل بطوله ، على جانبها الأيمن تارة وعلى جانبها الأيسر تارة أخرى ، ثم تعود الى جانبها الأيمن ثم الى الأيسر ، واستعصى عليها النوم ، أجل اخذت تتقلب عارية فى كامل فتنتها التى حجبها الليل حتى عن نفسها ، وراحت تصب على راسها اللوم فى صوت اوشك ان يكون جهيرا ، ثم هدات بعض الهدوء فصح

عزمها على الا تفكر فى شىء ، ومع ذلك فقد ظلت تفكر وتفكر، لقد كانت تضطرم بنار الحمى ، وما ان لاح الصباح حتى كانت غارقة فى حب الحداد الى اذنيها .

ولم يبد شوب سرورا ولا حزنا على مصير فاكولا ، فقد شغل فكره بأمر واحد ، ذلك انه لم يستطع ان ينسى خيانة سولوخا ، ولم يكف عن التنديد بها حتى أثناء نومه .

وانبلج الصبح ، وامتلأت الكنيسة بروادها ولما يتنفس الصبح تماما ، ورسمت عجائز النساء عند مدخل الكنيسة علامة الصليب فى ورع وتقى ، وكن يعصبن رءوسهن بأغطية من الكتان الأبيض ويرتدين سترات من النسيج الأبيض أيضا ، وقد وقفت أمامهن سيدات فى صدرات خضر وصفر ، بل كان بعضهن يرتدين معاطف زرقاء داكنة وشيت ظهورها برسوم مذهبة ، وحاولت الفتيات أن يشققن طريقهن مقتربات من مكان الأيقونات ، وكن يرتدين ملء دكان من الشرائط تلتف حول رؤوسهن ، ويتقلدن القلائد والصلبان وقطع النقود حول أعناقهن .

وكان يقف أمام هؤلاء جميعا السادة والفلاحون المتواضعون بشواربهم وقنزعات رءوسهم ورقابهم الغليظة وذقونهم التى حلقوها حديثا ، وكانوا كلهم يرتدون العباءات ذات القلانس تطل من تحتها سترة بيضاء حينا أو سترة زرقاء داكنة حينا آخر، ويشيع السرور فى كل وجه يقع عليه بصرك ، وكان الشيخ يلعق شفتيه مفكرا فى المقانق التى سيفطر عليها ، اما الفتيات فكن يفكرن فيما هن بسبيله من تزحلق على الجليد مع الفتيان ، واخذت عجائز النساء يتمتمن بصلواتهن فى غيرة وحماسة متزايدة . وكان المرء يستطيع أن يسمع فى اية ناحية من نواحى الكنيسة سفيربيجوز القوزاقى وهو ينحنى الى الأرض ، على ان اوكسانا كانت تقف وحدها شاعرة باكتئاب لا عهد لها به ، فقد كانت تتمتم بالصلاة ولا تصلى ، وتزاحمت فى قلبها مشاعر كثيرة متباينة كل منها أكثر اقلاقا للنفس واعظم اثارة للأسى من الآخر، فلا يجد من ينظر الى وجهها الا حيرة ممضة وهما ثقيلا وترقرقت الدموع فى عينيها وعجزت الفتيات عن التهكن بالسبب ، ولم يدر بخلدهن ان الحداد هو المسئول عما هى فيه ،

على ان اوكسانا لم تكن هى الوحيدة التى شغل بالها على الحداد ، فقد لاحظ القرويون جميعا ان العيد قد خلا من البهجة المعهودة فى الأعياد ، وانه كان ينقصه شيء . ومما زاد الطين بلة ان صوت القندلفت كان غليظا أجش بعد ما كابد من رحلاته وهو قابع فى الكيس ، واخذ يئز ازيزا لايكاد يسمعه أحد . صحيح ان المرتل الذى كان يزور القرية ، راح يرتل من قرار النغم ترتيلا جميلا ، ولكن هذا الترتيل كان خليقا بأن يكون أعذب وأجمل فى وجود الحداد الذى الف دائما ، حين يرى القوم ينشدون صلاة « يا أبانا » أو صلاة « الطفل المقدس » ، ان يعتلى منصة المرنمين وينشد الأنشودة من فوقها بالنغمة التى جرى أهل بلتاوة على الترنم بها ، ثم انه كان الفتى الوحيد الذى يؤدى مهمة السادن ، وفرغ القوم من صلاة الفجر ، ثم انتهوا من القداس بعد ادائهم صلاة الفجر .. ترى ، أين اختفى الحداد حقا ؟ ..

***

وفى باكورة الصباح عاد الشيطان بالحداد طائرا بسرعة فاقت السرعة التى طار بها فى ذهابه ، ووجد فاكولا نفسه فى غمضة عين بجوار كوخه ، وانطلق الديك صائحا فى تلك اللحظة .

وهتف الحداد وهو ممسك بالشيطان من ذيله ، وكان قد أوشك ان يولى الأدبار : « الى اين ؟ صبرا لحظة يا صديقى ، فان ما بيننا لم ينته ، ذلك اننى لم أشكرك بعد » ، ثم امسك بقضيب وجلده ثلاث جلدات ، فانطلق الشيطان المسكين يجرى كفلاح جلده مساعد القاضى لتوه ، وهكذا انقلب عدو البشرية من خادع يغوى الناس ويضلهم ويعبث بهم الى مخدوع جازت عليه الحيلة ، ثم ولج الحداد الغرفة الخارجية ، واعد لنفسه مكانا فى القش ، ونام حتى حان وقت الغداء ، ثم استيقظ فراعه ان الشمس قد اعتلت كبد السماء ، وهتف يقول : « لقد افرطت فى النوم وفاتتنى صلاة الفجر والقداس ! » .

وغلب الحزن على الحداد الورع ، فقد اعتقد اعتقادا جازما ان الله قد شاءت ارادته أن يقتص منه لما انتواه من اثم بالقاء نفسه فى موارد التهلكة ، فاصابه بهذا النوم الثقيل الذى منعه من حضور الكنيسة فى

مثل هذا العيد المقدس ، على انه اخذ يعزى نفسه بقوله : انه سوف يعترف للقس بكل هذا فى الاسبوع المقبل ، وسوف يخشع من الآن فصاعد خمسين مرة كل يوم عاما كاملا ، ثم نظر فى الكوخ ، فلم يجد به احدا ، ذلك أن سولوخا لم تكن قد عادت من الكنيسة بعد فيما يظهر .

واخرج الخف بعناية من صدر سترته ، وراح يتعجب مرة اخرى من نفاسة صناعته وما خاضه من مغامرة عجيبة فى الليلة الماضية ، واغتسل الفتى وارتدى اغلى ما عنده من ثياب ، وتحلى بالملابس التى حصل عليها من الزابوروجاويين نفسها واخرج من صندوق قبعة جديدة من الاستراخان الجيد ذات قمة زرقاء داكنة لم يلبسها مرة واحدة منذ اشتراها اثناء اقامته فى بلتاوة ،واخرج ايضا حزاما جديدا تمثلت فيه الوان قوس قزح ، وجمع هذا كله فى منديل ، وزاد عليه سوطا ثم مضى من فوره لمقابلة شوب .

وحملق شوب فى الحداد وهو يدخل كوخه ، ولم يدر : اى حال من احوال الحداد اعجب واغرب ؟ اقيامه من بين صفوف الأموات ، أم جراته فى القدوم عليه ، أم تأنقه هذا التانق كأنه زابوروجاوى حق ؟ بل ازداد دهشة على دهشة عندما فك فاكولا المنديل وطرح امامه قبعة جديدة وحزاما لم ير لهما فى القرية مثيلا من قبل ، ثم جثا امامه وقال فى لهجة تفيض بالتوسل والابتهال : « الرحمة يا باتكو ! اضربنى ان شئت ، ولكن لا تغضب على ! هاك سوطا ، اضربنى به ما شاء لك الضرب ، فانى مسلم امرى اليك ، وهانذا اعترف بندمى على كل ما قدمت يداى ! اضربنى ، ولكن لا تحنق على ، فقد كنت يوما زميلا لأبى ، واكلتما الخبز والملح معـــا وشربتما كأس الوفـاء والاخلاص ! » .

وانما سر شوب فى قرارة نفسه ، اذ راى الحداد يجثو عند قدميه ، وهو الذى لم يذعن لأحد فى القرية ، بل لقـد بلغ من شدة بأسه انه كان يستطيع أن يلوى القطع ذات خمسة الكوبكات وحدى الخيل بين يديه كانها الكمك ، واراد شوب ان يؤكد ماله من منزله فتناول سوطا، وجلده به ثلاث جلدات على ظهره .

« وى ! هذا حسبى ، فانهض ! وتعلم ان تطيع دائما من يكبرونك

سنا ، ولننس ما مر بيننا ، والآن حدثني بما تريد » .

« زوجني أوكسانا يابانكو ! » .

وفكر شوب قليلا ، ونظر الى القبعة والحزام ، وكانت القبعة جميلة ينشرح لها الصدر ، ولم يكن الحـــزام دونها فى ذلك ، ثم فكر فى سولوخا الخائنة وقال فى حزم : « حسنا ! فلترسل الخطاب ! » .

وصاحت أوكسانا : « آه ! » ، عندما اجتازت عتبة الباب ورات الحداد ، وراحت تحملق فيه وقد تملكتها الدهشة والسرور جميعا.

وقال فاكولا : « انظرى الخف الذى جئتك به ، انه الخف الذى تلبسه القيصرة بلا فرق ولا خلاف » .

وقالت الفتاة وهي تلوح بذراعيها ولا تكف عن التأمل فيه : « كلا ، كلا ! لا أريد الخف ، فانى راضية بك بصرف النظر عن الخف .. » ، ثم علت وجهها حمرة الخجل ولم تزد .

وقصد اليها الحداد واخذ بيدها ، وارخت الفتاة الحسناء بصرها، وتجلى حسنها الفائق كما لم يتجل من قبل ، وقبلها الحداد المفتون قبلة رقيقة ، فتضرج وجهها بحمرة قانية من الخجل ، وازدادت فتنة على فتنة .

وكان الأسقف الطيب الذكر يجتاز ديكانكا راكبا العربة ، فأعجب بموقع القرية ، وتوقف وهو يهبط الطريق امام كوخ جديد .

وسال غبطته امراة جميلة كانت تقف بجوار الباب وقد حملت بين ذراعيها طفلا رضيعا : « كوخ من هذا الذى طلى بهذا الطلاء الباهر ؟ »

فاجابته المراة وهي تنحنى : « كوخ الحداد فاكولا » . ولم تكن هذه الفتاة سوى أوكسانا .

وقال غبطته وهو يلقى على الأبواب والنوافذ نظرة فاحصة : «رائعة! اجل صنعة رائعة ! » ، وكانت النوافذ جميعا قد خططت بالطـــلاء الأحمر ، وراح القوزاق فى كل مكان يمتطون صهوات جيادهم بجوار الأبواب وغلايينهم بين أسنانهم » .

ولكن غبطته زاد فاكولا اطراء عندما علم أن فاكولا اراد أن يكفر عن ذنبه فى حق الكنيسة ، فطلا الجناح الأيسر كله من منصة المرتلين باللون الأخضر ورصعه بالأزهار الحمر .

ولم يكتف فاكولا بذلك ، بل رسم الشيطان فى الجحيم على ناحية

من الجدار يطالع الداخل الى الكنيسة ، وكان منظـــره بشعا كل البشاعة ، لا يمر به أحد الا بصق عليه . وكانت النساء اذا لج طفل فى البكاء بين أذرعهن حملنه ورفعنه الى حيث الصورة وقلن له : « هاك ! وانظر ! ما أبشع هذا المنظر ! » ، فيحبس الطفل دموعه ويختلس نظرة الى الصورة ، ثم يندس فى صدر أمه ويزداد بهـا التصاقا .

انتقام رهيب

انتقام رهيب

- ١ -

كان ثمة هرج ومرج وضجيج فى حى من احياء كييف ، فقد كان الصاغ جوروبتس القوزاقى يحتفل بزواج ابنه ، وأم الحفل عدد عظيم من الضيوف كانوا فى الايام الخالية يحبون الاكل الطيب،ويحبون الشراب أكثر ، ويحبون المرح أكثر واكثر ، وجاءميليتكاالزابوروجاوى، فيمن جاءوا ، ممتطيا صهوة جواده الأشقر مقبلا، لا يلوى على شىء من حفل صاخب اقيم فى سهل برشلاى حيث قضى سبعة أيام بلياليها يثقل على جنود ملك بولندة ويعب النبيذ الأحمر عبا ، وجاء ايضا دانيلوبورولباش ، اخو الصاغ بالتبنى مصطحبا زوجته الشابة كاترينا وابنه البالغ من العمر اثنى عشر شهرا مقبلين من وراء نهر الدنيبر حيث بيت أسرته يقوم بين تلين ، وأخذ الضيوف بحسن طلعة كاترينا الشابة ، وحاجبيها اللذين يحاكيان فى سوادهما المخمل الالمانى ، وثوبها الأنيق المصنوع من النسيج الثقيل ، ونقبتها الحريرية الزرقاء وحذائها ذى الكعب الفضى ، ولكن دهشتهم كانت أعظم من عدم حضور والدها الشيخ معها ، فقد قضى الرجل عاما بل أقل من عام فى ذلك الاقليم ، ولم يسمع القوم عنه شيئا طيلة الواحد والعشرين عاما السابقة على ذلك ، ولم يأت لزيارة ابنته الا بعد أن تزوجت ورزقت ولدا ذكرا ، ولا شك ان فى جعبته قصصا غريبة كثيرة جديرة بان تحكى ، وكيف لا يكون هذا شانه وقد قضى فى البلاد الأجنبية هذه الحقبة الطويلة من الزمن ؟ ان كل شىء فيها يختلف عما هو عليه فى بلادنا ، فالقوم ليسوا هم القوم كما ان تلك البلاد قد خلت من الكنائس المسيحية ، ومع ذلك تخلف الرجل عن الحضور .

وجاء أهل البيت للضيوف بفودكا مطيبة فيها زبيب وفيها برقوق ،

كما جاءوا لهم بكعكة زفاف فى طبق كبير ، وانقض الموسيقيون على الطبقة السفلى منها التى دست فيها قطع النقود عند خبزها ، وألقوا بكماناتهم وصنوجهم ودفوفهم التماسا لفترة قصيرة من الراحة ، وفى هذه الأثناء خرجت الفتيات والسيدات الشابات مرة اخرى ، بعد أن مسحن افواههن بالمناديل المطرزة ، ووضع الفتيان اذرعهم فى خاصرتهم واخذوا يتلفتون حولهم فى استعلاء متأهبين للمضى للقائهن ، واذا بالصاغ العجوز يبرز ايقونتين يبارك بهما الزوجين الشابين .

وكان قد أعطاها اياهما الناسك الموقر الأب فارفولومى ، ولم تكونا مركبتين على رصيعتين نفيستين ولا يشع منهما بريق لذهب أو فضة ، على أن أية روح شريرة ما كانت لتجرؤ على الاقتراب من اى امرىء وضعهما فى بيته ، ورفع الصاغ الايقونتين عاليا وهم بأن يتلو صلاة قصيرة ، واذا بالأطفال الذين كانوا يلعبون على الأرض يصرخون فجأة صرخات يشيع فيها الرعب والفزع ، وتراجع القوم وأخذ كل منهم يشير فى رهبة الى قوزاقى وقف فى وسطهم ولم يدر احد من يكون ، ولكنه كان قد ابدع فى الرقص ، واستحوذ على الملتفين حوله، وما ان رفع الصاغ الأيقونتين حتى انقلبت سحنة القوزاقى فى الحال، فازداد انفه كبرا ، ومال على جانب وتبدل لون عينيه من السمرة الى الاخضرار وأزرقت شفتاه ، وارتجف ذقنه ودق حتى غدا كالرمح ، واطلت من فمه ناب ، وظهرت حدبة خلف راسه ، واستحال رجلا عجوزا نالت منه الأيام .

وصاح القوم وقد التصق بعضهم ببعض : « انه هو ! انه هو ! » .

وصاحت الأمهات يتخطفن اطفالهن : « لقد ظهر الساحر مرة أخرى ! » .

وتقدم الصاغ فى مهابة واعتداد بالنفس وصوب اليه الايقونتين ثم هتف : « اغرب عنا يا صورة الشيطان ! فلا مكان لك هنا ! » ، فاختفى الشيخ الغريب وهو يفح فحيح الافعى ، ويقعقع بأسنانه كأنه الذئب » .

ولغط القوم وثارت بينهم التكهنات ، وكان ضجيجهم أشبه بهدير البحر المت به عاصفة .

وتساءل الشبان : « من يكون هذا الساحر ؟ » ، ذلك انهم لم يكونوا يعرفون عنه شيئا .

وتمتم الشيوخ وهم يهزون رءوسهم : « تالله لتثورن المتاعب ! » ، واجتمع الناس فى كل مكان من الفناء الفسيح زرافات ينصتون الى قصة الساحر المخيف ، على ان كلا منهم كان يرويها رواية تختلف عن رواية الآخر ، ولم يستطع أحد أن يقول عنه شيئا محققا .

ودحرج القوم برميلا من شراب العسل المخمر وجاءوا الى الفناء بجالونات كثيرة من النبيذ اليونانى ، وعاد الضيوف الى مرحهم ، وعزفت جوقة الموسيقى ، فأخذت الفتيات والسيدات الشابات ، كما أخذ كرام القوزاق فى ستراتهم الزاهية الالوان يدورون بسرعة وهم يرقصون ، وشرب الشيوخ الذين ناهزوا التسعين ، بل المائة ، كأسا أو كأسين ، ثم شرعوا يرقصون هم أيضا عائدين بالذكرى الى السنوات الخوالى التى لم تضع منهم سدى ، وظلوا يحتفلون حتى ساعة متأخرة من الليل احتفالا لا نجد له نظير اليوم ، وبدأ الضيوف يتفرقون ، ولكن لم يعد منهم الى البيوت الا القليل ، فقد بقى الكثيرون يقضون الليلة فى فناء الصاغ الفسيح ، بل أخلد جمع عظيم من القوزاق الى النوم من غير دعوة ، فاستلقوا تحت الأرائك او على الأرض أو بجانب خيولهم أو بجانب الحظيرة ، وكان السكارى يرقدون حيث يتعثرون ويغطون غطيطا يصل الى اسماع أهل القرية جميعا .

- ٢ -

وانبعث من السماء ضوء رقيق غشى الأرض جميعا ، فقد بزغ القمر من خلف التل ، وغمر ضوءه ضفة الدنيبر الوعرة بفلالة بيضاء كالثلج ، أو كأنها النسيج الموصلى النفيس الذى اشتهرت به دمشق ، وانحسرت الظلال مرتدة الى أعماق غابة الصنوبر .

وكان ثمة قارب حفر من شجرة سنديان ، يسبح هابطا نهر الدنيبر ، وقد جلس غلامان فى مقدمته ، ووضعا قبعتيهما القوزاقيتين السوداوين على جانب من راسهما ، وراح الرشاش يتطاير من مجدافيهما كأنه الشرر ينبعث من حجر من الصوان .

ما بال هذين القوزاقيين قد صمتا عن الغناء ، وكفا عن الحديث عن القساوسة البولنديين الذين كانوا يتجولون فى أوكرانيا يحملون القوزاق على اعتناق الكاثوليكية ، وعن المعركة التى استغرقت يومين مع التتر عند البحيرة الملحة ، ولكن كيف تنطلق عقيرتهما بالغناء ويتشدقان بالحديث عن ضروب البسالة ، وقد استغرق سيدهما فى التفكير وتدلى ردن سترته القرمزية من القارب يخط فى صفحة الماء ، وراحت سيدتهما كاترينا تهز طفلها فى رقة ولطف وقد تعلقت أنظارها به ، على حين أخذ الغبار الرمادى الدقيق الذى يحمله الرشاش يلوث ثوبها الأنيق المصنوع من النسيج الثقيل وقد تجرد من غطائه الكتانى .

ويالها من متعة أن ترنو ببصرك من وسط الدنيبر الى التلال العالية والمروج الفسيحة والغابات الخضر ، ولم تك هذه التلال تلالا بالمعنى المفهوم ، فقد كانت تنتهى من أسفلها ومن أعلاها بقنن تشرف عليها السماء فى علاها ، وتشرف هى على السماء ، وأما الغابات القائمة على منحدراتها فلم تك ايضا غابات بالمعنى المفهوم ، بل كانت هى الشعر الذى يغطى رأس شيطان الحرجة الأشعث ، يتدلى الى الماء يغسل فيه لحيته التى تنبسط من تحتها السماء فى علاها ، وتمتد فوق رأسه مشرفة فى ذراها ، وكذلك لم تكن المروج مروجا ، بل كانت نطاقا أخضر يتوج قبة السماء ، ويتدلى من فوقه ومن تحته .

ولم يكن السيد دانيلو يتلفت حوله ، بل كان ينظر الى زوجته الشابة : « ما بالك غارقة فى الحزن أى زوجتى الصغيرة ومهجة قلبى كاترينا ؟ » .

قالت كاترينا وهى تخرج منديلا تمسح به وجه الطفل النائم : « لست غارقة فى الحزن أى زوجى دانيلو ! وانما يملؤنى الخوف مما سمعته من القصص الغريبة عن الساحر ، ويقول القوم : انه ولد بشع المنظر تتقحمه العين لا يرضى اى طفل بأن يلعب معه ، فهلا تستمع أى زوجى دانيلو الى القصص المخيفة التى يروونها عنه ! لقد خيل اليه أن الناس جميعا يسخرون منه ، وكان اذا لقى انسانا فى الظلام ظنه يفتح فمه ويكشف عن أسنانه استهزاء به ، حتى اذا جاء اليوم التالى وجدوا هذا الانسان ميتا لا حراك به . وقد عجبت لتلك

القصص وروعني سماعها » وكان المنديل الذى اخرجته كاترينا لتمسح به وجه ابنها قد طرزته بأوراق الشجر والتـــوت مستعينة بالحرير الأحمر .

ولم ينبس السيد دانيلو ببنت شفة ، بل اخذ يحدق النظر فى الظلام حيث كان يلوح للأعين فيما وراء الغابة بمســـافة كبيرة حافة مظلمة لسور بنى باللبن تقوم خلفه قصر قديم ، وكان جبين دانيلو يخطه ثلاثة خطوط من التجاعيد ، واخذت يده اليسرى تربت شاربه الجليل .

وقال : « ليس المخيف فى الأمر انه ساحر ، بل المخيف انه ضيف شرير ، ترى اى نزوة بعثت به الى هنا ؟ لقد انبئت ان البولنـديين ينوون بناء حصن ليفرقوا بين الزابوروجاويين ، وقـــد يكون ذلك صحيحا ، تالله لأطيحن بعش ذلك الشيطان اذا بلغتنى اية اشاعة بأنه يأوى اعداءنا فيه ، ولأحرقن هذا الساحر العجوز حتى لا تجـد الغربان من بقاياه شيئا تنبش فيه ، وانى لأحسب ان لديه ذهبـــا وثروة من كل نوع ، وهناك يقيم الشيطان ! فاذا كان عنده ذهب .. وسنمر بعد قليل بالصلبان . وتلك هى المقبرة ! وفيها يرقد اجداده الأشرار وقد تعفنت جثثهم وقد علمت بأنهم جميعا كانوا مستعدين ان يبيعوا انفسهم للشيطان بالمال . اجل كانوا مستعدين أن يبيعـوا أرواحهم واجسادهم الفانية وكل ما يملكون ، ولو كان لديه ذهب حقا، فما من داع يدعو الى الانتظار ، فليست كل حرب تأتى بالغنائم ! » .

« أعلم ما اتدبر ، وان قلبى ليحدثنى بأنك لن تخرج من لقـائه بخير ، أنك تلهث وقد غلبت على محياك القسوة البالغة ، وتقطب حاجباك من شدة الغضب فوق عينيك .. » .

فقال دانيلو غاضبا : « اعقلى لسانك يا امراة فلئن قدر لرجل أن يعاملك لأنقلب هو نفسه امراة ، يا غلام ، على بنار اشعل بها غليونى !»، وعندئذ التفت الى غلام من الغلامين الذين كانا يجدفان ، ودق الغلام غليونه ينفض بعض الرماد الحامى ، وبدا يحشو به غليون سيده ، ومضى دانيلو قائلا : « اتريد امراتى ان تخيفنى بذكر الساحر ! وى ! ان القوزاقى لا يخاف الشيطان ، ولا القس البولندى ! ، وماذا يكون من امرنا لو انصتنا الى السيدات يا ولدى ؟ ان خير الزوجات فى نظرنا الغليون والسيف الماضى ! » .

واخذت كاترينا الى الصمت ، وراحت تنظر الى النهر الهاجع ، وهب النسيم فاثار الماء ، وتألق الدنيبر بلون الفضة كجلد ذئب يلوح للعين بليل .

وانعطف القارب واحتضن الضفة المشجرة ، وتبدت للأنظار مقبرة، انقلبت صلبانها راسا على عقب ، وتجمعت فى لمة واحدة ، ولم ينبت بين القبور زهر ولا عشب ، وانما كان يؤنس القمر وحشتها من علياء سمائه .

وقال دانيلو وهو يلتفت الى المجدافين : « اتسمعان الصيحات ايها الغلامان ؟ ان شخصا يستنجدنا ! » .

وصاح الغلامان فى صوت واحد وهما يشيران الى المقبرة : « أجل نسمعها ، ويظهر انها تنبعث من تلك الضفة » .

ولكن الهدوء عاد فشمل المكان ، والتف القارب مسايرا ثنية الضفة البارزة ثم القى المجدفان مجدافيهما فجأة وراحا يحملقان امامهما دون أن يبديا حراكا وفعل دانيلو مثل ما فعلا ، وسرت رعدة من الفزع فى أوصال القوزاقى .

وتهاوى صليب على قبر من القبور ، وبرزت من الأرض جثة ذابلة استرسلت لحيتها حتى بلغت وسطها ، واستطالت اظافرها فزادت فى الطول عن الأصابع نفسها ، ورفعت الجثة يديها عاليا فى بطء ، وكان وجهها كله متقلصا شائها ، ينم بجلاء عما تعانيه من عذاب فظيع ، ثم اخذت تئن فى صوت مخيف وحشي : «انى اختنق ! انى اختنق!»، حتى لقد بدا هذا الصوت يحز فى القلب حز السكين ، ثم غابت فى باطن الأرض فجأة ، وتهاوى صليب آخر ثم برزت من الأرض جثة ثانية اطول قامة واكثر بشاعة ، يغطى جسمها الشعر وتسترسل لحيتها حتى تبلغ ركبتيها ، وتمتد اظافرها حتى تزيد على اظافر الجثة الأولى ، ثم صاحت فى صوت أشد هولا ورعبا : « انى أختنق » ، ولم تلبث ان غابت فى جوف الارض ، وتهاوى صليب ثالث وبرزت جثة اخرى ، بدت للأنظار كالهيكل العظمى تنشق عنه الأرض ، وكانت لحيتها تبلغ عقبيها ، واظافرها تنغرس فى الأرض ، ورفعت الجثة يديها الى السماء فى حركة مفزعة كأنما تهم بأن تمسك القمر ، وأطلقت صرخة خيل الى الأسماع ان أحدا ينشر عظامها الصفر نشرا .

KMH

وصاح الطفل النـــائم على حجر كاترينا واستيقظ من نومه ، وصاحت السيدة أيضا ، وترك المجدفان قبعتيهما تسقطان فى النهر ، ولم ينج سيدهما من رعدة سرت فى جسمه .

وانطوت صفحة هذا كله كأن لم يكن ، على أن المجدفين لم يعودا الى مجدافيهما الا بعد وقت طويل ، ونظر بورولباش فى قلق الى زوجته الشابة ، وقد تملكها الرعب وراحت تهز الطفل الذى لم يكف عن الصياح بين ذراعيها ، وضمها دانيلو الى صدره وطبع قبلة على جبينها . .

وقال وهو يشير الى ما حوله : « لا تراعى يا كاترينا ! انظرى ، فما من شىء هناك ، وكل ما فى الأمر ان الساحر يريد أن يلقى الرعب فى قلوب الناس حتى لا يجرؤ احد على اقتحام وكره الدنس ، ولكنه لن يخيف بهذا أحدا الا النساء ! فخلى عنك وأعطينى ولدى ! » .

وما ان فرغ دانيلو من قوله هذا حتى رفع ولده وقبله : « ايه يا ايفان أظنك لا تخاف السحرة ، اليس كذلك ؟ اجبنى وقل كلا يا ابت ، فانى قوزاقى ، حسبك ! وكف عن البكاء ، فسرعان ما نبلغ دارنا ، فتطعمك امك الثريد ، وتضعك فى مهدك ثم تغنى لك :

هوه هوه ياصغيرى .
هوه هوه نم يا حبيبى .
العب والعب حتى تغدو رجلا .
يفخر بك القوزاق .
وتثير الارتباك فى صفوف الأعداء .

« اعيرنى اذنك يا كاترينا ، فانى اظن ان اباك لن يعيش معنا فى سلام ، فقد كان حين اقبل علينا حزينا كاسف البال كأنمـــا يتملكه الغضب ، ترى ، ما الذى حمله على المجىء اذا كان لا يروق له ؟ ثم انه لم يشأ ان يشرب نخب حرية القوزاق ، ولم يلاعب الطفل قط ، لقد كنت خليقا بأن أثق به من كل قلبى ، ولكننى عجزت عن ذلك ، فقد احتبست الكلمات فى حلقى ، لا ، لا ! ليس لأبيك قلب القوزاقى ! ان القلوب القوزاقية اذا تلاقت قفزت من الصدور أو كادت ليرحب كل منها بالآخر ، أى غلامى العزيزين ، أو قد اقتربنا من الشاطىء ؟ لأهبن لـكما قبعتين جديدتين ، واحـــدة لك أنت ياستيتسكو مصنوعة من المخمل والذهب ، انتزعتهـــا من تترى هى

وراسه ، وآل الى كل ما كان يتزين به اللهم الا روحه ، فقد تركتها تذهب فى ... مرحى لقد بلغنا البر ! وها نحن أولاء قد وصلنا الى دارنا يا ايفان ، ولكنك لا تكف عن البكاء ! خذيه يا كاترينا » .

ونزلوا جميعا من القارب ، وبدا للأنظار سقف مغطى بالقصب من وراء التل ، وكان هذاهو بيت دانيلو وبيت أجداده ، وقام من ورائه تل آخر ثم السهل المنبسط ، وما كنت لتجد هناك قوزاقيا واحدا وان سرت مرتحلا مائة ميل .

- ٣ -

كان بيت دانيلو بين تلين فى واد ضيق ينحدر حتى يبلغ نهر الدنيبر ، وكان هذا البيت قليل الارتفاع مثل الأكواخ القوزاقية المتواضعة ، ليس فيه الا غرفة واحدة ، ولكنه كان يسعه ويسع زوجته وخادمتهما العجوز واثنى عشر غلاما من الغلمان المختارين وكانت تلتف بالجدران من عل رفوف من خشب السنديان ، تكدست فوقها الطاسات وأوانى الطهى ، ومن بينها كؤوس فضية وأقداح شراب رصعت بالذهب ، وهدايا أو غنائم من غنائم الحرب ، وعلقت تحت الرفوف سيوف وبنادق و « قربينات » ورماح نفيسة ، أخذت طوعا أو كرها من التتر والترك والبولنديين ، وحملت كثيرا من آثار الحرب ، وكان دانيلو ينظر الى هذه النفائس ، فيرى فيها شواهد تذكره بالمواقع التى خاض غمارها . وامتدت أسفل الجدران اريكتان من السنديان صقلهما المسحج صقلا ، وقام المهد بجوارهما أمام أريكة الموقد ، وقد علق بحبال تتدلى من حلقة ثبتت فى السقف ، ودق اديم الغرفة دقا جيدا وغطى بطبقة من الطين .

وكان دانيلو وزوجته ينامان على الأريكتين والخادم العجوز على اريكة الموقد ، ويلعب الطفل وتهدهده أمه حتى ينام فى مهده ، ويرقد الاثنا عشر غلاما فى صف واحد على الأرض ، على أن أى قوزاقى لا يرضى بالأرض المنبسطة بديلا ، فهو ينام عليها فى الهواء الطلق ، ولا يحتاج الى فراش من الريش أو وسادة ، بل يكوم شيئا من القش الندى تحت راسه ويتمدد على العشب كما يحلو له ، وان صدره

لينشرح اذ يستيقظ فى بهيم الليل ويتأمل السماء العـــالية المرصعة بالنجوم وتأخذه من برد الليل رعدة تنعش عظامه القوزاقية ، ثم يشعل غليونه ، وهو يتمطى ويدمدم فى نعاسه ، ويحكم حوله غطاءه المصنوع من جلد المـاعز .

ولم يستيقظ بورولباش مبكرا بعد ما اصاب من مرح فى امسه ، فلما استيقظ جلس فى ركن من الأريكة ، واخذ يشحذ سيفا تركيا جديدا ، كان قد قايض به لتوه ، وشرعت كاترينا تعمـــل فى تطريز منشفة من الحرير بخيوط من ذهب .

وهبط عليها ابو كاترينا فجاة ، غاضبا مقطب الجبين ، وقد وضع بين اسنانه غليـونا اجنبيا ويمم شطر ابنته ، واخذ يسالها فى صرامة عن السبب فى عودتهما متاخرة كل التاخر فى الليلة الماضية .

وقال دانيلو وهو ماض فى عمله :

« اى حماى ، ان الذى يسال فى ذلك هو انا لا هى ! اجل ، ان الزوج هو المسئول لا الزوجة ، واسمح لى ان اقول : ان هذه هى السنة التى جرينا عليها هنا ، ولست ادرى ، لعل السنة فى بلاد الكفار تجرى على غير هذا ! » .

وتورد وجه حميه وتالقت عيناه ببريق وحشى .

وغمغم مخاطبا نفسه : « من اولى بالسهر على البنت من ابيها ؟ وليكن ما تريد ، ولأوجهن السؤال اليك : اين كنت تهيم حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل ؟ » .

« آه ، هكذا يكون الخطاب يا حماى العزيز ! وهانذا اجيبك بأننى شببت عن الطوق منـــــذ وقت طويل ! وانى لقادر على أن اسوس الجواد ، كما احسن استعمال السيف المرهف ، فضلا عن امور اخرى استطيعها ، وانى لقادر على ان ارفض تقديم حساب لاحد عما افعل » .

« انى لأعلم انك تلتمس العراك يا دانيلو ! فان الرجل اذا ابى أن يفصح كان صدره منطويا على الشر » .

فقال دانيلو : « فلنفكر كما تشاء ولأفكر انا كما اشاء ، وانى لأحمد الله على اننى لم اشترك بعد فى اى عمل مشين . لقد وقفت دائما انافح عن مذهبى الارثوذكسى وبلادى ، ولم انهج نهج بعض المشردين الذين يضربون فى الأرض ، فلا يعلم مستقرهم الا الله ، ويتركون المسيحيين

الصالحين يهلكون حتى الموت ، ثم يعودون ليجنوا ثمرة ما لم يزرعوه ، انهم لاسوا من الاونيات ، فهم لا يأتمون أبدا بكنيسة الله ، واولئك هم الذين يجب أن يحاسبوا الحساب العسير على ضلالهم وما كانوا فيه يهيمون » .

« ايه أيها القوزاقى ! هل علمت اننى لا أجيد الرماية ، وانمـــا تخترق رصاصتى القلب على مسيرة سبعمائة قدم ! وليس لى ان افخر ببراعتى فى السيف ، فانى لاترك غريمى قطعا ادق من الحب الذى يصنع منه الثريد » .

فقال دانيلو : « مرحبا بك » ، وراح فى خفة يرسم بالسيف اشارة الصليب فى الهواء كأنما كان يعلم السبب الذى حمله على شحذه .

وصاحت كاترينا صيحة عالية ، وقد أمسكت بذراعه وتعلقت به : « دانيلو ! تدبر ما انت فاعل أيها المجنون ، وانظر فى وجه من ترفع يدك ! أبتاه ، لقد ابيض شعرك ، ففـــدا ناصعا كالثلج ، ولـــكنك أستسلمت للغضب كالفتى الطائش ! » .

فقال دانيلو مهددا زوجته : « أيتها الزوجة ! انك لتعلمين أننى لا ارضى عما تفعلين ، فانصرفى الى ما تنصرف اليه النساء ! » .

وصلصل السيفان صلصلة مخيفة ، وتقارعت النصـــــال وأثار القوزاقيان الشرر كأنه الغبار ، وانطلقت كاترينا الى غرفة مستقلة تبكى ، والقت بنفسها على الفراش ، وسدت اذنيها كى لا تسمع صليل السيفين . على ان القوزاقيين لم يكونا يتقاتلان قتال الجبناء الرعاديد حتى تستطيع أن تخمد صوت ضرباتهما ، واوشك قلبها أن ينفطر ، وخيل اليها أن صوت قعقعة السيفين ينساب فى جسمها كله : « كلا ، كلا ، ان هذا فوق ما احتمل ، أجل فوق ما أحتمل ، ومن يدرى ؟ لعل الدم القانى يسيل الآن من الجسد الأبيض ، ولعل زوجى العزيز الآن عاجزا لا حول له ولا قوة ، وانا ارقد هنا ! » ، وعادت أدراجها ممتقعة الوجه لا تكاد تقوى على التنفس .

وكان القتل بين الرجل رهيبا تعادلت فيه الكفتان،ولم يتحققلأحدمن القوزاقيين الغلبة على الآخر ، فقد كان أبو كاترينا يهاجم حينا ، فيبدو ان دانيلو على وشك الاستسلام ، ويهاجم دانيلو حينا آخر ، فيلوح على الوجه الغضوب انه قد أشرف على الاذعان ، ثم يعود القتال بينهما

فيدور سجالا . وكان الرجلان يتميزان غيظا ، ويلوحان بسيفهما ، ويصلصل السيفان ، ويتطاير النصلان مقعقعين من مقبضيهما .

وهتفت كاترينا : « حمدا لله ! » ، ولكنها عادت فصرحت عندما ابصرت القوزاقيين ، وقد تناولا بندقيتهما ، ووضعا فيهما حجر الصوان ، ثم رفعا الزناد .

واطلق دانيلو النار فأخطأ ، وصوب ابوها بندقيته ، وكان رجلا عالى السن لا يبلغ فى حدة بصره مبلغ غريمه الفتى ، الا أن يده لم ترتجف ، ودوت طلقة فترنح دانيلو وخضب الدم القانى الردن الأيسر من سترته القوزاقية .

وصاح دانيلو : « كلا ! لن استسلم بهذه السهولة ، فان اليد اليمنى هى التى تتخضب بالدم ، ولدى غدارة تركية معلقة على الجدار لم تخنى قط ، فاهبطى الى ايتها الزميلة القديمة ! وقدمى يدا لصديقك ، ومد دانيلو يده .

فصاحت كاترينا فى يأس وهى تمسك بيده ، وتجثو عند قدميه : « دانيلو ! اتوسل اليك لا رحمة بى ، فانى لا اعرف لى الا نهاية واحدة، ولبسئت الزوجة تبقى بعد أن يقضى زوجها ، وليكونن نهر الدنيبر قبرى ، وفى مياهه الباردة مثواى ولكن انظر الى ابنك يا دانيلو ، انظر اليه ! من ذا الذى يدلل هذا الطفل المسكين ؟ ومن الذى يشمله برحمته ؟ ومن يعلمه الركض على صهوة الجواد الأسود الأصيل ، والقتال فى سبيل الدين والحرية ، والشرب والمرح كما يفعل القوزاق اجمعون ؟ لتهلكن يا بنى ، لتهلكن ! فان اباك لا يريد ان يفكر فيك ! انظر كيف يدير راسه ، آه ، لقد عرفتك الآن ! انك لوحش ضار ولست انسانا ! ان قلبك قلب ذئب وعقلك عقل ثعبان داهية لقد كنت احسب ان قلبك فيه ذرة من رحمة وان صدرك الحجرى ينطوى على شىء من المشاعر الانسانية ، ولكن واخيبة املى فيك ! تالله لينشرحن صدرك وترقص عظامك فى القبر فرحا حين تسمع الوحوش البولنديين الانجاس يلقون بابنك فى اللهب ، وحين تسمع صرخات ولدك تعلوه السكين او يغمره الماء الحار ! آه ، انى اعرفك ! واعرف انك تسر اذ تقوم من قبرك وتزكى النار من تحته بقبعتك ! » .

« كفى يا كاترينا ! تعال يا حبة قلبى ايفان ، ودعنى اقبلك . كلا

يا بنى ، لن يلمس أحد شعرة من رأسك ، ولسوف تنمو ويشتد عودك وتكون فخرا لبلادك ، ولسوف تطير كالعاصفة ومن ورائك القوزاق وعلى رأسك قبعة من المخمل وفى يدك سيف مرهف » ، ثم مضى دانيلو يقول لأبى كاترينا الذى كان يقف بلا حراك ولا تظهر على وجهه سيماء الغضب أو امارات المسالمة : « اعطنى يدك يا أبت ! ولننس ما دار بيننا ! واسمح لى ان اسألك الصفح عما بدر منى فى حقك . ما بالك لا تمد لى يدك ؟ » .

وصاحت كاترينا ، وهى تطوق اباها بذراعيها وتقبله : « ابتـاه ! لا تكن غليظ القلب ، واصفح عن دانيلو ، ولن يعود ابدا الى الاساءة اليك ! » .

فأجاب أبوها وهو يقبلها وفى عينيه بريق غريب : « انما اصفح عنه اكراما لك وحدك يا ابنتى ! » .

وسرت رعدة خفيفة فى جسم كاترينا،فقد بدا لها فى قبلته وما شاب عينيه من بريق نذير خطير ، واستندت بمرفقيها على المنضدة التى كان دانيلو يضمد فوقها ذراعه الجريح ، وراح زوجها يتمتم بأنه أساء التصرف ، ولم يفعل ما يفعله القوزاقى الحر ، اذ طلب الصفح ولما يقترف ذنبا أو يأت نكرا .

— ٤ —

وطلع الصبح ، ولكن الشمس لم تشرق ، وتلبدت السماء بالغيوم، واخذ الرذاذ يتساقط على السهول والغابة ونهر الدنيبر الفسيح ، واستيقظت كاترينا وقلبها مثقل بالهموم وقد خضبت الدموع عينيها، وتملكها القلق والضجر .

« أى زوجى العزيز ، يا زوجى الغالى ! لقد رأيت رؤيا غريبة ! » .

« اى رؤيا ، يا حبيبتى كاترينا ؟ . »

« رأيت رؤيا غريبة ، تجلت لى كأنها الحقيقة الواقعة ، فقد تمثل لى أن أبى هو ذلك الوحش الذى شاهدناه نفسه فى منزل الصاغ ، ولكنى أتوسل اليك الا تؤمن بهذا الحلم ، فان الانسان يرى فى أحلامه أوهاما وحمـــاقات على اختلاف الألوان والأشكال ، أجل ، رأيت فى

المنام اننى اقف أمامه مرتجفة الاوصال مأخوذة اللب ، تئن عروقى لكل كلمة تخرج من فيه ، آه لو سمعت ما قال ! » .

« وماذا قال يا حبة قلبى كاترينا ؟ » .

قال : « انظرى الي يا كاترينا ، وتأملى مقدار حسنى ووسامتى ! ان الناس ليخطئون بقولهم اننى دميم ، ولشد ما أصلح زوجا لك ! الا ترين ما تجود بهعيناى من نظرات ، ثم صوب الى عينين تتقدان نارا ، فصرخت واستيقظت » .

« اجل ، فما أكثر ماتصدق الاحلام ، ولكن اتعلمين ان الهدوء ليس مستتبا فيما وراء التلال ؟ واني لأحسب ان البولنديين بدءوا يظهرون مرة اخرى ، وقد بعث الى جوروبيتس برسالة يوصينى فيها بالتزام اليقظة والحذر ، ولا عليه فانى لست نائما ، وقد اقام رجالى اثنى عشر متراسا من الشجر الذى اجتثوه بليل ، ولنتحفن الجنود من العامة ببرقوق من الرصاص ، أما الخاصة فسوف نحملهم على الرقص بالسياط » .

« أو يعلم ابى بهذا ؟ » .

« ان اباك ليثقل على ، وانا لا استطيع ان اخرجه من صمته ولابد انه اقترف آثاما كثيرة فى البـلاد الأجنبية ، ترى ، أثمة سبب آخر يدعوه الى هذا الموقف ؟ لقد أقام بيننا هنا اكثر من شهر لا يمرح قط كما يمرح القوزاقى الحق ، ويأبى أن يحتسى شراب العسل الأسود ، الذى انتزعته من اليهود فى بريست » ، ثم صاح دانيلو : « ايه يا غلام ، اذهب الى الكيلار يا غلام وعجل ، وائتنى بشراب اليهود ! أنه يأبى ان يشرب حتى الفودكا ! فما قولك فى هذا ؟ انى لأعتقد اعتقادا جازما يا سيدتى كاترينا انه لا يؤمن بالمسيح ، فما رأيك أنت ؟ » .

« لا يعلم الا الله حقيقة ما تزعم اى زوجى دانيلو ! » .

ومضى دانيلو يقـول وهو يتناول الـكوز الفخار من القوزاقى : « ما اعجب الأمر يازوجتى ، فان الكاثوليك الأقذار انفسهم يضعفون امام الفودكا ، ولا يمتنع عن الشراب الا الترك دون سواهم . ايه يا ستيتسكو ، او اصبت جرعة طيبة من شراب العسل فى الكيلار؟ » .

« انما ذقته يا سيدى » .

« انك تكذب يابن الكلب ! انظر كيف حط الذباب على شاربك !

وانى لأرى فى عينيك انك اتيت على نصف سطل منه ، ايه يا لكم من فتية أيها القوزاق ! وما أعظم تهوركم ! يجود الواحد منكم لصاحبه بكل ما يملك الا الخمر يحتفظ بها لنفسه . لقد انقضى على آخر سكرة لى وقت طويل ،أى زوجتى كاترينا ، اليس كذلك ؟ » .

« وقت طويل حقا ! وى ، لقد .... » .

« لا داعى ، لا تراعى ، فلن اشرب الا كوزا واحدا » ، ثم غمغم وقد ابصر حماه ينحنى ليدخل الغرفة : « ها هو ذا شيخ الدراويش التركى قد ألم بالباب ! » .

وقال الأب وهو يخلع قبعته ويسوى حزامه الذى كان يتدلى منه سيف مرصع بالأحجار الكريمة : « ما هـذا يا ابنتى ؟ لقد اعتلت الشمس كبد السماء ولم يعد الغذاء بعد ! » .

« ان الغذاء جاهز يا سيدى وسنقدمه فى الحـال » ، ثم مضت ربة البيت الشابة تقول للخـادم العجوز التى كانت تمسح الطاسات الخشبية : « الى بقدر من لقيمات القاضى ! صبرا ، ولآتين بها بنفسى ، واذهبى أنت لتنادى الغلمان » .

واستووا جميعا على الأرض فى حلقة ، فجلس الأب تجاه الأيقونات وعن يساره دانيلو وعن يمينه كاترينا وعشرة من الفتيان الاخيـار يرتدون سترات زرقا وصفرا .

وقال الأب ملقيا ملعقته بعد أن اصاب من الطعام قليلا : « لا أحب لقيمات القاضى ، فليس فيها نكهة ولا طعم » .

وقال دانيلو بينه وبين نفسه : « انى لأعلم انك تؤثر عليها حساء اليهود » ، ثم مضى يقول فى صوت مرتفع : « ما لك تقول : ان لقيمات القاضى قد خلت من الطعم يا حماى ؟ أتراها سيئة الصنع ام ماذا ؟ ان زوجتى كاترينا تصنع من لقيمات القاضى ما لم يذق مثله شيخ القرية نفسه الا قليلا ، وما من داع يقتضيك الزراية بهـذه اللقيمات ، فانها طعـام مسيحى ، يصيب منه القوم الصـالحون والقديسون الأبرار جميعا » .

ولم ينبس الأب ببنت شفة ، وامسك دانيلو فلم يزد حرفا .

وقدم لحم الخنزير المشوى بالكرنب والبرقوق .

وقال ابو كاترينا وهو يتناول ملء ملعقة من الكرنب : « لا احب لحم الخنزير ! » .

فقال دانيلو : « لم لا تحب الخنزير ، انما الترك واليهود هم الذين لا يأكلون لحم الخنزير » .

وقطب الأب حاجبيه وزاد غضبا على غضب .

ولم يصب من الطعام الا قليلا من ثريد الحنطة السوداء الممزوج بالنبن ، واستعاض عن الفودكا بسائل أسود فى زجاجة اخرجها من صدره .

ونام دانيلو بعد الغذاء نوما عميقا ولم يستيقظ الا قرب المساء ، وجلس يكتب الى معسكر القوزاق ، واستوت زوجته الشابة على اريكة الموقد تهز المهد بقدمها . اجل جلس دانيلو فى مكانه وعينه اليسرى على ما يكتب ، وعينه اليمنى تطل من النافذة ، وقد ابصر من خلال النافذة على مسافة بعيدة ، التلال المتلألاة ونهر الدنيبر ، تمتد خلفه الغابة الزرقاء الداكنة . وكانت السماء فى تلك الليلة الصافية الأديم تتالق فوقه ، ولكن دانيلو لم يكن يحدق النظر فى السماء البعيدة او فى الغابة الزرقاء ، بل كان يرقب لسان الأرض الذى يقوم عليه الحصن القديم ، فخيل اليه ان ضوءا يتلألأ فى نافذة صغيرة ضيقة من نوافذ الحصن ، على أن السكون كان شاملا فلا جرم اذن أن يكون ما تراءى له وهما من الأوهام ، ذلك انه لم يسمع الا همهمة نهر الدنيبر العميقة تنساب مياهه من تحته وصوت تكسر الامواج يتجاوب فى الفضاء وبعضها يلاحق بعضا ، ولم يكن النهر يفعل ذلك عن اضطراب ، بل يغمغم ويدمدم كالرجل العجوز ، لا يجد شيئا يروق له ، فقد تغير كل شىء من حوله ، واشتبك فى عراك دائم والتلال والغابات والمروج التى تحف بضفتيه ، وحمل شكاته منها الى البحر الأسود .

ورأى دانيلو على صفحة الدنيبر العريضة قاربا بدا كالنقطة السوداء ، ثم عاد الضوء يتلألأ فى الحصن ، واطلق دانيلو صفيرا خافتا فهرع اليه الخادم المخلص .

« أسرع باستيتسكو وائت بسيف مرهف وبندقية واتبعنى ! » .

وسألته كاترينا : « أو عزمت على الخروج ؟ » .

« أجل يا زوجتى ، فان الواجب يقتضينى ان ألقى نظرة على كل ناحية واستوثق من ان كل شيء يسير على ما يرام » .

« ولكننى اخشى البقاء هنا وحدى ، وقد اثقل النوم جفنى وماذا يكون من امرى اذا رأيت الرؤيا نفسها مرة اخرى ؟ ثم اننى لا أومن أبدا بأنها رؤيا ، فقد بدت لى حقيقة واقعة » .

« لتبقين معك المراة العجوز ، وهناك ينام القوزاقى فى الغرفة الخارجية وفى الفناء » .

« لقد استغرقت المراة العجـوز فى النوم فعلا ، وانا لا اثق فى القوزاق لأمر ما ، أفلا تستمع لى يا زوجى دانيلو ، وتغلق باب الغرفة من دونى وتأخذ المفتاح معك فلا يستبد بى الخوف وتدع القوزاق يرقدون امام الباب ؟ » .

وقال دانيلو وهو ينفض التراب عن بندقيته ويحشوها بالبارود : « ليكن ماتشائين ! » .

وكان ستيتسكو الامين قد وقف مجهزا بكل ما يتزود به الرجل القوزاقى من عتاد ، ووضع دانيلو قبعتـــــه المصنوعة من فراء استراخان على راسه ، واوصد النافذة، ثم اغلق الباب بالمزلاج واقفله، ومضى فى رفق يلتمس طريقه بين اتباعه القوزاق المستغرقين فى النوم ، واجتاز الفناء ميمما شطر التلال .

وكانت السماء قد صفا اديمها أو كاد . وهب من نهر الدنيبر نسيم عليل ، وخيم السكون فلاتسمع نأمة ولا صوتا الا نواح نورس يتردد فى الفضاء البعيد ، ثم انبعث فى الجو فجـــأة حفيف خافت ، فاختبأ بورولباش وخادمه الأمين وراء الحسك الذى كان يخفى متراسا من الأشجار المجتثة ، ذلك أن شخصا كان يهبط سفح التل مرتديا سترة حمراء وقد حمل غدارتين وتدلى على جانبه سيف .

وقال دانيلو وقد شخص ببصره فيه من خلف الشجيرات : « انه حماى ! ترى اين يذهب هذه الساعة وماذا يدبر ؟ ايه يا ستيتسكو ، لا تدعه يغيب عن بصرك ، وانظر اى طريق يسلك » .

وهبط الرجل ذو السترة الحمراء ضفة النهر ، ثم انعطف متجها الى لسان الأرض .

فقال دانيلو : « آه ، اذن فهـذا هو مقصده ! وى ياستيتسكو ! لقد مضى الى وكر الساحر ! » .

« تالله انه لا يقصد سواه يا مولاى دانيلو ! والا رأيناه على الجانب الآخر ، ولكنه اختفى قرب القصر » .

« لنبرزن من مخبئنا ونقتف أثره ، فان وراء الأكمة ما وراءها ، وى يا كاتربنا ، الم أقل لك : ان أباك رجل شرير لا يسلك فى شىء مسلك المسيحى الصالح ؟ » .

ومرق دانيلو وخادمه الأمين مجتازين لسان الأرض ، وسرعان ما غابا عن الأنظار فى طوايا الغابة الـــكثيفة التى تكتنف الحصن . وتألق ضوء فى النافذة العليا ، ووقف القـوزاقيان تحتها يلتمسان سبيلا الى تسلقها ، ذلك انهما لم يريا بوابة او بابا ، وما من ريب فى انه كان فى الفناء باب ، ولكنهما حارا كيف يتسلقان السور اليه ؟ لقد كان يبلغ آذانهما على البعد صليل السلاسل وتفزز الكلاب .

وقال دانيلو وقد راى شجرة سنديان كبيرة تقوم تجاه النافذة : « ما بالى اضيع الوقت ؟ ابق هنا يا غلام ! لأتسلقن شجرة السنديان ، حتى استطيع أن ارى مباشرة ما بداخل الغرفة » .

وخلع حزامه ووضع سيفه على الأرض حتى لا يصلصل ، ثم أمسك بالغصون ورفع نفسه ، وكان الضوء لا يزال يتألق ثم استوى على غصن قريب من النافذة ، وامسك بالشجرة ، ونظر فى الغرفة ، فوجد فيها ضوءا وان خلت من الشموع وكان على الجدران رموز خفية وأسلحة معلقة ، ولكنها كانت جميعا عجيبة تخالف ما يحمله الترك أو اهـل القريم أو البولنديون أو المسيحيون أو السويدون النبلاء . وكانت الخفافيش تمرق تحت السقف روحة وجيئة ، فتنعكس ظلالها على الأرض والأبواب والجدران مقبلة مدبرة كلمح البصر ، ثم انفتح الباب فى سكون ، ودخل رجل يرتدى سترة حمراء ، ويمم شـطر المائدة مباشرة ، وكانت مغطاة بمفرش ابيض : « انه هو ! انه حماى ! » ، وانزلق هابطا قليلا ، وازداد بالشجرة التصاقا .

ولكن حماه لم يكن لديه متسع من الوقت ليرى : هل كان أحد يختلس النظر اليه من خلال النافذة ؟ فقد اقبل على الغرفة مكتئبا كاسف البال ، ونزع المفرش عن المائدة ، فامتلأت الغرفة فى الحال

بضوء أزرق شفاف ، ولكن امواج الضوء الذهبى الشاحب التى غمرت الغرفة كانت تطغى ، ثم تنحسر كمياه البحـــر الأزرق ، فلا تمتزج به ، بل تتخلله سابحة فى خطوط كالعروق تجرى فى صميم المرمر ، ثم وضع الرجل قدرا على المائدة ، وراح يلقى ببعض الاعشاب فيها .

وانعم دانيلو النظر ، فوجده قد نضا عنه السترة الحمراء ، وارتدى سروالا فضفاضا كالذى يرتديه الترك ، وحمل غدارتين ، ووضع على راسه قبعة غريبة طرزت جميعا بحروف لا هى بالروسية ولا بالبولندية ، وتطلع دانيلو الى وجهه ، فوجده قد بدا يتغير ، واستطال انفه وتدلى على شفتيه ، ولم يلبث فمه ان بلغ اذنيه ، وبرزت سن ملتوية من بين شفتيه ، وتمثل امامه الساحر الذى ظهر فى حفلة زفاف ابن الصاغ ، وراح بورولباش يحدث نفسه قائلا : « لقد صدقت رؤياك يا كاترينا ! » .

وشرع الســـاحر يدور حـــول المائدة ، وأخـــذت الرموز التى على الجدران تمضى فى التغير ، وازدادت سرعة الخفافيش فى مروقها محلقة هابطة ورائحة غادية ، وبدا الضوء الأزرق يخفت ثم يخفت حتى بدا للأنظار انه قد تلاشى أو كاد ، ثم انبعث فى الغرفة ضوء وردى جميل ، وتراءى للعين ان هذا الضوء العجيب راح يغمر كل ركن من اركان الغرفة فى صوت يتجاوب رنينه خافتا رفيقا . ثم غاب الضوء ، وساد الغرفة ظـــلام دامس ، وخيم السكون الا من همهمة كصوت الريح تنطلق فى هداة الليل مرفرفة فوق صفحة الماء الساجى ، فتميل شجرة الصفصاف الفضى حتى تدفع به الى أحضان الماء . وخيل الى دانيلو ان القمر يتألق فى الغرفة والنجوم تسبح خلالها ، وتطوف بها لمحات خفية من زرقة السماء الداكنة ، بل هو قد أحس بلفحة من برد الليل تهب عليه منها ، ومر بخياله طائف جعله يشد شـــاربه ليستوثق من انه ليس فى منام ، فقد تراءى له ان السماء التى كان يراها من خلال النافذة وقد ولت وحل محلها بيته هو ، وقد تدلت على جدرانه سيوفه التترية والتركية ، والتفت بالجدران رفوف جوت قدور الطهى وأوانيه ، وعلا المائدة خبز وملح ، وتدلى المهد من السقف ، ولكن وجوها مخيفة كانت تطل بدلا من الأيقونات ، ورقد على أريكة الموقد ثم هبط ضباب كثيف فحجب هذا كله ، وعاد الظلام فاسدل

ستاره ، وانبعث الضوء الوردى فى صوت عجيب فغمر الغرفة من جديد ، ثم تجلى الساحر مرة اخرى ، ووقف بلا حراك مرتديا عمامته الغريبة ، وزادت الأصوات ارتفـــاعا وعمقا ، وتألق الضوء الوردى الرقيق وتألق . ورفرف فى وسط الغرفة شىء ابيض كالغمـــامة ، وخيل الى دانيلو ان الغمامة لم تكن غمامة ، وانما هى امراة قد تمثلت للعين هناك ، ولكن مم صنعت ؟ امن الهواء حقا ؟ وما بالها وقفت دون ان تمس الأرض أو تستند على شىء ؟ ولم شفت حتى بدا من خلالها الضوء الوردى والرموز السحرية التى على الجدار ؟ وها هى ذى تحرك الآن راسها الشفاف ، ويتالق فى عينيها الزرقاوين الباهتتين ضوء رقيق ، وقد تجعد شعرها ثم استرسل على كتفيها كانه ضباب رمادى شاحب ، واصطبغت شفتاها بحمرة خفيفة كشقشقة الفجـــر يخايل الأنظار بنوره القرمزى يومض من خلال السماء الصافية بصبح، وكان حاجباها الأسودان لا يظهران الا لماما ، آه ! لقد كانت هى كاترينا! واحس دانيلو باطرافه تتجمد حتى غدت كالحجر ، وحاول أن يتكلم ، ولكن شفتيه تحركتا فى صمت ولم ينطلق منهما اى صوت .

ووقف الساحر ساكنا لا يريم .

ثم القى عليها بالسؤال وقد وقف طيفها امامه يرتعد:«اين كنت؟» .

فانت فى صوت رقيق : « واها لى ! لماذا دعوتنى ؟ لقد كنت فى غاية السعادة ،اجل كنت فى المـــكان الذى ولدت فيه واقمت بين ربوعه خمسة عشر عاما ، آه ، الا ما اطيبه من مكان ! ويا للمرج الأخضر الفياح الذى الفت ان العب فيه ابان طفولتى ! لقد وجدت الأزهار البرية الحبيبة كعهدى بها دائما . ولا تقـل عن كوخنا وحديقتنا ! وآه من الحنان الذى غمرتنى به امى وهى تطوقنى بذراعيها ! ويا للعجب الذى تجلى فى عينيها ! لقد دللتنى وطبعت قبلة على شفتى وعلى وجنتى ، ومشطت شعرى الأشقر بمشط جميل ! » ، ثم حدجت الساحر بعينيها الباهتتين وقالت : « لم ذبحت امى ؟ » .

وهز الساحر اصبعه فى وجهها مهددا ، وقال : « او قد سالتك ان تتحدثى فى هذا الأمر ؟ » ، وارتعدت الروح الجميلة الشفافة : « اين سيدتك الآن ؟ » .

« لقد استسلمت سيدتى كاترينا للنعاس ، فسررت لذلك ووليت

هاربة ، ذلك انني كنت مشوقة منذ سنوات طويلة الى رؤية امي ، وقد عدت فتاة في الخامسة عشرة من عمري ، وهانذي أحس بأنني اصبحت في خفة العصفور ، لم أرسلت في طلبي ؟ » .

وقال الساحر في صوت رقيق هامس يصعب على الاذن أن تتبين كلماته : « أتذكرين كل ما قلته لك بالأمس ؟ » .

« اذكره ! اذكره ! ولكنني لا ابخل بشيء في سبيل نسيانه ، مسكينة كاترينا ! انها لا تعلم كثيرا مما تعلمه روحها ؟ » .

وقال دانيلو بينه وبين نفسه : « اذن فهذه روح كاترينا ! » ولكنه لم يأنس في نفسه الجراة على الاتيان بأية حركة .

« تب يا ابت واستغفر ! اليس من المفزع أن يقوم الموتى من قبورهم بعد كل جريمة قتل تقترفها ؟ » .

فقال الساحر مهددا : « لقد عدت الى سيرتك الاولى ! لاسلكن السبيل التي اشاء ، ولأحملنك على فعل ما أريد ، ولسوف تحبني كاترينا ! » .

فتاوهت هاتفة : « تبا لك ! انك لوحش ولست بأبي ، كلا ! لن يكون لك ما تريد ! صحيح أن سحرك الدنس يهب لك من القوة ما تستطيع به أن تستحضر روحها وتعذبها ، ولكن الله وحده هو الذي يستطيع أن يسيرها كما يشاء ، حاشى ! كاترينا لن تتنزل الى اقتراف هذا الاثم ما دمت أحل في جسدها . ابتاه ! لقد دنت ساعة القصاص الرهيب ! وهيهات أن تحملني على خيانة زوجي المخلص المحبوب ، وان كنت شخصا آخر غير أبي . ولو قد عقني زوجي ، وتنكر لعهدي ما خنته ، فان الله لا يحب من يخلف وعده وينكر العهود والمواثيق »، ثم تعلقت عيناها الشاحبتان بالنافذة التي ربض دانيلو من تحتها ، ووقفت ساكنة لا حراك بها .

وصاح الساحر : «فيم تحدقين النظر ؟ ومن ذا الذي ترينه هناك؟»

واضطرب طيف كاترينا ، الا ان دانيلو كان قد هبط الى الأرض ، وانطلق هو وخادمه الأمين ستيتسكو . يشق الطريق الى داره في الوادي ، وغمغم يقول بينه وبين نفسه وقد أحس برعدة تسري في قلبه القوزاقي : « يا للفظاعة ! يا للفظاعة ! » ، واجتاز في عجلة فناء

داره فوجد القوزاق قد استسلموا للنوم فيه كشانهم ، الا واحدا جلس يسهر عليهم وهو يدخن غليونه .

وكانت السماء مرصعة بالنجوم .

— ٥ —

وهتفت كاترينا وراحت تمسح عينيهـــا بردن قميصها المطرز ، وتحدق فى زوجها بنظراتها وهو واقف قبالتها : « لشد ما ابهج قلبى انك ايقظتنى ! الا ما ابشع الحلم الذى رايته ! لقد اوشك ان يزهق منى الأنفاس ! اواه ! لقد ظننت انى احتضر » .

« وكيف كان حلمك ؟ كان هكذا ؟ » ، وراح بورولباش يحـــدث زوجته بكل ما رأى .

وسألته كاترينا فى دهشة : « ايه يا زوجى ، كيف عرفت حلمى ؟ ولكن كلا ، فانى لا اعرف الكثير مما حدثتنى به ، اجل ، لم أر فى حلمى ان ابى قتل امى ، ولم اشهد الموتى فى رؤياى ، كلا يا دانيلو ، انك لم تسرد الحلم على حقيقته ، أواه ! ويا لأبى من رجل مخيف!» .

« ما من عجب انك لم تحلمى بما رايت ، وان ما تعرفينه لا يبلغ عشر معشار ما تعرفه روحك ، أتعرفين ان اباك عدو المسيح ، فقد حدث فى العام الماضى وانا اتأهب للانضمام الى صفوف البولنديين فى الحرب التى شنوها على اهل القريم وكنت آنئذ لا زال حليفا لأولئك القوم الكافرين ــ ان علمت من رئيس رباط الأخوة (وهو يازوجتى رجل تقى ورع) ان عدو المسيح له سلطان على الأرواح ، فهو قـادر على استحضار ارواح الناس جميعا ، ذلك ان الروح تهيم كما تشاء حين يخلد الجسم الى النوم ، وتطوف مع رؤساء الملائكة حول عرش الله ، وقد كرهت وجه أبيك مذ وقع عليه بصرى لأول وهلة ، وما كنت لأتزوجك لو عرفت أن لك أبا على هذه الشاكلة ، فقد كان اولى بى ان اهجرك ، ولا احمل ضميرى وزر الاقتران بربيبة عدو للمسيح » .

فصاحت كاترينا وقد اخفت وجهها بيديها وانفجرت باكية : « اى دانيلو ! ما الذى تأخذه على ؟ او قد خنت عهدك يا زوجى المحبوب ؟ واى ضير ارتكبت حتى أثرت غضبك ؟ الم أصدق فى خدمتك ؟ وهل

كانت تبدر منى كلمة واحدة حين تعود مرحا من سكرة ؟ الم الد لك ابنا مشرق الوجه ضاحك الجبين ؟ » .

« لا تبكى يا كاترينا ، لقد عرفتك الآن ، وما من شيء يحملنى على هجرانك ، وانما الوزر وزر ابيك وحده » .

« لا تقل انه ابى ! فما هو بأبى ! والله على ما اقول شهيد ، انى انكره ! اجل انكر ابى ! فهو عدو للمسيح ، وقد عصى الله ! ولو قد رأيته يهلك أو يغرق ما مددت يـــدا لانقـاذه ، ولئن ألهب عشب سحرى حلقه ما ناولته قطر من ماء ، وليس لى من اب سواك ! » .

- ٦ -

وكان الساحر مقيدا بالسلاسل الحديدية يرقـد فى جب عميق تحت الأرض بدار دانيلو وقد اوصد من دونه باب احكم اغلاقه بثلاثة اقفال ، واخذت النار تشـــتعل فى قصره الجهنمى الذى يعلو نهر الدنيبر ، وراحت امواج النهر تصطخب وتفور حول الجدران متوهجة كالدم القانى ، ولم يكن ما نزل بالساحر من حبس فى هذا الجب القائم تحت الأرض جزاء له على السحر الذى يمارسه أو الاعمال الشريرة التى يقترفها ، فان الله وحده هو مجازيه على هذه الأفعال ، وانما كان السبب فى حبسه هو خيانته للعهد سرا ، ذلك انه كان قد تآمر هو وأعداء روسيا الأرثوذكسية على بيع الشعب الأوكرانى الى الكاثوليك واحراق الكنائس المسيحية . لقد كان الساحر مكتئبا كاسف البال تطوف بذهنه افكار سود كالليل البهيم ، ولم يبق له فى هـذه الدنيا الا يوم واحد ، فقد كان ينتظر مصيره غدا ، ويا له من مصير رهيب أرحم ما فيه أن يلقى به حيا فى مرجل يغلى حتى يموت أو يسلخ عنه جلده الآثم ! لقد كان الساحر مغتما مهموما منكس الراس ، ولعله كان يتوب ويستغفر وقد اصبح على حافة القبر ، ولكن ذنوبه لم تكن بالذنوب التى يغفرها الله . وكانت من فوقه نافذة صغيرة يغشاها شباك من حديد ، وتطلع الساحر من النافذة راسفا فى اغلاله المصلصلة آملا ان تكون ابنته ، تلك الحمامة الوديعة البريئة ، مارة بمحبسه ، فتدركها الرحمة بأبيها ، ولكنه لم يجد احدا . وكان الطريق يمر

تحت النافذة مقفرا لا يجتازه مخلوق ، وانما يجرى من تحته نهر الدنيبر يضطرب غير حافل بأحد ، ويهمهم ويهدر ويبلغ صوت رشاشه الرتيب مسامع السجين كئيبا موحشا .

ثم ظهر شخص يسير فى الطريق ، وكان هذا الشخص رجلا من القوزاق ، وتنهد السجين من أعماق قلبه ، وعاد الطريق فخلا من المارة ، ثم بدا شخص يهبط التل ، ورفرف معطف اخضر بفعل الريح، وتألق على رأس صاحبته غطاء ذهبى ، لقد كانت هى ! واقترب المعطف من النافذة شيئا فشيئا ، وتبين انها أخذت تدنو من السجين الان .

« اى ابنتى كاترينا ! ارثى لحالى وارحمينى ! » .

ولزمت كاترينا الصمت المطبق ، وابت ان تنصت ، ولم تلتفت الى السجين تلقى عليه نظرة ، ثم مرت به واختفت ، وأقفرت فى عينيه الدنيا بأسرها ، واخذ نهر الدنيبر يهدر فى وحشة وكآبة ، ويثقل القلب بحمل من الحزن والأسى ، ولكن ترى هل كان الساحر يعرف شيئا من هذا الحزن ؟ .

كان النهار يلفظ انفاسه الأخيرة والشمس تولى ، ولم تلبث ان اختفت ، وحل المساء ، واصبح الجو رطيبا منعشا ، وانبعث ثور يخور فى مكان ما ، وانطلقت اصوات تسبح من بعيد ، ولا شك انها كانت لقوم يعودون من العمل الى ديارهم وهم يمرحون وتراءى للأنظار قارب يشق عباب نهر الدنيبر ، ولم يفكر احد فى امر ذلك السجين المقيد بالأصفاد ، واخذ هلال فضى يتألق فى السماء ، واقبل انسان من الجهة المقابلة يسير فى الطريق ، ويتعذر على العين ان تستبين شكله فى الظلام ، وكان هذا الانسان هو كاترينا تعود أدراجها .

« اى ابنتى ، هلا تستمعين الى بحق المسيح ! ان صغار الذئاب المتوحشة نفسها لا تمزق امها اربا اربا ، اى ابنتى ! هلا تجودين بنظرة واحدة على ابيك الآثم ! » .

ولكنها لم تحفل به ، ومضت فى طريقها ! .

« اى ابنتى ، انى استحلفك بأمك الشقية ! » .

فتوقفت .

« ادنى منى واستمعى لكلماتى الأخيرة ! » .

« لماذا تناديني يا عدو الله ؟ لا تقل يا ابنتي ! فليس بيننا قرابة ولا نسب ! ماذا تريد مني حتى تستحلفني بأمي الشقية ؟ » .

« كاترينا ، لقد اقتربت نهايتي ، واني لأعلم ان زوجك يريد أن يربطني بذيل فرس بربة ويطلقها تركض في الخلاء ، ومن يدري ؟ لعله يدبر لي مصيرا أشد هولا من هذا المصير ! » .

« ولكن اني هذه الدنيا قصاص يجزيك الجزاء العادل على ما ارتكبت من آثام ؟ الا فلتنتظر ما يحل بك من قصاص ، ولن يطلب احد لك الرحمة » .

« كاترينا ، انا لا اخشى القصـــاص في هذه الدنيا ، وانما الذي اخشاه هو عذاب الآخرة . كاترينا ، انك لطـاهرة نقية ، ولسوف ترفرف روحك حول عرش الله في الفردوس ، واما روح ابيك الشريرة فسوف تحترق في نار لا تنطفىء لها جذوة ولا يخمد لها اوار ، بل تزداد ضراما على ضرام ، فلا تجودها قطرة من ندى ، او تمر بهـــا نسمة من ريح ! » .

فقالت كاترينا مشيحة عنه : « لا حيلة لي في التخفيف من عذابك » .

« كاترينا ! صبرا ، فقد بقيت لي كلمة واحدة ! في وسعك ان تنقذي روحي ، فانك لا تعرفين بعد مبلغ ما تصل اليه رحمـة الله وكرمه ، الم تسمعي قصة بولس الرسول ؟ لشد ما لج هذا الرجل في الاثم ، ولـكنه تاب بعد ذلك واناب ، فدخل في زمرة القديسين الابرار ! » .

فقالت كاترينا : « وماذا استطيع ان افعل لانقذ روحك ؟ وكيف يجوز لي انا المراة الضعيفة ان افكر في هذا ؟ » .

« لو استطعت الخروج من سجني لنبذت كل شيء ، وتبت الى الله ، ولذت بكهف واكتفيت بقميص من الشعر القيه على جسدي ، واقمت الصلاة لا انقطع عنها ليلى ولا نهاري . اجل لو حدث هذا لامسكت عن اكل اللحم بل السـمك ايضا ! وافترشت الغبراء في منامي ، ومضيت اصلي واصلي بلا انقطاع ! ولو اقتضت مشيئة الله الا يغفر برحمته من ذنوبي الا أيسر اليسير لدفنت نفسي في الأرض حتى عنقي ، او حبستها في سجن عليه اسوار من الحجارة ، وامتنعت عن الطعام والشراب حتى القى حتفي ، ووهبت للرهبـان متاعي جميعا

لعلهم يرتلون الصلوات على روحي أربعين يوما وأربعين ليلة » .

وفكرت كاترينا قليلا ثم قالت : « اذا كنت استطيع ان اخرجك من محبسك فكيف استطيع أن افك قيودك ؟ » .

فقال : « اننى لا اخشى الاغلال ، اتقولين : انهم قيدوا يدى وقدمى ؟ كلا ، فقد القيت على عيونهم غشاوة ولم الق لهم بيدى ، وانما مددت لهم خشبتين جافتين » . ثم مضى يقول وهو يسير الى وسط القبو : « هاك ، انظرى ! فما من قيد يغل الآن يدى او قدمى ! وما كنت لأخشى هذه الجدران ايضا فانى أستطيع أن انفذ منها ، ولكن زوجك لا يعرف سر هذه الجدران ، قد بناها ناسك ورع، وما من قوة من قوى الشر بقادرة على تخلص منها سجينا الا اذا توسلت بالمفتاح الذى جرى الناسك على ان يغلق به هو نفسه صومعته ، تلك الصومعة التى سأبنى مثلها سواء بسواء ، انا الآثم الممعن فى الاثم ، حين املك حريتى مرة اخرى » .

فقالت كاترينا وهى تقف ساكنة بالباب : « استمع الى ، فانى مطلقة سراحك ، ولكن ماذا يكون لو خدعتنى ولم تتب وعدت كما كنت ربيبا للشيطان ؟ » .

« حاشى يا كاترينا ، فلم يبق فى اجلى الا القليل ، لقد دنت نهايتى وان لم يقتصوا منى بالقتل ، أتصدقين اننى عولت على ان اسلم القصاص الأبدى نفسى ؟ » .

وصرف المفتاح فى القفل .

وقال الساحر وهو يقبلها : « وداعا ! وليكلأك الله بعنايته ورحمته يا ابنتى ! » .

وقالت كاترينا : « لا تلمسنى ايها الآثم الزنيم ، واذهب وعجل ! » .

وولى الساحر .

وقالت كاترينا تحدث نفسها وقد استبد بها الرعب ، واخذت تنظر الى الجدران نظرة زائغة : « ماذا دهانى حتى اطلقت سراحه ؟ وماذا اقول لزوجى الآن ؟ لقد اصبحت من الهالكين ، وام يبق لى الا ان ادفن نفسى حية ! » وانبعثت تبكى وتنتحب واوشكت ان تسقط على كتلة الخشب التى كان السجين يجلس عليها ، ثم مضت تقول فى صوت رقيق : « ولكننى انقذت روحا ، فاتيت بذلك عملا صالحا ، الا اننى

خدعت زوجى للمرة الأولى ، أواه ! ما افظع ما اتيت ! وما اشد على نفسى ان اكذب عليه ! وى ! ان شخصا يقترب ! انه هو زوجى ! » ، وصرخت صرخة تفيض باليأس والقنـــوط ، وسقطت على الارض فاقدة الوعى .

- ٧ -

وما ان ثابت كاترينا الى رشدها حتى رأت الخادم العجوز وسمعت صوتا يهتف بها : « اننى انا هى ، يا ابنتى ! اننى انا هى يا حبيبتى!» ، وانحنت المرأة عليها ، وبدا انها تهمس بشىء فى اذنهـا ، ومدت يدها الواهنة الذابلة ونضحتها بالماء .

وقالت كاترينا وهى تجلس ملتفتة حولها : « اين انا ؟ ان نهر الدنيبر يهدر امامى ، والتلال تقوم من خلفى ، فالى اين أخذتنى ؟ » .

« لقد نقلتك الى خارج البيت ، وحملتك بين ذراعى من القبـو الخانق ، ثم عدت فأغلقت القبور حتى لا يسىء اليك سيدى دانيلو » .

وقالت كاترينا وهى تنظر الى حزامها : « واين المفتـــاح ، فانى لا اراه ؟ » .

« لقد اخذه زوجك ليلقى نظرة على الساحر يا ابنتى » .

فصاحت كاترينا تقول : « ليلقى نظرة على الســـاحر ! اذن فقد هلكت ! » .

« فلينقذنا الله برحمته من هذا البلاء يا ابنتى ! وحسبك ان تتذرعى بالصمت يا سيدتى الصغيرة ، فلا يعرف احد من هذا الأمر شيئا » .

وقال دانيلو وهو يمضى الى زوجته : « لقد هرب الملعون عدو المسيح! أتسمعين يا كاترينا ؟ لقد هرب ! » ، وانبعث الشرر من عينيه ، واخذ سيفه يقعقع الى جانبه ، اما زوجته فكانت اقرب الى الأموات منها الى الأحياء .

وغمغمت وهى ترتعد : « او اطلق سراحه احد يا زوجى العزيز؟ » .

« أجل ، لقد صدق ظنك ، فان الشـــيطان هو الذى اطلقه من محبسه ، انظرى ، لقد ترك مكانه كتلة من الخشب مصفدة بالأغلال ، ويخيل الى ان مشيئة الله قد قضت بألا يخشى الشيطان يد رجل

من القوزاق ! ولو قد دار بخلد احد ان يأتي مثل هذا الفعل وعلمت بأمره ما وجدت عقابا استطيع ان اجزيه به ! » .

ولم تستطع كاترينا ان تقاوم رغبتها فى السؤال : « واذا كنت انا التى فعلت هذا ... ؟ » . ثم كفت عن الكلام وقد تملكها الفزع .

« لو كنت فعلت هذا ما اصبحت زوجتي ، ولوضعتك فى كيس ثم خطته من دونك ، وقذفت بك فى عرض الدنيبر » .

ولهثت كاترينا مبهورة الأنفاس ، واحست بشـــــعرها يقف على راسها .

— ٨ —

وكان البولنديون قد تجمعوا فى حانة على طريق الحدود ، وظلوا يحتفلون فيها يومين لا يخالطهم من الغوغاء الا القليل ، وما من شك فى أن اجتماعهم كان لغارة يشنونها ، فقد حمل بعضهم البنادق ، وانبعثت المهاميز تجلجل والسيوف تصلصل واخذا الأعيان يمرحون ويتفاخرون، ويتشدقون بمـــا اتوه من عجيب الفعال ، ويسخرون بالمسيحيين الأرثوذكس ، ويسمون الأوكرانيين عبيدهم ، ويفتلون شواربهم فى قحة ، ويتمرغون على الآرائك . وكان من بينهم قسيس ، ولكنه كان على شاكلتهم لا تبدو عليه سمة واحدة من سمات القسيس المسيحى ، فقد كان يشرب معهم وينادمهم ويجرى لسانه الآثم بكلمات يندى لهـا الجبين خجلا .

ولم يكن الخدم احسن حالا من اسيادهم ، فقد شمروا عن أردان سترتهم المهلهلة ، وراحوا يسيرون متبخترين كأنهم من ذوى الجـــاه والخطر ، ويلعبون الورق ويضرب كل منهم الآخر بالورق على أنفه ، وكانوا قد جاءوا معهم بزوجات غيرهم ، يعمى العيون ، واختلط الحابل بالنابل ، الا ان القوزاق كانوا فى قمة مرحهم ، يأتون من الألاعيب اشكالا والوانا فيجذبون صاحب الحانة اليهودى من لحيته ، ويرسمون بالطلاء صليبا على جبينه الفاجر ، ويرمون النساء بطلقات فارغة من البارود ، ويرقصون الرقصة الكراكوفية مع قسيسهم الزنديق . ولم تشهد الأرض الروسية من قبل مثل هذا الآثم حتى بين التتر ، ولعل

الله قد اقتضت مشيئته أن ينزل بروسيا هذا الخزى العظيم على ما اقترفت من آثام . وكان يسمع فى غمرة هذه العربدة الشبيهة بعربدة المجانين لغط صادر عن دار دانيلو التى تعلو نهر الدنيبر وعن زوجته الحسناء .

وكان من الجلى ان هذه العصابة تدبر أمورا شنعاء .

— ٩ —

وجلس دانيلو على المائدة فى داره وقد استند الى مرفقه ، واستغرق فى تأملاته . وجلست كاترينا على اريكة الموقد تغنى .

وقال دانيلو : « أى زوجتى ، اننى لحزين ، مصدع الراس كسير القلب ، وقد انهد منى الجسم حتى ليبدو لى أن منيتى اصبحت قريبة » .

وكانت كاترينا تريد ان تقول : « أواه ! يا زوجى الحبيب ! أسند راسك على ! ما بالك تستسلم لمثل هذه الأفكار السود ؟ » ، ولكنها لم تجرؤ على النطق بهذه الكلمات فقد حز فى نفسها أن تأتى هذا الاثم وتلقى من زوجها التدليل والاعزاز .

وقال دانيلو : « استمعى الى أى زوجتى ! لا تتخلى عن ابننا ، حين ينتهى اجلى ، وليحرمنك الله طعم السعادة فى الدنيا والآخرة ان فعلت ، فما اشقى أن تتحلل عظامى فى الأرض الرطبة ، واشقى من ذلك وقعه على روحى ! » .

« زوجاه ، ماذا تقول ؟ ألست انت الذى كنت تسخر منا نحن النساء الضعيفات ، ان أمامك عمرا مديدا لابد أن تعيشه » .

« كلا يا كاترينا ، ان قلبى يحس بدنو الأجل ، والدنيا تضيق فى عينى ، وأمامنا أيام شداد ، آه ! انى لأذكر ، أجل اذكر السنوات ... وهيهات أن تعود ! لقد كان يعيش آنئذ ، كوناشيفتش العجوز الذى تمثل فيه شرف جيشنا ومجده وفخاره ! ان الفرقة القوزاقية تمر الآن أمام عينى كأنما يحدث ذلك اليوم » .

« لقد كانت أيامنا مجيدة يا كاترينا ! يستوى فيها شيخ القوزاق العجوز على ظهر جواد أسود أصيل ، ويتألق الصولجان فى يده ويقف الحرس من حوله ويسير على جانبيه بحر ضخم احمر من الزابوروجاويين وما أن يشرع الزعيم فى الكلام حتى يقف الجميع كأنهم سمروا فى الأرض

تسميرا . لقد كان العجوز يبكى حين يحدثنـــا عن الغزوات والمواقع الماضية ، آه ياكاترينا ، لو تعلمين كيف كنا نقاتل الترك فى تلك الأيام ! ان أثر الجرح الذى فى راسى لا يزال ظاهرا حتى الآن ، وقد نفذت فى جسمى أربع رصاصات فى أربعة مواضع ، ولم يشف منها جرح واحد تمام الشفاء ، ويا للذهب الذى غنمناه فى تلك الأيام ! » .

« لقد ملأ القوزاق قبعاتهم بالأحجار الكريمة ، ويا للجياد ! ، وى ! ان عدد ما سقناه امامنا منها لفوق ما تتصورين ! هيهات أن اقاتل مثل هذا القتال مرة أخرى ! ان الوهم ليصور لى اننى لا زلت قوى الجسم لم تمض بى السن بعد ، ولكن السيف يسقط من يدى ، وهانذا اعيش مقيدا لا افعل شيئا ، ولست ادرى : لم اعيش ؟ لقد تلاشى النظام فى اوكرانيا ، واصبح افراد الجيش وضباطه يتشاجرون كما تتشاجر الكلاب ، وليس من فوقهم رئيس يمسك بزمامهم ، وبدل خاصتنا كل شىء ووسموه بطـابع البولنديين . واخـــذوا عنهم أساليبهم الماكرة الخبيثة . لقد باعوا أرواحهم واعتنقوا مذهب الأونيات ، وراح اليهود يضطهدوا الفقراء ، آه ! اين تلك الأيام ! اجل اين تلك الأيام الماضية ! واين انت يا أيام شبابى ؟ اذهب الى القبو يا غلام وائتنى بابريق من نبيذ العسل ! ولأشربن نخب الماضى ، نخب السنوات التى ذهبت ولن تعود ! » .

وقال ستيتسكو وهو يلج الغـــــرفة : « كيف نستقبل ضيوفنا يا مولاى ؟ ان البولنديين مقبلون من جانب المرج » .

وقال دانيلو وقد هم بالوقوف : « لا أعرف سبب مجيئهم ، أسرجوا جيادكم أى رجالى المخلصين ! وارتدوا دروعكم واشهروا ســـيوفكم ! ولا تنسوا أن تتزودوا بمئونتكم من الرصاص ، فان الواجب يقتضينا أن نكرم ضيوفنا ! » .

وما أن هم القوزاق بأن يسرجوا جيادهم ويحشوا بنادقهم حتى كان البولنديون قد غطوا سفح التل كما تغطى أوراق الأشجار اديم الأرض وقت الخريف .

وقال دانيلو وهو ينظر الى البولنـــديين الأشداء وهم يتقدمون الصفوف ، يتمايلون فى رزانة ووقار على ظهور جيادهم الأصيلة ذات السروج الذهبية « آه ! هاكم أعداء نختبر قوتنا معهم ! ولعل من

نصيبنا ان نخوض غمار جولة مجيدة اخرى ! فطيبى ايتها النفس القوزاقية للمرة الأخيرة ! وهلموا ايها الفتيان ، فقد اقبل العيد ! » .

واقيم العيد على التلال ، وكان القصف والمرح عظيمين ، فقد اخذت السيوف تتلاعب والرصاص يتطـــاير والجياد تصهل وتضرب الأرض بقوائمها ، وكان الصياح يذهل العقل ، والدخان حتى عن نفسها ، وراحت تصب على راسها اللوم فى صوت يعرف عدوه من صديقه ، وكلما دوت رصاصة سقط فارس كريم عن سرجه ، وكلما برق سيف هوى راس على الأرض يدمدم ويغمغم بكلمات متقطعة لا تفصح ولا تبين.

على ان قبعة دانيلو القوزاقية كانت تبدو للعيان دائما فى غمرة هذه الزحمة ، وكان حزامه الذهبى يطوق سترته الزرقاء الداكنـــة يتألق ويتلألأ ، وعرف جواده الأسود الأصيل يخفق مع الريح . وكان دانيلو يمرق هنا وهناك فى خفة الطـــــائر يصرخ ويلوح بسيفه الكريم يطيح بالرءوس يمنة ويسرة . ايه ايها القوزاقى ، اطح بالرءوس وامرح ! واشف قلبك النبيل ! ولكن لا تنظر الى السترات والحلى الذهبية وطأ الذهب والجواهر بقدميك ! ولكن التفت وراءك ، فقد اخذ البولنديون الأشرار يشعلون النار فى الاكواخ ويسوقون الماشية المرتاعة أمامهم . وعاد دانيلو ادراجه كالزوبعة ، واخذت القبعة ذات الريشة الحمراء تتألق بجوار الأكواخ ، ويتفرق شمل الزحمة الضاربة حوله .

وتقاتل البولنديون والقوزاق ساعة بعد ساعة ، فما بقى من الجانبين الا القليل،ولم يخفف دانيلو من حراراته ، بل راح يطعن برمحهالطويل فرسان البولنديين فيسقطهم عن سروجهم ويطأ جواده الأصيل الجرىء مشاتهم ، حتى أوشك فناء داره ان يخلو من الفزاة . وتعلقالبولنديون بأذيال الفرار ، واخذ القوزاق ينتزعون السترات الذهبية ، والزينات الفاخرة عن اولئك الذين قضوا عليهم ، وانطلق دانيلو يطارد من ولى الأدبار منهم ، وتلفت ليجمع شتات رجاله ، ولكن الغضب غلب عليه ، فقد راى ابا كاترينا .

وكان الرجل يقف على سفح التل يصوب بندقيته نحوه ، وحث دانيلو جواده مندفعا اليه لا يلوى على شىء : قف ايها القوزاقى ! انك تسعى الى حتفك بظلفك ! ثم انطلقت رصاصة وتوارى الساحر خلف التل ، وغاب عن الانظار ، وانما لمح ستيتسكو الأمين سترة الساحر

الحمراء وقبعته الغريبة ، وترنح القوزاقى وسقط على الأرض ، وهب ستيتسكو لنجدة سيده ، فوجده ملقى فوق الثرى وقد غمض عينيه المتألقتين وراح الدم القانى ينبثق من صدره . على أنه كان يحس وجود خادمه الأمين بلا شك . ورفع دانيلو حاجبيه فى تثاقل وتألقت عيناه وهمس : « وداعا يا ستيتسكو ! قل لكاترينا الا تتخلى عن ابننا ! وأنتم يا خدم المخلصين لا تتنكروا له ! » ، ثم أمسك ، وفارقت روحه الكريمة جسده النبيل ، وازرقت شفتاه ، وأخذ القوزاقى الى نوم طويل لا قيام بعده .

وانتحب خادمه الأمين واوما الى كاترينا : « تعالى يا سيدتى ، تعالى ! لقد كان زوجك يلهو ويشرب ، وها هو ذا ينام الان على الأرض الرطيبة نشوان ثملا ، ولن يفيق الا بعد زمن طويل ! » .

وعصرت كاترينا يديها وارتمت على الجسد المسجى : « اى زوجى ، أانت الذى ترقد هنا مغمض العينين ؟ انهض أيها الحبيب ومد يدك ! انهض ! والق نظرة واحدة على زوجتك كاترينا . حرك شفتيك ، وقل كلمة واحدة ، كلمة واحدة فحسب . ما بال لسانك قد انعقد ولج فى الصمت يا زوجى الكريم ؟ لقد أسود لونك حتى حاكى البحر الأسود ، وكف قلبك عن النبض . لم شاعت كل هذه البرودة فى جسمك ياسيدى وتاج رأسى ؟ يخيل الى أن دموعى لم تبلغ من الحرارة ما يبعث الدفء اليك ! ان بكائى لم يرتفع الى حد العويل حتى يوقظك ! أين من يقود كتائبك الآن ؟ ومن ذا الذى ينطلق بجوادك الأسود الأصيل ويهتف بالصوت المجلجل ويقود القوزاق ملوحا بسيفه ؟ أيها القوزاق ، أيها القوزاق ! أين من كان رمز شرفكم ومجدكم ؟ انه ملقى الآن مغمض العينين على أديم الثرى الرطب ! ادفنونى ، ادفنونى معه ! واهيلو على عينى التراب ! ، ودعوا ألواح شجر الاسفندان يجثم على صدرى الأبيض ! فأى نفع أرجوه الان من ملاحتى وحسنى ؟ » .

وحزنت كاترينا وبكت ، وثار النقع فغطى الأفق البعيد ، ذلك أن الصاغ جوروبتس العجوز كان قد خف لنجدة مواطنيه .

— ١٠ —

ما أجمل الدنيبر تنساب مياهه فى الجو الهادىء منطلقة ناعمة

KMH

خلال الغابات والتلال ، لا ينبعث منها صوت ولا تحس لها خريرا ولا هديرا ! فاذا نظرت اليه لم تدر : ايتحرك هذا الخضم فى جلاله أم لا يتحرك ؟ وقد تكون مياهه من البلور المنصهر تشق طريقها خلال البقاع الخضر كأنها لوح من الزجاج الأزرق لا يعرف له مدى ولا تدرك له نهاية ، ويطيب للشمس اللافحة فى مثل هذا الجو ان تطل من برجها العالى وتختلس النظر الى نفسها وتنفذ اشعتها المتألقة فى مياه النهر الرطيبة الساجية ، ويحلو للضفتين الشجراوين ان ترقبا ظلالهما المتألقة وهى تنعكس فى الماء ، وتدنو الغابات فى حلتها الخضراء هى والأزهار البرية من حافة النهر حانية عليه تتأمله فلا تمل من الاعجاب بصورتها الرائعة المائلة فيه ، ثم تبتسم له وتحييه بايماءة من اغصانها . على انها لم تكن لتجرؤ على النظر فى عرض الدنيبر ، وانما يستطيع ذلك الشمس والسماء الزرقاء . الا ما اروعك يا نهر الدنيبر : وهيهات ان يكون لك مثيل فى هذا العالم ! ، وما اجمل نهر الدنيبر فى ليلة من ليالى الصيف الدفيئة حين تستسلم للكرى عيون الناس جميعا ! فيهجع الانسان والحيوان والطير ، ولا يبقى الا الله وحده ساهرا يرعى بجلاله وعظمته الارض والسماء ، ويهز ثوب ملكوته فى عظمة وجلال ، فتتناثر النجوم فيه ، وتتألق ويسطع نورها على العالم وتنعكس جميعا على صفحة نهر الدنيبر ، وتنطوى كلها فى احضانه المظلمة ، لا يفلت منها احد الا اذا انطفأ نوره فى السماء . وتتدلى الغابات السود تناثرت فيها الغربان النائمة والتلال انشقت شعبا من تعاقب الدهور وكر الأيام ، وتحاول جاهدة ان تطويه فى غمرة من ظلالها الوارفة ، ولكن هيهات !

فما من شىء فى العالم يستطيع ان يخفى عن الأنظار نهر الدنيبر ، فهو ينساب عميقا فى زرقة داكنة ، وينتشر ماءه فى جميع الأرجاء ، فتراه العين فى منتصف الليل كما تراه فى الظهيرة بعيدا جدا ، على قدر ما يمتد البصر ، وهو ينكمش من برد الليل ، فيدنو من الشاطىء اكثر ويخلف وراءه اثرا من لجين يلمع لمعان النصل فى السيف الكريم ، وتعود مياهه الزرق الداكنة فتهجع مستسلمة للنوم . الا ما اجمل نهر الدنيبر وهو على هذه الحال ! وهيهات أن تجد له بين انهار العالم مثيلا ! .

فاذا تجمعت سحب العاصفة الزرق الداكنة فى السماء اهتزت الغابة

السوداء حتى الجذور ، وتراقصت أشجار السنديان واضاء البرق العالم كله فجاة ، وراح يتلوى بين السحب ، وعندئذ يكون نهر الدنيبر مخيفا مهرولا تهدر امواجه صاخبة تحاكى الجبال وتنقض على التلال ، وترتد مندفعة تومض وتئن وتولول وتنوح فى الفضاء البعيد ، وتنهج نهجا الأم العجوز اذ تودع ابنها وهو ماض الى الحرب ، وينطلق الفتى ممتطيا صهوة جوده الأسود الاصيل فى جراة واستهتار ، وقد وضع ذراعيه فى خاصرته ، ومال بقبعته اللطيفة على جانب راسه ، وراحت الأم تركض وراءه منتحبة تتعلق بركابه وتمسك باللجام ، ثم تعصر يديها عصرا من أجله وتذرف الدمع حارا سخينا .

وكانت جذامير الأشجار المحروقة والاحجار التى على الضفة النائية تصطخب من حولها الأمواج تبدو غريبة المظهر سود اللون . وضربت الأمواج القارب الذى ادلى الى الماء وقذفت به الى الشاطىء ورفعته ثم هوت به . ترى اى قوزاقى هذا الذى اجترأ على التجديف فى قارب ، ونهر الدنيبر العريق فى ثورته وهياجه ؟ لا شك انه يجهل أن النهر يبتلع الرجال كأنهم الذباب .

وبلغ القارب الشاطىء ، ونزل منه الساحر ، ولم يكن الرجل منشرح الصدر صافى المزاج ، فقد حز فى نفسه أن يرى الجنازة التى أقامها القوزاق احتفالا بسيدهم القتيل . ودفع البولنديون الثمن غاليا ، فقد لقى الموت منهم اربعة وأربعون رجلا فى كامل عدتهم وزينتهم ، ومزق ثلاثة وثلاثون خادما اربا اربا ، وأسر الآخرون بجيادهم لتباع الى التتر .

وهبط الساحر درجا من الحجارة بين الجذامير المحترقة الى موضع حفر فيه جبا عميقا فى الأرض ، ونزل الى الجب رفيق الخطا ، محاذرا أن يصدر عن الباب صرير ، ووضع قدرا على المائدة غطاها بقطعة من النسيج ، وأخذ يلقى فيها بيديه الطويلتين بعض الأعشاب الغريبة ، وتناول ابريقا مصنوعا من خشب نادر ونزح به بعض الماء ثم سكبه وهو يحرك شفتيه ويردد تعويذة من تعـــاويذه ، وغمر الجب ضوء وردى ، وغدا وجه الرجل بشعا تتقحمه العين ، ولاح ان الدم قد غطاه الا من تجاعيد عميقة يغشاها السواد ، واتقدت عيناه بالشرر ، لبئس هذا الآثم الزنيم ، كيف يمضى ممعنا فى شروره وقد كلل الشيب لحيته ، ورسمت التجاعيد خطوطا على وجهه واضنت الأيام جسمه ! .

وانبعثت سحابة بيضاء ترفرف فى الجب وبرقت ملامح الساحر بشىء يشبه البشر ، ولكن ما باله قد وقف ساكنا فاغر الفم لا يريم ولا يجرؤ على الاتيان بأية حركة ، ولماذا وقف شعر رأسه ؟ وتلألأ أمامه من خلال السحابة محيا شبح غريب ، أقبل يزوره بلا استئذان ولا دعوة ، وازداد الوجه وضوحا وأخذ يتفرس فى الساحر لا يحول عنه نظره ، وكانت ملامحه كلها ــ الحاجبان والعينان والشفتان ــ غير مألوفة لديه، فلم يسبق له أن رآها فى حياته قط ، والظاهر ان الوجه كان بريئا كل البراءة مما يخيف ، ولكن الفـــزع استبد بالساحر ، وظل الوجه الغريب يتفرس فيه من خلال السحابة ، ثم انقشعت السحابة ، ولكن الوجه الغريب ازداد وضـــوحا على وضوح وظلت العينان الثاقبتان تحدجانه بنظراتهما ، وامتقع لون الساحر حتى غدا كصفحة النسيج الناصع ، وصرخ صرخة مدوية وقلب القدر ، فاختفى كل شىء عن الأنظار .

ــ ١١ ــ

وهتف الصاغ جوروبيتس العجوز : « ليطمئن بالك أيتها الأخت العزيزة ، فقلما تصدق الأحلام ! » .

وقالت زوج ابنة العروس : « ارقدى أيتها الأخت ولاسعين فى طلب سيدة عجوز ، بل امرأة حكيمة لا تقف أمامها أية روح شريرة ، فتعينك على ما أنت فيه » .

وقال ابنه وهو يتحسس سيفه : « لا تخشى شيئا ، فلن يسىء اليك أحد ! » .

وأخذت كاترينا تنظر اليهم جميعا وقد اظلت عينيها غشاوة من الحزن والكآبة ، ولم تجد ما تقوله ، الا انها أخذت تحدث نفسها قائلا : « انا التى تسببت فى هلاك نفسى ، فقد أفلت سراحه ! » .

ثم قالت آخر الأمر :

« انه لا يدع لى فرصة للطمأنينة وهدوء البال ! وهأنذا قد قضيت معكم هنا فى كييف عشرة أيام سويا ، فما خف لى حزن ، وكنت أظن اننى أستطيع على أيسر تقدير أن انشىء ابنى فى سلام حتى يثأر

لابيه ، انه يظهر لى فى الحلم فظيعا كل الفظاعة ، بشعا كل البشاعة ! وقاكم الله شر رؤيته على هذه الحال ! ان قلبى لا يزال يضرب ، لقد كان يصيح بى : لأقطعن ابنك اربا اربا يا كاترينا ان لم تتزوجينى ! » ، ثم القت بنفسها على المهد وهى تنتحب ، وتملك الرعب الطفل ، فمد يديه الصغيرتين وعلا صوته بالبكاء .

وكان ابن جوروبيتس يغلى من الغيظ وهو يسمع تلك الكلمات .

أما جوروبيتس نفسه فقد ثارت ثائرته .

« فليخاطرن بالقدوم الى هنا ذلك الملعون عدو المسيح ، ولسوف يعلم ان كان قد بقى فى ساعة القوزاقى العجوز فضلة من قوة » . ومضى يقول وهو يتطلع بعينيه الثاقبتين الى السماء : « علم الله اننى هرعت لنجدة اخى دانيلو ، ولكنه قضاء الله ولا راد لقضائه ! فقد وجدته يرقد على اديم الثرى الرطب كما رقد كثير من القوزاق من قبل ، ولكن ما اروع الحفلة التى اقمناها لجنازته ، فقد اتينا على القوم ولم نترك بولنديا واحدا على قيد الحياة ! ليطمئن بالك يا بنيتى ! فان يجرؤ احد على ان يصيبك بأذى ما دام فى انا او ابنى عرق ينبض !»

وما ان انتهى الصاغ القوزاقى العجوز من حديثه هذا حتى اقترب من المهد ، ورأى الطفل غليونه الأحمر المرصع بالفضة والكيس الذى حمل فيه الحجر الصوان والصلب القادح للنار يتدليان من سير من الجلد ؛ فمد ذراعيه نحوه وهو يضحك ، فهتف الصاغ العجوز وهو يفك الغليون ويعطى الطفل اياه : « انه ينهج نهج ابيه ، يحلم بغليون وهو بعد فى المهد ! » .

وتنهدت كاترينا واخذت تهز المهد ، واتفق الجميع على أن يقضوا الليلة معا ، وسرعان ما استغرقوا فى النوم ، وثقلت جفون كاترينا ايضا واستسلمت للنعاس .

وشمل السكون الفناء والدار جميعا ، ونام من بالدار الا القوزاق الذين كانوا يقومون بالحراسة ، واستيقظت كاترينا فجأة واطلقت صرخة ، فاستيقظ الباقون ايضا وصاحت تقول : « لقد ذبح ! لقد قتل ! » ، واندفعت الى المهد والتف الجميع حوله وانعقد لسانهم من الرعب والفزع اذ وجدوا الطفل راقدا فيه وقد فارق الحياة ، ولم ينبس احدهم ببنت شفة ، وراحوا يعجبون من امر هذه الجريمة التى لم يسمع بمثلها احد .

- ١٢ -

تمتد سلاسل من الجبال الشامخة على مبعدة من أوكرانيا ، فيما وراء بولندة ومدينة لمبرج العامرة ، وانتشرت هذه الجبال ، جبلا فى اثر جبل كحلقات من الحجارة انتشرت على الأرض ذات اليمين وذات اليسار ، تحيط بها طبقات من الصخر ترد عنها عادية البحر الصاخب المضطرب ، وتتوغل السلاسل الحجرية فى الافلاق وترانسيلفانيا ، وتشمخ بأنفها كحدوة الحصان الضخمة بين شعبى غاليسيا وهنغاريا ، ولا وجود لمثل هذا الجبال فى بلادنا ، فان البصر يرتد عنها وهو كليل ، ولم يسبق لانسان ان وطىء بقدمه بعض قننها ، ان منظرها لعجيب ، ومن يدرى ؟ لعل بحرا صاخبا قد افلت من شاطئيه الفسيحين اذ المت به عاصفة وقذفت بأمواجه الهائلة عاليا ، فاستحالات حجرا وظلت معلقة فى الفضاء بلا حراك ، او لعل سحبا كثيفة من سحب العاصفة قد سقطت من السماء وهوت الى الارض ، والا فمن أين جاءت هذه الجبال بذلك اللون الأشهب الذى نعهده فى تلك السحب تومض قننها البيض وتتألق فى ضوء الشمس .

وقد يسمع المرء اللغة الروسية تدور على الألسنة حتى جبال الكربات ، أما فيما وراء هذه الجبال مباشرة فلا يزال يتردد هنا وهناك صدى للهجتنا القومية ، فاذا اوغلت الى ابعد من ذلك اصبح المذهب واللغة غير اللغة ، ويقيم الشعب الهنغارى الغفير العدد هنالك ، وهم يركبون الخيل ويقاتلون ويشربون كالقوزاق سواء بسواء ولا يبخلون بالقطع الذهبية يخرجونها من جيوبهم لشراء حلى خيولهم وستراتهم النفيسة ، وتقوم بين الجبال فى تلك البلاد بحيرات واسعة عظيمة ساكنة الأديم كالزجاج وتعكس المرايا قمم الجبال العارية وسفوح التلال الخضر .

ولكن اى فارس هذا الذى يمتطى صهوة جواد ضخم أصيل بليل سواء تألقت النجوم أو خبأ ضياؤها ؟ واى بطل من العمالقة ذلك الذى مضى بجواده يخب خببا تحت الجبال وفوق البحيرات وقد انعكست صورته وصورة جواده الجبار على صفحة المياه الساجية ، والقى على الجبال ظله الرهيب الممدود ؟ لقد كانت درعه المصفحة

تتالق وقد اسند رمحا على كتفيه واخذ سيفه يقمقع الى جانب السرج، وانكفات خوذته الى الامام ، وكان شاربه اسود وعيناه مغمضتين وقد ثقلت جفونه بفعل الكرى ، اجل لقد كان هذا الفارس نائما يمسك اعنة الجواد مستسلما للنعاس ، وكان يمتطى صهوة الجواد نفسه غلام صغير ، خادم استسلم للنعاس ايضا وقد تعلق بالبطل ، ترى ، اى رجل كان ؟ واين كانت وجهته ؟ وفيم كانت رحلته ؟ من يدرى ؟

لقد ظل بعد السير فوق الجبال يوما او اكثر من يوم ، ثم لاحت تباشير الصباح واشرقت الشمس فغاب عن الانظار ، وانما كان رواد الجبال يشاهدون من حين الى حين ظلا طويلا يمرق فوق الجبل على الرغم من ان السماء كانت صافية الاديم لا تغشاها سحابة ، وما ان عاد الليل فاسدل ستار الظلام حتى ظهر مرة اخرى وانعكست صورته على صفحة البحيرات يتبعه ظله المرتعش ، واجتاز البطل فى رحلته جبالا كثيرة وبلغ آخر الأمر جبل كريفان الذى لا يدانيه فى الارتفاع جبل من جبال الكربات ، فهو يشمخ بانفه على الجبال الأخرى كالملك المتوج ، وعندئذ توقف الجواد وراكبه ، واستغرقا فى نوم زاد عمقا على عمق ، وحجبتهما السحب المسفة عن الانظار .

— ١٣ —

« صه ، ولا تدقى هذا ايتها المرضع ، فان طفلى نعسان ، وقد ظل يبكى وقتا طويلا ثم استسلم للنوم ، انى ذاهبة الى الغابة ايتها المرضع ، ولكن ما بالك تنظرين الى على هذا النحو ؟ انك لمخيفة ، تطل من عينيك كلابتان من الحديد ، الا تبا لك، ما اطولهما ! وهما يتوهجان توهج النار ! لا شك انك ساحرة ! آه ! فان كنت ساحرة فاغربى عن وجهى ! فلسوف تسرقين ابنى ! يا للصاغ من غبى احمق ! فهو يظن اننى انعم بالعيش فى كييف ، كلا ان زوجى وابنى هنا ، فمن يدبر امر البيت ؟ لقد خرجت فى خفة حتى ان الكلب والهرة لم يسمعا دبيب قدمى ، اتريدين ان تعودى الى شبابك ايتها المرضع ؟ ليس هذا بعسير على الاطلاق ، وما عليك الا ان ترقصى ، انظرى كيف ارقص ؟ » .

وما ان اتمت كاترينا هذا الحديث المضطرب حتى شرعت ترقص

وهى تدير عينيها الناطقتين بجنونها وتضع ذراعيها فى خاصرتيها ، ثم صرخت وأخذت تضرب الأرض بقدميها ، وانطلق كعباها الفضيان يقعقعان فى نشاز لا ايقاع فيه ولا نغم ، وطفقت تدور فى سرعة كالطائر لا تستقر ولا تستريح ، وهى تلوح بيديهـــا وتومىء برأسها ، حتى بدا للأنظار ألا مناص من أن تسقط على الأرض فاقدة الوعى أو تحلق فى الجو حتى تبلغ العالم الآخر .

ووقفت المرضع العجوز حزينة كاسفة البال وقد خضب الدمع وجهها المتغضن ، وأثقل الهم والأسى قلوب القوزاق الأمناء وهم ينظرون الى سيدتهم ، وخارت قواها آخر الأمر وتشبثت بالموضع الذى هى فيه تضرب الأرض بقدميها فى ضعف ووهن ، زاعمة أنها ترقص دورا ، ثم توقفت وقالت : « عندى ايها الغلمان قلادة ليس عندكم مثلها ! » وصاحت فجأة وهى تشهر خنجرا تركيا أخذته من حزامها : « اين زوجى ؟ آه ! ليس هو السكين الذى أنا فى حاجة اليه » ، وعندئذ انهمرت الدموع من عينيها حزنا وكمدا وقالت : « ان قلب ابى ليكمن فى أعماق نفسه ، ولن يصل اليه هذا النصل ، فقد قد قلبه من حديد ، وطرقته ساحرة فى نار الجحيم ، لم لا يأتى أبى ؟ ألا يعلم أن الوقت قد حان لطعنه ؟ يخيل الى أنه يريد منى أن أذهب اليه بنفسى، يبدو . . . » ثم سكتت وضحكت ضحكة غريبة ، ومضت تقول : « لقد تذكرت قصة مضحكة ، أجل تذكرت كيف دفن زوجى ، فقد دفن حيا كما تعلمون ، وحملنى ذلك على الضحك ! انصتوا ، انصتوا ! » ولكنها لم تتكلم بل راحت تغنى :

انطلقت عربة خضبها الدم تسابق الريح
ورقد فوقها قوزاقى
اصيب برصاصة فى صدره وطعنة فى قلبه
وفى يده اليمنى رمح
يقطر منه الدم
وينهال كالنهر المتدفق
وقد حنت على النهر شجرة دلب
وقف فوقها غراب ينعق

* * *

وها هى ذى الأم تبكى القوزاقى

لا تبكى ايتها الام ولا تحزنى ؟
فقد تزوج ابنك
واختار فتاة كريمة عروسا له
وقامت فى الحقول العارية اكمة من الثرى
بلا باب ولا نافذة
وهكذا تنتهى قصتى

* * *

لقد كانت سمكة ترقص مع سرطان البحر
ولتقض البرداء على أم
من لايحبنى

* * *

وهكذا خلطت بعض سطور من أغان مختلفة ببعض ، وكانت كاترينا تقيم منذ يومين فى بيتها هى ، وابت ان تسمع شيئا عن كيف ، ورفضت أن تتلو صلاتها أو تلقى أى انسان ، وكانت تتجول من الصباح الى المساء فى ادغال السنديان المظلمة ، فتخدش العساليج الحادة وجهها وكتفيها البيضاوين ، وتثير الريح شعرها المرسل ، وتخشخش أوراق الخريف تحت قدميها ، ولكنها لم تكن تحفل بشيء . وقد كان من الأمور المخيفة ان يسير أحد فى الغابة من وقت أن يخبو وهج الشمس الغاربة الى حين تظهر النجوم أو يضيء القمر ، ذلك ان الأطفال الذين لم يعمدوا يتسلقون فى هذه الأثناء فوق الأشجار ويتعلقون بغصونها ، ويتدحرجون فى الطرقات وقفار القريض ينشجون ويضحكون ، وتبرز العذارى اللواتى فقدن أرواحهن واحدة فى اثر الأخرى من أعماق الدنيبر وتسترسل جدائلهن الخضر على أكتافهن ، ويقطر الماء من شعرهن الطويل على الأرض فى صوت منغوم وتتألق عذراء من خلال الماء كانه نقاب شفاف من البللور ، وتبتسم شفتاها فى خفاء وغموض وتشرق وجنتاها وتخلب عيناها اللب حتى ليضطرم الفؤاد بنار الحب ، ويخيل للمرء انها سوف تمطره بالقبلات حتى تزهق منه الانفاس ، ألا فلتنج بنفسك أيها المسيحى ! فان شفتيها باردتان كالثلج ، وفراشها ... هو الماء البارد ، ولسوف تداعبك وتعابثك حتى تقضى عليك ثم تجرك الى

النهر. ولم تك كاترينا تنظر الى واحدة من هاتيك العذارى ، ولا تخش فى خبلها عرائس البحر، فقد كانت تهيم ليلا وفى يدها سكينها تبحث عن أبيها ، وتفتش عنه .

وفى باكورة اليوم التالى جاء الى المنزل زائر حسن الطلعة يرتدى سترة حمراء وسأل عن دانيلو ، واستمع الى قصته ، ثم مسح بردنه عينيه المخضبتين بالدموع وهز كتفيه ، وقال : « انه حارب مع بورولباش جنبا الى جنب ، وخاضا المعارك مع الترك وأهل القريم أيضا جنبا الى جنب ، وما كان ليدور بخلده قط أن تكون نهاية دانيلو على هذه الصورة ، وانبأهم الزائر بأمور أخرى كثيرة ، ثم طلب أن يرى كاترينا .

ولم تحفل كاترينا أول الأمر بشىء مما قاله الضيف ، الا انها بدأت من بعد تنصت اليه ، كأنما تعى ما يقول : وأخبرها كيف كان يعيش مع دانيلو كالأخوين ، وكيف انهما اختفيا ذات مرة من أهل القريم تحت سد من السدود ، وكانت كاترينا تنصت اليه وهى تحدجه بنظراتها .

وقال القوزاق بينهم وبين انفسهم وهم ينظرون اليها : «لتشفين، ان هذا الضيف كفيل بشفائها ! فهى تنصت اليه كأنما تعى مايقول».

وأخذ الزائر يصف فى هذه الأثناء كيف اسر اليه دانيلو يوما قائلا: « لا تنس يا أخى كوبريان ، حين تقضى مشيئة الله بأن أغادر هذه الدنيا .. أن تتخذ كاترينا ـ أجل تتخذها زوجة لك » .

ونظرت اليه كاترينا نظرة نفاذة ثم صرخت : « آه ، انه هو. انه ابى ! » وانقضت عليه بسكينها .

وقاومها الزائر زمنا طويلا محاولا أن يخطف السكين منها ، ثم نجح آخر الأمر فى انتزاعها منها ورفعها ليضرب ، ثم حدث حادث جلل . فقد قتل الأب ابنته المجنونة .

واندفع القوزاق اليه وقد استبد بهم الذهول ، الا أن الساحر كان قد قفز على ظهر جواده وغاب عن الأنظار !

ـ ١٤ ـ

وحدثت عجيبة من العجائب فيما وراء كييف لم يسمع الناس

بمثلها من قبل ، واجتمع النبلاء وزعماء القوزاق كافة ليشاهدوا هذه العجيبة ، فقد تكشف الفضاء البعيد لأعين الناس من جميع النواحي ، وبدا للأبصار على البعد البعيد مصب نهر الدنيبر في زرقته الداكنة ومن ورائه البحر الأسود ، وابصر الذين خرجوا من القوم مرتحلين ـ بلاد القريم ترتفع بشعابها من اعماق البحر كما ابصروا نهر سيفاش العامر بالبطائح وبرزت الى اليمين بلاد غاليسيا .

وسأل الناس الشيوخ وهم يشيرون الى قنن الجبال البيض والشهب التي تجلت بعيدا في افق السماء ، كالسحب او هي اشبه : « وما هذه ؟ » .

وقال الشيوخ : « تلك هي جبال الكربات ! وبعضها يغطيه الجليد دائما وتتعلق به السحب وتقضي عليه ليلتها » .

ثم حدثت عجيبة جديدة ،فقد انقشعت السحب من اعلى القنن وظهر فوق ذروتها فارس كامل العدة مغمض العينين ، تجلى للقوم بوضوح كأنه واقف بالقرب منهم .

وعندئذ قفز من بين صفوف القوم المأخوذين الخائفين رجل امتطى صهوة جواد واخذ يتلفت حوله في نظرات زائغة كأنما يريد ان يطمئن الى أن احدا لا يطارده ، ولم يلبث ان اطلق جواده يسابق الريح ، وكان هذا الرجل هو الساحر . ترى ما الذي روعه ؟.. لقد نظر الرجل في فزع الى الفارس العجيب فتبين فيه ذلك الوجه الذي ظهر له عندما كان يردد تعويذته ، ولو قد سأله احد عن سبب اضطرابه حين راى هذا المنظر لم يحر جوابا. ثم تلفت الرجل في خوف ووجل حوله ، راجعا الى داره ، ولعله اراد ان يسأل الروح الشريرة عن سر هذه العجيبة ، وهم بأن يقفز بجواده فوق جدول من ماء يعترض طريقه واذا بجواده يتوقف فجأة وهو ماض بأقصى سرعته ثم التفت اليه فراى ، وما اعجب ما راى ! لقد قهقه الجواد ضاحكا ! وتألق صفان من الأسنان البيض تألقا مخيفا في الظلام ، فوقف شعر الساحر على راسه ، واطلق صرخة مدوية وبكى بكاء من أصابه مس ، ولوى عنان جواده ميمما شطر كييف لايلوي على شيء ، وخيل اليه أنه مطارد من كل جانب ، تسعى الأشجار التي تحيط به في الغابة السوداء وتجاهد لخنقه ، وتومىء

بلحاها السود وتمد اليه أغصانها الطويلة ، وراحت النجوم تستبق هذا الآثم وتشير اليه ، بل أخذ الطريق نفسه يطير وراءه .
وهرب الساحر اليائس لائذا بالأماكن المقدسة فى كييف .

— ١٥ —

وكان ناسك من اهل الورع يجلس وحيدا فى غاره وأمامه مصباح صغير لايرفع عينيه عن الكتاب المقدس ، ومضت سنوات وسنوات وانقطع عن الدنيا واخلد الى غاره ، وصنع الناسك لنفسه نعشا من الواح الخشب ينام فيه بدلا من الفراش ، واغلق العابد الصالح كتابه وراح يصلى ، واذا برجل غريب الهيئة بشع المنظر يلج عليه الغار فجاة ، وابصر الناسك الورع الرجل ، ففزع ونكص على عقبيه ، اذ وجده يرتجف من اعلى راسه الى اخمص قدمه كورقة فى مهب الريح ، وزاغت نظراته ، وومضت عيناه ببريق من الرعب ، وكان وجهه المخيف تقشعر منه الأبدان .

وصاح الرجل فى يأس : « صل يا ابتاه ! صل ! صل لنفس ضالة » ، وخر على الأرض جاثيا .

ورسم الناسك الورع اشارة الصليب ، وتناول كتابه وفتحه ، ثم تراجع مذعورا ، وسقط الكتاب من يده .

« كلا ، أيها الآثم الزنيم ! فقد اغلقت من دونك ابواب الرحمة ! اغرب عنى ! فلست بقادر على ان أصلى من اجلك ! » .

فصاح الساحر مغيظا محنقا : « لست بقادر ؟ » .

« انظر ، ان حروف الكتاب المقدس تقطر دما ! وما رات الدنيا أشد اثما منك » .

« أبتاه ، انك تسخر منى ! » .

« اليك عنى أيها الاثم الملعون ! فانى لا اسخر منك ، وانما غلبنى الخوف على أمرى ، وما من خير يجنيه المرء من صحبتك » .

« كلا ، كلا ، وانما انت تسخر منى — لا تنكر! فانى ارى الابتسامة تتلألأ على شفتيك ، وصفى اسنانك العتيقة يتألقان فى نصوع ! »

وانقض الساحر على الناسك الورع كالمسوس وقتله .

وانبعثت فى الجو انة فظيعة تردد صداها فى الغابة وفى الحقول، وارتفعت من وراء الغابة اذرع يابسة ذاوية لها مخالب طويلة ، ثم ارتجفت وغابت عن الأنظار .

وعندئذ خلا قلب الرجل من الخوف واصبح لايخشى شيئا ، على انه احس بالاضطراب يغمر نفسه جميعا ، فقد احس بطنين يدوى فى اذنيه واصاب راسه دوار كأنه شرب حتى ثمل ، واظل كل شيء غشاوة كانها من نسيج العنكبوت ، وقفز الرجل ممتطيا صهوة جواده ومضى الى كانيف لايلوى على شيء معتزما أن يقصد منها راسا الى تتر القريم عن طريق تشركاس ، ولو انه لم يكن يدرى لذهابه علة ولا سببا . وقطع الرجل فى رحلته يوما ، ثم آخر ، ولم تبد كانيف للأنظار ، وكان الطريق الذى مضى فيه هو الطريق الصحيح ، وكان خليقا بأن يبلغ هذه المدينة قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن لم يبد لكانيف ظل ولا أثر ، وتالقت قباب الكنائس من بعيد .

على أن هذه المعالم لم تكن لكانيف بل لشومسك ، وذهل الساحر اذ وجد انه التمس فى رحلته طريقا آخر ابعد ما يكون عن الطريق الصحيح ، فلوى عنان جواده متجها صوب كييف ، ولاحت له بعد يوم مدينة اخرى ، لم تكن هى كييف بل جاليتش ، وهى قريبة من هنغاريا ، ولكنها تبعد عن كييف اكثر مما تبعد عن شومسك وسقط فى يده فقفل راجعا ، على انه احس مرة اخرى بأنه يسير طريقه القهقرى ، وما كان لأحد أن يعرف ما يدور فى أعماق الساحر ، ولو رأى أحد ما يدور فى اعماقه او عرف ما يختلج فى طوايا نفسه ما ذاق فى ليلة طعم النوم او اشرقت اساريره بالضحك قط طول حياته . ولم يكن ذلك الذى تضطرب به جوانح الساحر حقدا او رعبا او غضبا مريرا ،وانما كان شيئا لا تستطيع كلمة من الكلمات فى اية لغة من لغات الأرض التعبير عنه . لقد كان قلبه يتقد ويضطرم ، يود لو استطاع ان يطأ العالم كله تحت قدميه ويحمل الأرض جميعا من كييف الى جاليتش بما فيها من ناس وحيوان وغير ذلك ويقذف بها فى اعماق البحر الأسود ، ولم يكن الغل او الحقد يدافعه الى ذلك ، وانما الذى كان يحفزه اليه سبب لا يدرى

من امره شيئا . وارتعدت اوصال الساحر اذ راى جبال الكربات وجبل كريفان الشاهق وقد غشيت قمته سحابة شهباء ، وراح الجواد يركض بين الجبال كالريح ، وانقشعت الغيوم فجاة وظهر الفارس قبالته بقدمه الهائلة الرهيبة .

وحاول الساحر ان يقف وشد اليه العنان ، ولكن الجواد صهل صهيلا مخيفا واخذ يطوح معرفته ، واندفع نحو الفارس ، واحس الساحر بأن كل ما فيه قد تجمد . واخذ الفارس الساكن يتحرك وفتح عينيه فجاة وابصر الساحر يندفع نحوه ، فضحك ، وتردد صدى الضحكة الهائلة فى جنبات الجبال كزئير الرعد ، ودوت فى قلب الساحر فاحس لها رجفة تشيع فى جميع اوصاله ، وخيل اليه ان كائنا عظيم القدرة قدملكعليه قياده ، وراح يتحرك بينجوانحه ويدق قلبه وعروقه دقا ! يا لها من ضحكة مخيفة تردد صداها فى طوايا نفسه !

ومد الفارس يده البلطشة ، وامسك بالساحر ، ورفعه فى الهواء ، فمات فى الحال ، ثم فتح عينيه ، ولكنه كان قد قضى ، واطلت من عينيه الجامدتين نظرة مخيفة لا تجد لها مثيلا فى عين ميت ولا فى عين صاح قام من بين القبور ، وراح الساحر يقلب عينيه الجامدتين ذات اليمين وذات الشمال فراى الموتى يقومون مثله سواء بسواء : من كييف ومن غاليسيا ومن جبال الكربات ! . .

وقام هؤلاء الأموات من بين القبور يعلو وجوههم الشحوب ، تغشاها صفرة شديدة ، وكل واحد منهم اطول من اخيه ، وابرز عظاما ، وتكاكئوا على الفارس الذى كان ممسكا بفريسته البشعة . وضحك الفارس مرة اخرى ، وقذف بالساحر فى هوة ، وقفزت الجثث جميعا الى الهوة وانشبت اسنانها فى لحم الميت ، وحاول ميت آخر ، اطول من جميع الأموات ، وابشعهم خلقة ، ان ينهض، ولكنه لم يستطع ، فقد نما حجمه نموا عظيما ضرب فى باطن الأرض طولا وعرضا حتى عجز عن القيام ، ولو قد فعل لقلب جبال الكربات وترانسيلفانيا وتركية راسا على عقب ، وغاية ما استطاع انه تحرك قليلا ، فزلزل الأرض جميعا واطاح ببيوت عدة وسحق قوما كثيرين ! .

وينبعث من جبال الكربات فى كثير من الأحيان صوت مجلجل ما ان يبلغ سمعك حتى يخيل اليك ان ألف طاحونة من طواحين الماء اخذت تمخض بدواليبها الماء مخضا . وما هذا الصوت الا صوت الموتى وهم ينهشون بأسنانهم جثة القى بها فى الهوة المشئومة التى لم يرها انسان ولا جرؤ مخلوق على اجتيازها . وكثيرا ما تزلزل الأرض زلزالها وتتقلب من طرف الى طرف ، ويقول العلمـــاء : ان ذلك يرجع الى وجود جبل قريب من البحر يتصـاعد منه اللهب وتتدفق الأبخرة الساخنة ، ولكن الشيوخ الذين يقيمون فى هنغاريا وغاليسيا يعلمون ما لايعلم هؤلاء ، فهم يقولون : ان العلة تكمن فى هذا الميت الذى نما واستطال فى جوف الأرض ، فاذا حاول ان يقوم زلزلت الأرض زلزالها .

— ١٦ —

اجتمعت زحمة من الناس حول عازف البندورة العجوز فى مدينة جلوكوف ، وراحت تنصت ساعة الى عزف هذا الرجل الأعمى ، الذى لا نظير له فى العزف على البندورة وانشاد الأغانى العجيبة ، وتغنى الرجل اولا بحكم زعماء القوزاق فى الأيام الخالية كما تغنى بحكم السفايداشنى والخملنتسكى . لقـد كانت الأيام غير الأيام ، وكان القوزاق وقتئذ فى عز مجدهم يطئون اعداءهم تحت أقدامهم ولا يجرؤ احد على السخرية منهم ، وغنى الشيخ ايضـــا أغانى مرحة ، واخذ يتلفت الى الجماعة كأنما عيناه تبصران ، وانطلقت اصابعه التى ثبت فيها رقائق صغيرة من العظم تتراقص على الأوتار كالذباب ، لقد بدا انها هى نفسها تشـدو بالنغم ، وكان الشيوخ يغضون ابصارهم والشباب يحملقون فى المغنى لايجرءون على الحديث ولو بهمس .

وقال الشيخ : « اصبروا ، ولأنشدن لكم قصـة من قصص الغابرين » ، وازداد القوم منه دنوا ، وانشد الأعمى يغنى :

« فى ايام ستيفان امير ترانسيلفانيا وملك البولنديين ، كان يعيش قوزاقيان : ايفان وبترو ، واقام الفتيان معا كالأخوين ، وقال بترو

لصاحبه : اسمع يا ايفان ، فلنقتسم كل ما نجنيه من ربح ، فاذا حل بأحدنا فرح شاركه صاحبه فى فرحه ، واذا الم به حزن حزن من أجله ، واذا غنم غنيمة شاطره اياها ، واذا وقع فى الأسر باع كل ما يملك يفتديه به او القى بنفسه فى الأسر معه . والحق ان القوزاقيين كانا يقتسمان كل ما يكسبانه ، فاذا وقع فى ايديهما قطيع من الماشية او الجياد اخذ كل نصيبه لا ينقص عن الآخر أو يزيد.

* * *

« وشهر الملك ستيفان الحرب على الترك ، وظل يقاتل ثلاثة اسابيع لايستطيع لهم طردا ، وكان للترك باشا يستطيع فى نفر من الانكشارية ان ينكل بكتيبة من الجند بأكملها تنكيلا ، فلما راى الملك ستيفان ذلك نادى فى الجند ان المقاتل الباسل الذى يأتيه بهذا الباشا ينفحه جائزة تساوى راتب الجيش كله » .

وقال ايفان لبترو : « لنذهبن ولناته بالباشا يا اخى » ومضى الفتيان القوزاقيان فى رحلتهما ، وذهب كل منهما فى طريق .

« ولم يكن لأحد ان يتكهن : اظافرا يعود بترو ام خائبا ؟ ولكن ايفان ساق الباشا الى الملك وقد طوق عنقه بحبل ، وقال الملك : « احسنت يافتى » وامر بأن يعطى من المال مايساوى راتب الجيش كله ومن الأرض ما يشاء ويختار ، ومن الماشية ما ترضى به نفسه ، وما أن تلقى ايفان من الملك هذه العطية حتى اقتسم المال وبترو ، فأخذ بترو نصفه ، وعز عليه أن يظفر ايفان بكل هذا التكريم من الملك وطوى صدره على رغبة فى الانتقام » .

* * *

« ومضى القوزاقيان يسيران ميممين شطر الأرض التى افاءها الملك على ايفان فيما وراء جبال الكربات ، واركب ايفان ابنه على ظهر الجواد خلفه ، وشده اليه برباط ، ودهمهم الليل وهم ماضون فى الطريق ، واخذت الطفل سنة من النوم ، وبدا النعاس يداعب جفون ايفان : لا تنم ايها القوزاقى ، فان مسالك الجبل مخوفة ! ولكن جواد القوزاقى كان يعرف الطريق لا تزل قدمه ولا تتعثر ، وكان بين الجبال هاوية لا يعلم مستقرها ، الذى يبلغ عمقه ما بين السماء والأرض ، الا الله ، وكان الطريق يمر فوقها مباشرة ،

لايسير فيه الرجلان الا جنبا الى جنب ، فان كانوا ثلاثة ضاق بهم كل الضيق . واخذ الجواد يخطو فى حـذر وعلى ظهـره القوزاقى الوسنان ، وسـار بترو بجواره الى جانبه ، وشـاعت الرعدة فى اوصال بترو جميعا وتقطعت انفاسه من فرط السرور ، وتلفتحوله ثم دفع صاحبه الذى آخاه ، فسقط الجواد فى الهاوية وعلى ظهره القوزاقى والطفل جميعا .

« ولكن ايفان تعلق بغصن فلم يهو الى القـاع الا الجواد ، واخذ يتسلق الهاوية حاملا ابنه فوق ظهره ، وما ان اشرف على حافة الهاوية حتى رفع بصره ، فراى بترو ممسكا برمح وقد تهيأ لدفعه الى الهاوية ، فهتف : « رحماك يا رب ، تمنيت أن تغض منى البصر ما حييت ولا أرى اخى يتربص لى برمح يدفعنى به الى الهاوية ! أخى العزيز ! ان كان هذا نصيبى فانفذ فى رمحك ، ولكن ما ذنب هذا الطفل البرىء حتى ينزل به هذا البلاء العظيم ؟ » ، فضحك بترو ودفعه بالرمح فسقط القوزاقى هو وطفله الى قاع الهاوية ، واستولى بترو على ثروته كلها ، واخذ يعيش عيشة الباشوات لا يملك احد ما يملكه من خيل حاشدة ، ولا يدانيه احد فيما يقتنى من قطعان الماشية ، ثم عدا الموت على بترو .

***

« وما أن قضى بترو حتى دعا الله ـ روحى الأخوين ايفان وبترو فمثلتا بين يديه ، تقدمان الحساب ، وقال الله : « ان هذا الرجل لمجرم اثيم ، يا ايفان لسوف يمضى وقت طويل قبل أن اجد له ما يستحق من جزاء ، فاختر له انت الجزاء ! » وفكر ايفان طويلا : اى جزاء يختار ، ثم قال :

« لقد اصابنى هذا الرجل ببلاء عظيم ، وسلك مسلك يهوذا فحرم اخاه ذريته الشريفة ، وما مثل الرجل يحرم ذريته الشريفة الا كمثل حبة القمح يلقى بها فى الأرض ، فتذهب هباء ، فان هى لم تنبت عز على الناس أن يعرفوا انه قد القى بها فى الأرض » .

« فاللهم اكتب على ذريته الا يذوق منهم احد طعم السعادة فى هذه الدنيا ، وان يكون آخرهم شر ما رأت العين من الخاطئين لا يقترف ذنبا الا تململ اجداده فى قبورهم حتى اذا ذاقوا من العذاب ما لم يذقه احد من الأحياء قاموا من قبورهم يسعون ! اما بترو هذا الذى خان

العهد والميثاق ، فاللهم اكتب عليه ان يعجز عن القيام من قبره وان يلقى فيه اشد النكال ، فيعض الأرض كالمجنون ، ويتلوى من الألم تحت الثرى ! » .

***

« فاذا حان الحين ، وبلغت شرور هذا الرجل غايتها فاخرجنى يا كريم على ظهر جوادى من قمة الهاوية الى اعلى قنة فى الجبـــال ، وابعث به الى فالقى به من تلك القنة الى اعمق الوهاد طرا وارسل اجداده جميعا من كل فج من فجاج الأرض عاشوا فيه ، واطلقهم ينشبوا اسنانهم فيه جزاء مالقوا على يديه من عذاب ، ودعهم ينهشوه الى أبد الآبدين حتى ينشرح خاطرى وأنا اراه يسأم العذاب اشكالا والوانا ، واكتب على بترو ، هذا الذى خان العهد الا يقوم من قبره ، والق فى قلبه شـــهوة النهش ، ولينقلبن على طول الزمن حتى يزداد عذابه ، وسلط عليه من النكال ما لم يذقه احد من قبله ولا من بعده ، فما من عذاب اقسى على المرء من تعطشه الى الانتقام وقصور يده عنه »

***

فقال الله : « ايه ايها الانسان ، ما افظع الجزاء الذى هداك اليه عقلك ! ولتستوين الى الأبد على ظهر جوادك ، فلا تبرح المكان الذى اخترت ، ولكن ملكوت السماء قد اوصد دونك ! » وتم له ما اراد ، ولا يزال هـــذا الفارس الغريب مستويا على ظهر جواده الأصيل فى جبال الكربات يشاهد الموتى يفترسون الجثة فى الهاوية التى ليس لها قرار ويحس بجثة الرجل الميت تتضخم وتتضخم تحت الثرى ، ويراه وهو يقضم عظامه ، ويتعذب اشد العذاب ويزلزل الأرض زلزالا تنخلع له القلوب » .

***

وفرغ الأعمى من انشاد قصته وراح يضرب الأوتار مرة اخرى ، ويتغنى بمدائح مضحكة تدور حول فوما وبيريما وستكليار ستوكوزا ، واستبدت النشوة بمستمعيه شبابا وشيوخا فلم يفيقوا من احلامهم ، وظلوا خشعا يتدبرون فى هـــذه القصة الفظيعة من قصص الأيام الخالية .

ايفان فيودوروفتش شبونكا وخالته

ايفان فيودوروفتش شبونكا وخالته

ان لهذه القصة قصة رواها لنا ستيبان ايفانوفتش كوروشكا الذى وفد علينا من جادياخ ، ولا شك انك تعلم أن ذاكرتى ضعيفة كل الضعف ، ويستوى عندى أن تقص على شيئا او لا تقص ، فهى كالغربال تلقى فيه الماء . وقد حملنى احساسى بهذا الضعف الى ان اطلب منه عامدا ان يسجل هذه القصة فى مفكرة ، وهب الله له الصحة والعافية ، فقد كان دائما كريما معى ، وشمر ستيبان عن ساعده وسجلها ، ثم وضعها فى المنضدة الصغيرة ، وانى لأحسب انكم تعرفونها ، فهى تقوم فى الركن الذى تقع عليه أعينكم حين تدخلون من الباب ، ولكننى نسيت أنكم لم تطئوا منزلى من قبل ، ولا جدوى من انكار ان زوجتى العجوز التى عشت معها ثلاثين عاما لم تتعلم القراءة . وقد لاحظت أنها تخبز الفطائر على ضرب من الورق ، وهى تجيد خبزها أيها القراء الأعزاء ، وانا زعيم بأنكم لن تجدوا خيرا منها فى اى مكان . وقد اتفق لى أن نظرت الى فطيرة من تحت ، فماذا وجدت ؟ وجدت كلمات مكتوبة : فمضيت الى المنضدة كأنما هتف بى هاتف ان افعل ، فلم اجد فيها الا نصف الكتاب ! فماذا كنت اصنع ؟ اليس من الحمق ان نتشاجر فى مثل هذه السن ؟

وحدث أن كنت مارا بمدينة جادياخ فى العام الماضى ، وقبل أن أبلغ المدينة ربطت عن عمد عقدة فى منديلى حتى لا انسى سؤال ستيبان ايفانوفتش عن القصة ، ولم يك هذا كل ما فى الأمر ، فقد كنت عاهدت نفسى بألا اعطس فى المدينة الا ذكرت ما صحت عليه نيتى ، ولم يأت ذلك كله بثمرة ، فقد ركبت عربة اجتزت بها المدينة وعطست ، بل مخطت ، ثم نسيت ، ولم افكر فى القصة الا بعد ان تجاوزت باب المدينة بنحو ستة فيرستات أو نحوها ، وكان ما ليس منه بد ، اكرهت على طبع القصة دون الخاتمة على انه اذا شاء احدكم أن يعرف على وجه

الخصوص ما انقطع من حوادث القصة فما عليه الا أن يقصد الى جادياخ ويسأل عن ستيبان ايفانوفتش ، ولسوف يسره ان يروى له القصة ، وانا زعيم بأنه لن يسوءه ان يبدأ من أولها ، وهو يقيم غير بعيد من الكنيسة المشيدة بالآجر ، فالى جوار هذه الكنيسة زقاق صغير ما أن تنعطف فيه حتى تجد باب بيته هو الثانى او الثالث .

وخير من هذا وذاك أن تمضى فى طريقك حتى تجد فناء انتصب فيه قائم كبير يقوم فوقه طائر من طيور السلوى ، وتخرج منه فلاحة بدينة فى نقبة خضراء (وجدير بنا ان نذكر أيضا أن الرجل عزب) تسعى للقائك ، ومن يدرى ؟ لعلك تلقاه فى السوق حيث يشاهدكل صباح قبل التاسعة ينتقى السمك والخضر لمائدته ويتحدث مع الأب انتيب أو المقاول اليهودى فان رايته عرفته لتوك ، ومن ذا الذى يلبس السروال المصنوع من الكتان الملون او السترة القطنية الصفراء سواه ؟ وقد تعرفه بشىء آخر ، فقد الف أن يطوح ذراعيه فى مسيره ، وكان دنيس بتروفتش ، مساعد القاضى الراحل ، اذا رآه قادما من بعيد قال : « أنظروا فها هى ذى طوحونتنا مقبلة علينا ! » .

— ١ —

ايفان فيودوروفتش شبونكا

مضت اربع سنوات على اعتزال ايفان فيودوروفتش خدمة الجيش ، وجاء الرجل ليقيم فى مزرعته بفيتريبنكى ، وقد التحق وهو بعد حدث يسمى فانيوشا ، بمدرسة ناحية جادياخ ، ولست انسى انه كان غلاما جم الأدب مجدا ، وقد جرى مدرس النحو الروسى نيكيفور نيموفيتش ديبريتشا ستى (*) ، على القول بأنه لو كان جميع الصبيان يبذلون فى الدرس قصارى جهدهم كما يفعل شبونكا ما حمل معه الى الفصل المسطرة المصنوعة من خشب الاسفندان ، وراح — على حد قوله — يضرب بها أيدى الكسالى والخبثاء من الصبية حتى كل ساعده . وكانت كراسة شبونكا نظيفة دائما مسطرة الهوامش لا تجد فى موضع منها اية بقعة وان هانت ، وجرى الغلام على أن يجلس هادئا ساكنا

(*) ظرف مشتق من الفعل فى الروسية

مشبك الذراعين لا يحول عينيه عن المدرس ، ولم يلجأ قط الى الصاق قصاصات الورق على ظهر الغلام الذى يجلس أمامه ، ولا انقطع عن الصف مرة أو دفع الصبية الآخرين فأخرجهم منـــه قبل أن يدخل المدرس . وما أحس تلميذ بحاجة الى مبراة يصلح بها قلمه الا بادر الى ايفان فيودوروفتش وهو عليم بأن جعبته لا تخلو منها دائما ، فيخرج ايفان فيودوروفتش ــ أو فانيوشا فحسب ، كما كان يلقب فى ذلك الحين ــ مطواته من صندوق جلدى صغير مثبت فى عروة من عرى سترته الرمادية ، ولا يطلب من السائل الا شيئا واحدا هو الا يستعمل الحد المرهف لحك القلم منبها اياه ان ثمة حدا مثلوما جعل لهـــذا الغرض . وسرعان ما استرعى هذا المسلك الحميد نظر مدرس اللاتينية الذى كان سعاله فى الدهليز خليقا بأن يلقى الرعب فى قلوب تلاميذ الفصل كله ، قبل أن تطل من الباب سترته المصنوعة من الصوف الخشن ووجهه المجدور . وقد بادر هذا المدرس المخيف ، الذى ألف أن يحتفظ دائما بحزمتين من المقارع على مكتبه ويسوق نصف تلاميذه الى الجثو على ركبهم ، فاتخذ من ايفان فيودوروفتش عريفا للفصل ، على الرغم من ان كثيرا من تلاميذ الفصل كانوا يفوقونه قدرة وكفاية .

أما وقد بلغت فى رواية القصة هذا الحد فليس يجدر بى أن أغفل حادثة اثرت فى مستقبل ايامه كلها ، فقد حاول أحد الصبية الذين وكل اليه الاشراف عليهم ان يحمل العريف على احسان الشهادة فيه بالرغم من انه لم يكن قد حفظ درسه ، فأتى الى الفصل بكعكة غارقة فى الزبد ملفوفة بالورق ، وكان ايفان فيودوروفتش حريصا على اداء الواجب فى معظم الأحيان ، الا أنه كان هذه المرة جائعا ، فعجز عن مقاومة الاغراء ، واخذ الكعكة وامسك بكتاب رفعه امام وجهه وراح يأكل ، وشغل باله بهذا الأمر ، وفاته أن الفصل قد خيم عليه سكون رهيب أشبه بسكون القبور ، ولم يفق الى نفسه مروع اللب فزعا الا حينما امتدت يد من معطف من الصـــوف الخشن وامسكت به من اذنه وجرته الى وسط الغرفة ، وقال المعلم المخيف : « الى بهـــذه الكعكة ! الى بها ، الا تسمع ؟ أعطنيها أيها الوغد ! » .

وامسك بالكعكة الغارقة فى الزبد بين أصابعه ، وألقى بهـا من النافذة ناهيا الصبية فى حزم الا يلحقوا بها سراعا يلتمسونها فى الفناء ،

ثم أخذ يضرب ايفان فيودوروفتش ضربا أليما موجعا على يديه ، وكان فى ذلك محقا كل الحق ، فقد كانت اليدان دون سواهما من اعضاء جسمه المسئولتين عن أخذ الكعكة ومهما يكن من شيء فان الحياء الذى عرف به دائما أخذ يزداد ملحوظة منذ ذلك الحين ، ولعل هذا السبب نفسه هو الذى جعله لا يشعر ابدا بالرغبة فى الالتحاق بخدمة الحكومة، فقد علمته الأيام أن المرء لا يفلح دائما فى اخفاء مساويه .

وكان الفتى قد اشرف على الخامسة عشرة من عمره عندما انتقل الى السنة الثانية ، فترك قواعد الحساب الأربع ودرس الدين ، ودخل فى المسائل المطولة وكتاب واجبات الانسان والكسور ، ولكنه رأى ، كما يقولون ، انه كلما اوغل فى الغابة ازدادت كثافة . وتلقى نبأ بأن أباه قد فارق الحياة ، فلم يبق فى المدرسة الا سنتين أخريين ، ثم التحق بفرقة المشاة برضاء أمه .

ولم تكن هذه الفرقة قط من الطبقة التى ينتمى اليها كثير من فرق المشاة ، وكانت تعسكر فى أماكن ريفية ، الا أنها لم تكن تقل قط عن كثير من فرق الفرسان . وكان معظم الضباط يشربون الكحول صرفا ، ويجيدون جر اليهود من خصلات شعرهم اجادة الفرسان لذلك ، وكان بعضهم يرقص المازوركا أيضا ، ولم يترك قائد الفرقة فرصة الا انتهزها وذكر هذه الحقيقة اذا تحدث مع أى انسان من علية القوم ، وكان يقول وهو يربت على بطنه بعد كل كلمة : « ان بعض ضباطى يرقصون المازوركا ، بل ان عدد من يرقصونها منهم لكبير ، كبيرا جدا » ، ولو شئنا أن نبين لقرائنا مبلغ ما وصلت اليه الفرقة من ثقافة لتعين علينا ان نذكر فوق ما ذكرنا أن اثنين من الضباط كانا مغرمين بلعب الورق . وقد ألفا أن يقامرا بسترتيهما الرسمية وقبعتيهما وحمالتى سيفيهما بل بملابسهما الداخلية ، وهذا أكثر ما يمكن أن تجد فى فرقة من فرق الخيالة نفسها .

على أن اتصال ايفان بمثل هؤلاء الزملاء لم يخفف من حيائه ، أما وقد كان لا يشرب الكحول صرفا ، مؤثرا عليه احتساء قدح مملوء بالفودكا المألوفة قبل الغذاء والعشاء ، ولا يرقص المازوركا أو يلعب الورق ، فقد ألف بطبيعة الحال أن ينفرد بنفسه دائما ، وهكذا كان يتفق أن يخرج بقية زملائه يمتطون ظهور جياد استأجروها ويمضون

وقته فى شـــئون لا تطيب الا لمثله من ذوى الخلق الرضى والنفوس لزيارة اصحاب الاراضى الصغار ، على حين يخلد ايفان الى داره وينفق الوادعة ، ويروح يصقل ازراره أو يقرأ كتابا من كتب الطوالع ، او ينصب الفخاخ للفيران فى اركان غرفته أو يخلع سترته الرســـمية ويستلقى على فراشه .

زد على انه لم يكن فى الفرقة أحد اكثر مواظبة على اداء واجباته من ايفان فيودوروفتش ، وكان يحسن تدريب فصيلته حتى ان قائد سريته كان يعده دائما مثالا يود لو احتذاه بقية زملائه ، ولذلك لم يمض عليه وقت طويل ، اجل لم يمض على ترقيته الى رتبة الصول الا احد عشر عاما فقط ، حتى رقى الى رتبة الملازم الثانى .

وتلقى فى هذه الأثناء انباء تقول : ان امه قد ماتت وان خالته ــ ولم يكن يعرفها الا مما سمع به من انها نشأته وهو بعد طفل ، وانها ارسلت له وهو فى جادياخ الكمثرى الجافة وكعك الشهد اللذيذ الشهى الذى كانت تصنعه بنفسها (وكانت على علاقة سيئة بأمه ، وهذا هو السبب فى أن ايفان فيودوروفتش لم يرها فى السنوات الأخيرة) ــ اجل خالته هذه قد تعهدت ، بما جبلت عليه من طيبة النفس ، بالسهر على ضيعته، وبعثت اليه فى حينه خطابا تنبئه بذلك .

ومضى ايفان فيودوروفتش فى اداء واجبات وظيفته كشأنه واثقا كل الثقة بحسن ادراك خالته . ولو كان ايفان كبعض الرجال الآخرين الذين هم فى مثل مركزه لأدارت عقله هذه الترقية . على انه كان لا يعرف للاختيال والزهو معنى ولا طعما ، فقد ظل فى رتبة الملازم الثانى كما كان فى رتبة الصول هو هو ايفان لم يتغير ولم يتبدل ، وقضى اربع سنوات أخرى فى الفرقة بعد ذلك الحادث الذى كان له شأن عظيم فى حياته ، وما هم بالنزوح هو وفرقته من ولاية موجيليوف الى روسيا العظمى حتى تلقى الخطاب التالى :

« ابن اختى العزيز ايفان فيودوروفتش :

انى لأبعث اليك بشىء من نسيج الكتان ، خمسة جوارب مشغولة بالابرة وأربعة قمصان من الكتان الهفهاف ، ثم انى أريد ان اتحدث اليك فى امر ذى بال ، اما وقد نلت رتبة لهـا شأنها ــ وانى لأحسب انك تعى هذا وتدركه ــ وبلغت سنا تؤهلك الى تولى شئون مزرعتك

بنفسك ، فما من سبب يدعوك الى البقاء فى الخدمة العسكرية ، وانى لأشعر بأن السن قد تقدمت بى حتى أصبحت عاجزة عن القيام بأمر من امور مزرعتك ، ولدى والحق يقال ، امور كثيرة اود ان اتحدث بشأنها معك شخصيا .

« تعال يا فانيوشا ! وانى اذ اتطلع ببالغ السرور الى رؤيتك لأبعث اليك بخالص تحياتى ،

خالتك الودود المحبة

(فاسيليا تسوبشفسكا)

حاشية : فى حديقة خضرنا لفت عجيب ، يبدو للأنظار على ما فيه من غرابة غريبة اقرب الى البطاطس منه الى اللفت .

وكتب ايفـــان فيودوروفتش الى خالته ، بعد تلقية خطابها هذا بأسبوع ، الرد التالى :

« سيدتى المحترمة الخالة العزيزة فاسيليا كاشبوروفنا : اشكرك كل الشكر على ما بعثت الى من منسوج الكتان ، فقد كان الدهر قد اكل وشرب على جواربى خاصة ، وراح الجندى المعين لخدمتى يرفوها مرة فى اثر مرة ، فما أن اتم المرة الرابعة حتى ضاقت على كل الضيق ، اما آراؤك التى ابديتها بشأن خدمتى فى الجيش فانى اوافقك عليهـا كل الموافقة ، وقد ارسلت اول امس أوراق اعفائى . وما ان اتلقى امرا باعفائى حتى ابادر باســـتئجار عربة . واما ما كلفتنى اياه من الحصول على قمح من السلالة السيبيرية فقد عجزت عن اجابتك الى طلبك ، وليس فى ولاية موجيليوف كلها شىء من هذه البذور ، واما الخنازير التى هنا فكلها يتغذى على كسب مصانع الجعة وقليل من الجعة التى يفسد طعمها .

وارجو ان تقبلى يا سيدتى الجليلة والخالة العزيزة عظيم احترامى ،

ابن اختك

(ايفان شبونكا) »

وتلقى ايفان فيودوروفتش اخيرا الأمر باعفائه من خدمة الجيش برتبة الملازم ، فاستأجر يهوديا ينقله بعربته من موجيليوف الى جادياخ ونقده أربعين روبلا ، ومضى فى رحلته حين اكتست الأشجار بأوراق

KMH

قليلة غضة ، وتألق اديم الارض بالخضرة اليانعة وعبقت الحقول بعبير الربيع .

- ٢ -

الرحلة

ولم يقع خلال الرحلة شيء ذو بال ، ومضى الرجلان فى رحلتهما اياما تزيد قليلا على اسبوعين ، وقد كان ايفان فيودوروفتش خليقا بأن يبلغ مقصوده فى زمن أقصر من ذلك قليلا ، لولا ان اليهودى كان يقيم السبت من كل اسبوع ، فيطرح على راسه غطاء جواده ويخلد الى التعبد طوال اليوم . على ان ايفان فيودوروفتش كان ، على ما واتتنى الفرصة وذكرت من قبل ، رجلا لا يستسلم للملالة او السأم ، فاذا حل به وقت كمثل هذا الوقت ، فتح صندوق ثيابه واخرج ملابسه الداخلية وراح يفتش فيها جيدا حتى يطمئن باله الى انها غسلت وطويت على الوجه الأكمل ، وينزع الزغب فى عناية من حلته العسكرية الجديدة التى خلت فى صنعها من الشريط المقصب يعلو كتفيها ، ثم يعود فيطوى هذا كله فى الصندوق على احسن وجه ممكن . ولم يكن صاحبنا مغرما بالقراءة ، فاذا اتفق ونظر فى كتاب من كتب الطوالع فانما يفعل ذلك لانه يريد ان يعود الى قراءة ما قرأه من قبل عدة مرات ، وهذا هو شأن الرجل الذى يقيم فى المدينة يذهب الى النـــادى كل يوم لا ليسمع جديدا ، بل ليلقى اصدقاء الف ان يجاذبهم اطراف الحديث منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، وشأن الكاتب فى دواوين الحكومة يقرأ دليل العناوين عدة مرات فى اليوم مغتبطا اشد الاغتباط لا لشيء الا ما تعود عليه من قوائم الأسماء المطبوعة من تسلية ، ويغمغم بينه وبين نفسه ، قائلا : « آه ! ايفان جافريلوفتش ... الخ ! ، وها هو ذا اسمى مثبتا هنا ! وى ! وى ! » ، ثم يعود فيقرأ القائمة مرة اخرى مبديا ما سبق ان ابداه من علامات التعجب بلا خلاف .

وبلغ ايفان فيودوروفتش يوم جمعة قرية صغيرة على مسيرة مائة فيرست من جادياخ ، بعـــد ان انفق فى رحلته اسبوعين ، وكانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل حين وصل هو واليهودى والعربة الى احد الخانات .

ولم يكن الخان يختلف فى شىء عن غيره من الخانات القروية المألوفة فى القرية ، وقد جرى أرباب هذه الخانات على اكرام المسافر اكراما لا مزيد عليه ، فيقدمون له الدريس والشوفان كأنه جواد من جياد المراحل ، فاذا أراد أن يصيب من الغذاء ما يصيب القوم من أهل الوقار والاحترام فما عليه الا أن يرد شهيته حتى يتهيأ له ذلك فى فرصة مقبلة . وكان ايفان فيودوروفتش يعلم كل هذا ، فتزود مقدما بحزمتين من حلقات الخبز وحلقة من المقانق وطلب قدحا من الفودكا التى لا يخلو منها أى خان ، وراح يتناول عشاءه فجلس على أريكة ، وضعت أمامها منضدة من السنديان ثبتت فى اديم الأرض الصلصالية تثبيتا مكينا .

وطرقت اذنيه فى هذه الأثناء قرقعة عربة ، وسمع صرير الأبواب ، ومضى وقت طويل قبل أن تدخل العربة الفناء ، وانطلق فى الجو صوت مجلجل طفق ينهر صاحبة الخان العجوز . وسمع ايفان فيودوروفتش شخصا يهتف بها قائلا : « لأدخلن خانك ، فاذا عضتنى فيه قطة واحدة فقسما بالله لأضربنك ، أجل لأضربنك أيتها الساحرة الشمطاء ! ولن أعطيك مقابل الدريس ! » .

وانفتح الباب بعد لحظة وولجه ، أو قل حشر نفسه فيه حشرا ، رجل بدين يرتدى سترة رسمية خضراء ، وقد ثبت رأسه لا يريم فوق عنقه القصير الذى بدا للأنظار أغلظ وافحل بفضل ما علاه من ذقن مزدوج ، وكان مظهر الرجل يدل على أنه من ذلك الطراز من الناس الذين يحفلون بتوافه الأمور والذين سارت حياتهم كلها سيرا رفيقا رضيا .

ورأى الرجل ايفـــان فيودوروفتش فقال : « أسعد الله يومك يا سيدى ! » .

وانحنى ايفان فيودوروفتش فى صمت .

ومضى الوافد الجديد يقول : « هل لى ان أسأل من ذا الذى أتيح لى شرف التحدث اليه ؟ » .

وما أن سمع ايفان فيودوروفتش قوله حتى نهض على كره منه ووقف وقفة انتباه كشأنه اذا وجه اليه قائد الفرقة سؤالا ، وأجابه قائلا :

« الملازم المتقاعد فيودوروفتش شبوتكا » .

« افلا تسمح لى بأن اسأل اى مكان تقصد ؟ » .

« مزرعتى فى فيتربنكى » .

وهتف السائل الفظ « فيتربنكى ! » ، ثم أردف وهو يتجه اليه ملوحا بذراعيه كأنما يقف فى سبيله أحد أو يشق طريقه شقا فى زحمة الناس : « اسمح لى يا سيدى ، اسمح لى ! » راقبل على ايفـــان فيودوروفتش وطوقه بذراعيه ، ثم طبع قبلة على خده الأيمن وقبله على خده الأيسر ، ثم عاد وطبع قبلة ثالثة على خده الأيمن . وسر ايفان فيودوروفتش كثيرا بهذه التحيـــة لأن خدى الغريب الممتلئتين كانا لشفتيه كالوسادتين الناعمتين .

واسترسل الرجل البدين يقـــول : « اسمح لى ان أقدم نفسى يا سيدى ! فأنا جارك وأحد أصـــحاب الأراضى فى ناحية جادياخ نفسها ، اقيم فى قرية خورتشه ، والمسافة بينها وبين فيتربنكى لا تتجـــاوز خمسة فيرستات ، واسمى جريجورى جريجورييفتش ستورتشينكو ، وقد حقت عليك زيارتى ، فى خورتشه ، ولن أعود الى التحدث اليك ان لم تفعل ، واني لفى عجلة من أمرى الآن أدبر شأنا من شئون عملى » ، ثم مضى يقول فى صوت رقيق مخاطبا سائس خيوله : « وى ! ما هذا ؟ » ، وكان هذا السائس غلاما يرتدى سترة قوزاقية رتقت عند المرفقين وتبدت الحيرة على ملامحه ، ثم ولج الرجل الغرفة ووضع الحقائب والصناديق على المائدة ، واردف : « ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ » واخذ صوت جريجورى جريجورييفتش يزداد تهديدا ووعيدا وهو يقول : « اوقد قلت لك ان تضعها هنا ايها الغلام الطيب ؟ اوقد قلت لك أن تضعها هنا ايها الوغد ؟ أو لم أقل لك ان تسخن الدجاج اولا ايها اللئيم ؟ » ، ثم صاح وهو يدق الأرض بقدمه « اغرب عنى ! بل صبراً يا وجه القرد ! أين السلة التى وضعت فيها القنانى ؟ » ، وقال وهو يسكب قدحا من الشراب الحلو : « ايفان فيودوروفتش ! هلا تصيب شيئا من هذا الشراب المنعش ! » .

وانشأ ايفان فيودوروفتش يقول فى تردد : « آه ، لا أستطيع ذلك حقا ــ فقد سبق لى أن .... » .

ورفع صاحب الأرض صوته قائلا : « لن أقبل عذرا ! لن أقبل ! ولست بمغادر مكانى حتى تصيب من الشراب شيئا ! » .

ورأى ايفان فيودوروفتش ان الاعتذار من ذلك مستحيل ، فجرع القدح فى شيء من الرضا .

وقال جريجوريفتش وهو يقطع دجاجة ويضعها فى صندوق خشبى : « هذه دجاجة يا سيدى ، ولا اخفيك ان طاهيتى يافدوخا مغرمة بأن تصيب من الخمر من حين الى حين قطرة فقطرة ، فاذا وقعت على شيء فما أكثر ما يجف بين يديها » ، ثم انقلب الى الغلام الذى يرتدى السترة القوزاقية وكان يحمل فراشا ووسائد من الريش ، وهتف قائلا : « ايه يا غلام ! ابسط فراشي على الأرض فى وسط الغرفة ! ولا تنس أن تضع قدرا مليحا من القش تحت الوسادة ! وانزع قطعة من القنب من مغزل المراة اسد بها اذنى اثناء الليل ، ولا اخفيك يا سيدى اننى الفت ان اسد اذنى بالليل منذ ان وقعت لى تلك الحادثة الملعونة التى تسلل فيها صرصور الى اذنى اليسرى فى خان روسى . ان اصحاب اللحى المسترسلة لقوم تهوشت عقولهم على ما تبينت بعد ، فحتى المرق يحتسونه والصراصير تجرى فيه ! وهيهات ان اصف لك ما حل بى من هذا الصرصور ، فقد احسست فى أذنى بدغدغة ، دغدغة شديدة ، كدت افقد معها عقلى ، وقد شفتنى عجوز ساذجة من ناحيتنا ، أفلا تعلم كيف فعلت عذا ؟ لقد سحرته سحرا فبرز لها ، ولم يقتض منها ذلك الا الهمس ، والهمس فحسب ، فما قولك يا سيدى فى الأطباء ؟ انى لاحسب انهم يخدعوننا ويسخرون منا ، وقد تعرف عجوز من النساء فى بعض الأحيان ما لا يعرف كل هؤلاء الأطباء عشر معشاره ! » .

« لعمرى ان ما تقول يا سيدى لهو عين الحق ، وما من ريب فى أن ثمة حالات ... » ثم أمسك ايفان كأنما عجز عن التماس الكلام المناسب .

وقد يكون لنا بعض العذر اذا ذكرنا فى هذا المقام ان ايفان لم يكن قط يميل الى كثرة الكلام ، ولعل ذلك يعود الى حياته أو رغبته فى التعبير عما يريد بأسلوب طلى شائق .

وهتف جريجوريفتش لخادمه : « هز القش جيدا ، هزه جيدا ! ان القش فى هذا الخان غاية فى الرداءة ، وليس ببعيد أن تجد فيه علوجا فى اية لحظة . اسمح لى يا سيدى بأن ارجو لك ليلة طيبة !

فاننا لن نلتقى غدا ، فقد عزمت على الرحيل قبل بزوغ الفجر ، انغدا السبت ولسوف يخلد فيه صاحبك اليهودى الى العبادة،وما من حاجة تدعوك الى الاستيقاظ مبكرا . لا تنس دعوتى ، ولن يخاطب لسانى لسانك الا اذا اتيت لزيارتى فى خورتشه » .

وما ان فرغ جريجورى جريجورييفتش من قوله حتى بادر غلامه ، فخلع سترة سيده وحذاءه المرتفع وألبسه منامته ، وتمدد جريجورى جريجورييفتش على فراشه فبدا كفراش ضخم من الريش القى به على فراش آخر .

« ايه يا غلام ! أين انت ايها الوغد ؟ تعال هنا ورتب لحافى ايه يا غلام ! ضع شيئا من القش تحت رأسى حتى يرتفع ! أو سقيت الجياد أو لم تسقها بعد ؟ زدنى قشا ! هنا ، تحت هذا الجانب ! ورتب اللحاف جيدا ايها الوغد ! أحسنت وأكثر من هذا ، اف ! » .

وتنهد جريجورى جريجورييفتش مرتين ثم أطلق من انفه صفيرا مزعجا ملأ أرجاء الغرفة ، وكان فى بعض الأحيان يغط غطيطا عاليا تستيقظ له العجوز فجأة من غفوتها على اريكة الموقد ، ثم تحملق حولها فى دهشة ، فلا ترى شيئا ، فيهدأ بالها ثم تستسلم للنوم مرة اخرى .

واستيقظ ايفان فيودوروفتش فى صبيحة اليوم التالى ، فوجد صاحب الأرض البدين قد رحل ، وكان هذا الحادث هو الحادث الوحيد الجدير بالذكر فيما وقع لبطل قصتنا أثناء رحلته . واقترب ايفان بعد يومين من مزرعته الصغيرة .

واحس بقلبه يجيش عندما أطلت عليه الطاحونة ملوحة بأذرعها ، وراح اليهودى يسوق جياده الهرمة مصعدا فى التل ، ولاح لعينايفان ذلك الصف من شجر الدلب يربض تحت الطاحونة ، وتألقت البركة تألقا من خلال الاشجار ، وهب منها نسيم عليل ، وهنالك الف ايفان ان يستحم فى سابق ايامه ويخوض فيها مع أولاد الفلاحين حتى يبلغ الماء عنقه سعيا وراء الاربيان (الجمبرى) ، وارتقت العربة الجسر فرأى ايفان فيودوروفتش البيت العتيق الصغير المسقف بالقصب، واشجار التفاح والكرز التى كان يتسلقها خفية ، وما ان دخلبالعربة الفناء حتى هرعت الكلاب من كل حدب وصوب على اختلاف الوانها

من عسلى الى اسود ورمادى ومنقط ، وجرى بعضها تحت حوافر الجواد ينبح ، وجرى بعضها الآخر خلف العربة بعد ان اكتشفت ان الدنجل قد لطخ بدهن الخنزير . وكان واحد من الكلاب يقف بالقرب من المطبخ واضعا قدمه على قطعة من العظم فأطلق نباحا متصلا مدويا ، واخرج كلب آخر لسانه عن بعد ، وراح يركض هنا وهناك ، ويهز ذيله كأنه يقول : « انظروا ايها المسيحيون الصالحون! اى فتى ظريف انا ! » ، واسرع صبية يرتدون القمصان القذرة يتفرسون فى وجوه القادمين ، وكان بالفناء خنزيرة تتجول هى وصغارها الستة عشر ، فرفعت خطمها فى فضول ، واخذت تقبع قباعا اعلى مما الفت ، وفرش على اديم الفناء عدد من الملاءات المصنوعة من القنب تغطت بالقمح والاذرة والشعير تجفف فى الشمس ،وبسطت فوق السقف انواع مختلفة كثيرة من الاعشاب ، كالشكوريا البرية وحشيشة الخنزير ، حتى تجف .

وشغل بال ايفان فيودوروفتش بالتأمل فى هذا كله ، ولم يفق من سباته الا عندما عض كلب ارقط اليهودى فى بطن ساقه وهو يترجل عن مقعده فى العربة ، وهرعت الخادمات ، ونعنى بهن الطاهية وامراة اخرى وفتاتين كانتا ترتديان نقبتين مصنوعتين من الصوف ، وهتفن : « وى ! انه سيدنا الصغير ! ، ثم رحن يحدثنه قائلات : ان خالته تبذر بذور الحنطة الحلوة هى والفتاة بالاشكا واوميلكو الحوذى الذى كان يعمل فى كثير من الأحيان عمل البستانى والحارس جميعا » على ان خالته اقبلت اذ رات العربة عن بعد ، وانتاب الذهول ايفان فيودوروفتش حين رفعته خالته عن الارض بين ذراعيها أو كادت ، وعز عليه أن يصدق انها هى الخالة التى كتبت له متحدثة عن شيخوختها واسقامها .

ـ ٣ ـ

الخالة العزيزة

كانت الخالة فاسيليا كاشبوروفنا قد بلغت فى ذلك الوقت الخمسين من عمرها او كادت ، ولم يسبق لها زواج قط ، فقد

جرت على القول بأن العذرية عندها فوق كل شيء آخر . على اننى اذكر حقا انه لم يغازلها احد ، ذلك انه ما من رجل الا احس فى حضرتها بشيء من الحياء ، ولم يجد واحد منهم من الشجاعة ما يحمله على ان يطلب يدها ، وقد اجمع الشبان كافة على القول : « بأن فاسيليا كاشبوروفنا فتاة على خلق عظيم ! » وكانوا فى ذلك صادقين اعظم الصدق ، فما من احد الا وقع فى قبضة يدها ، ولا ادل على ذلك من انها ظلت تجذب كل يوم بيديهـــا اللتين تشبهان ايدى الرجال قنزعة صاحب الطاحونة السكير ، حتى استطاعت ان تجعل من هذا الشخص التافه رجلا جم الفضائل كامل الصفات . وقد رزقت هذه الخالة بسطة فى الجسم فبدت كالعمالقة او هى اقرب ، وكانت بدانتها وقوتها تناسبان كل المناسبة قوامها الفارع ، ويظهر ان القدر أخطـأ خطأ جسيما اذ كتب عليها ان ترتدى رداء بنيا داكنا قصير الاهداب فى ايام الراحة ، وشالا من الكشمير الأحمر فى احد الفصح وفى عيـد شفيعها .

وقد كان اولى بها وانسب ان تصطنع شاربا كشارب التنين وحذاء مرتفعا كاحذية الرجال ، ثم ان مشاغلها كانت تتفق مع مظهرها تمام الاتفاق ، فقد كانت تتولى التجديف فى القارب بنفسها ، وتجيده اجادة تزرى باى صياد ، وتصيد الطيور والوحوش ، وتشرف على عمال الحصاد فى اثناء ادائهم عملهم ، وتعرف عـدد البطيخ الذى فى حديقة خضرها ، وتأخذ اتاوة قدرها خمسة كوبيكات عن كل عربة تجتاز جسرها ، وتتسلق الأشجار وتهزها لتسقط ثمار الكمثرى ، وتضرب العمال الكسالى بيدها المخيفة ، وتمد هذه اليد المرعبة نفسها بقدح من الفودكا لمن يستحقونه .

وكانت فى هذه اللحظة نفسها تقريبا تنهر العمال وتصبغ قطـــع النسيج وتهرع الى المطبخ لصنع الجعة الخفيفة والمربى بالشهد . اجل لقد كانت مشغولة اليوم بطوله ، وافلحت فى ان يتم انجاز كل امر فى موعده ، وكانمن اثر عملها هذا أن مزرعة ايفان فيودوروفتش الصغيرة التى كانت تضم ثمانى عشر نفسا بحسب التعداد الأخير ، قد ازدهرت ازدهارا لا مزيد عليه ، ثم انها كانت تحب ابن اختها حبا جما ، وراحت تجمع له المال فى حرص وعناية .

وتغيرت حياة ايفان فيودوروفتش كل التغيير منذ وصوله الى دياره ، واتخذت وجهة جديدة تختلف تماما عما كانت عليه والظاهر انه كان قد فطر بالذات على تولى امور مزرعة تضم ثمانى عشرة نفسا ، ولاحظت الخالة العزيزة نفسها انه سوف يغدو زارعا ممتازا ، وان كانت لم تسمح له بعد بالتدخل فى كل شأن من شئون الادارة فى المزرعة ، فقد ألفت ان تقول « انه لا يزال طفلا ، فانى له ان يعرف كل امر من امورها ؟ » وكان ذلك بالرغم من ان ايفان فيودوروفتش كان وايم الحق قد اشرف على الأربعين .

على انه كان يشاهد دائما فى الحقول بين الحصادين ، ولشد ما كان قلبه يفيض بالسرور اذ يرى اثنى عشر منجلا متألقا او اكثر وهى تحصد الارض حصدا فى تناسق وانسجام ، ويسمع صوت العشب يتساقط فى حشات متساويات ، وأناشيد الحصادين تنطلق بين الفينة والفينة ، فتارة تكون مستبشرة متهللة تهلل المرء يلقى ضيفا ، وتارة تكون محزنة حزن الأحباب عند الفراق ، وينعم بهداة الليل المشرق الصافى ! ... ويا له من ليل ! ويا له من جو طلق عذب ! وما أروع الحياة تدب فى كل شىء فيتوهج الشهب ، ثم يستحيل أزرق داكنا ثم يتألق مزدهيا بحلته المتعددة الألوان ، وتنطلق السلوى والحبارى والنورس والجندب وآلاف من الحشرات تصفر وتطن وتغرد وتتنادى ، ثم لا تلبث أن تمتزج هذه الأصوات جميعا فى نغم واحد متسق .

أجل لقد كان كل شىء يستجيب لداعى الحياة لا يخلد الى السكون ابدا . ثم غربت الشمس فى هذه الأثناء ، آه ، ما كان أعذب الجو وأبهجه ! فقد كان القوم يقيمون نارا هنا وهنالك فى الحقول ، ويضعوا فوقها القدور الكبيرة ، ويحيط بها الحصادون ذوو الشوارب، وينبعث البخار من لقيمات القاضى صاعدا فى الهواء ، وينطفىء وهج الغسق شيئا فشيئا .. وما اشق ان يتبين المرء ما يجيش فى نفس ايفان فيودوروفتش فى مثل هذه الأوقات ، فقد لحق الرجل بالحصادين ونسى ان يتذوق لقيمات القاضى مع فرط حبه لها ، ووقف بلا حراك ، يرقب نورسا يهبط من السماء بعيدا عن الأنظار او بعد حزم القمح التى انتثرت فى الحقول .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى أخذت الألسنة تلهج بأن ايفان فيودوروفتش زارع عظيم ، ولم تكن الخالة العزيزة لتمل من اظهار فرحها بابن أختها ، لا تترك فرصة ألا زهت به وتفاخرت ، وأخذت فاسيليا كاشبوروفنا بذراع ايفان فيودوروفتش ذات يوم ـ وكان ذلك قبيل نهاية الحصاد ، أى فى أواخر يوليو ـ ولم تفصح عما يدور فى نفسها ، وقالت انها تريد التحدث اليه فى أمر طال بها التفكير فيه .

ثم انشأت تقول : « انك لمدرك ياعزيزى ايفان فيودوروفتش ان ثمانية عشر شخصا يعيشون فى مزرعتك وهم فى واقع الأمر يزيدون على ذلك وانكان هذا هو العدد الذى رصد حقا فى سجلات التعداد الأخير ، ومن يدرى ؟ لعل عددهم أربعة وعشرون شخصا ، ولكن ليس هذا بيت القصيد . انك لتعرف الحرجة التى فيما وراء مزرعتنا ، ولاشك انك تعرف المرج الفسيح الذىخلفها ، فهو يشتمل على خمسة وخمسين فدانا أو نحوها ، وعشبه من الجودة بحيث يدر مائة روبل فى السنة ، وخاصة اذا صح ما يقولون : من ان فرقة للغرسان ستعسكر فى جادياخ » .

« أعرف هذا بلا ريب ايتها الخالة العزيزة ! ان عشبه غاية فى الجودة » .

« ما من حاجة تدعوك الى القول بأن عشبه غاية فى الجودة فانى اعلم هذا ، ولكن أتعلم ان هذه الأرض كلها ملكك شرعا ؟ وى ! ما بالك تحملق فى هكذا ؟ استمع الى يا ايفان فيودوروفتش ! اتذكر ستيبان كوزميتش ؟ ولكن كيف بى أوجه اليك مثل هذا السؤال وقد كنت وقتئذ أصغر من ان تستطيع النطق باسمه ؟ أجل لقد كنت صغيرا حقا ! ذلك اننى جئت اليكم ليلة صيام عيد الميلاد بالذات وحملتك بين ذراعى ، فكدت تتلف ثوبى ، ومن حسن التوفيق اننى بادرت فأسلمتك فى اللحظة المناسبة الى مربيتك ماتريونا ، وى ! لقد كنت آنئذ طفلا لا تطاق ! ولكن ليس هذا بيت القصيد ذلك ان الأرض التى وراء مزرعتنا وقرية خوريتشه نفسها كانت مملوكة لستيبان كوزميتش ، ولا أخفيك انه كان قد ألف ان يزور أمك قبل أن تكتحل عيناك برؤية هذه الدنيا ، على انه كان ، وأيم

الحق لا يفعل ذلك الا حين يكون ابوك خارج الدار ، ولست اقول هذا قدحا فيهـــا ـ رحمة الله عليها ! ـ ولو أن المســـكينة كانت تسيء الى دائما ، ولكن ليس هذا بيت القصيد، ذلك ان ستيبان كوزميتش قد وهب لك الأرض التى احدثك عنها بمقتضى وثيقـــة رسمية ، بيد ان امك رحمة الله عليها ـ وليبق ما اقول سرا بينى وبينك ـ كانت امراة غريبة الأطوار الى حد عجيب ، لايستطيـع الشيطان نفسه ـ وليغفر الله لى هذه الـكلمة القبيحة ـ ان ينتزع من صدرها ما تخفيه ، أما ما فعلت بالوثيقـة فعلم ذلك عند ربى ، ولاريب انها فى حوزة ذلك العزب العجوز جريجورى جريجوريفتش ستورتشتكو ، فقد استولى عليها هذا الوغد البطين الذى يحاكى كرشه القدر فى انتفاخه ، وانى لأراهنك بما تريد على انه قد اخفى تلك الوثيقة » .

« أفلا تسمحين لى بســؤال ايتهـا الخالة العزيزة ؟ اليس هو ستورتشنكو بعينه الذى تعرفت به فى الخان ؟ »

وأخذ ايفان فيودوروفتش يصف لها لقاءه بستورتشنكو وفكرت خالته لحظة ثم قالت : « من يدرى ؟ لعله بعيد عن الشر ، صحيح انه لم يقم بين ظهرانينا الا منذ ستة اشهر ، الا انك لاتستطيـع ان تخبر انسانا فى وقت وجيز كهذا ، ان تلك السيدة العجوز امراة راجحة العقل فيما يلفنى ، فهى تجيد تخليل الخيار ، وعندها اماء يصنعن طنافس بديعة . أما وقد رحب بك الرجل اجمل ترحيب فان الواجب يقتضيك ان تذهب لزيارته ، ولعل هذا الآثم العجوز يستجيب لنداء ضميره ، فينزل عما ليس يملك ، ولتستقل العربة ان شئت ، ولو ان الأطفال الملاعين قد نزعوا المسامير التى فى ظهرها، ولآمرن الحوذى اوميلكو بأن يحسن تثبيت الجلد بالمسامير فى كل مكان منها »

« لاداعى لهذا ايتها الخالة العزيزة ، فلســوف استقــل العربة الصغيرة التى تخرجين بها احيانا طلبا للصيد » .

وانتهى الحديث عند هذا الحد .

- ٤ -

الغـــــــذاء

وبلغ ايفان فيودوروفتش قرية خوريتشه فى موعد الغذاء تقريبا، وأحس بشىء من الاستحياء وهو يقترب من منزل صاحب الضيعة . وكان منزلا مستطيلا لم يسقف بالقصب كغيره من منازل اصحاب الأراضى المجاورة ، بل سقف بالخشب ، وقد قام فى فنائه مخزنان للحبوب لكل منهما أيضا سقف من الخشب ، وصنع باب المنزل من السنديان . وأحس ايفان فيودوروفتش باحساس الرجل الأنيق، ما أن يبلغ المرقص حتى يجد كل من فيه أكثر تأنقا منه ، واوقف عربته بجوار أحد المخزنين اظهارا لاحترامه ، ثم مضى الى البـــاب الأمامى .

وصاح الرجل البدين جريجورى جريجوريفتش : « آه ، ايفان فيودوروفتش ! » ، وكان فى هـــذه الأثنـــاء يجتاز الفنـــاء مرتديا سترته من غير رباط رقبة ولا صديرى ولا حمالة ، على ان هـــذا اللباس على بساطته كان فيما يظهر يثقل على جسمه اثقالا شديدا ، فقد أخذ العرق يتصبب منه ، ثم أردف : « وى ! لقد وعدت بالزيارة بمجرد أن تنتهى من رؤية خالتك وهأنت ذا قد غبت عنـــا فاطلت ! »

ولم يلبث ايفان فيودوروفتش ان وجد شفتيه نفسيهما تلمسان مرة أخرى تلك الوجنتين اللتين تشبهان الوسادة .

« لقد كنت مشغولا بالاشراف على المزرعة خاصة ، والحق اننى جئتك فى عمل ، ولن أبقى الا لحظة » .

« لحظة ؟ وى ! انها لا تكفى ! » ، ثم صاح السيد البدين : « ايه ياغلام ! » ، ولبى الغـــلام المعهـــود الذى يرتدى الســـترة القوزاقية واقبل على سيده من المطبخ ، « قل لسكاريان ان يحكم اغلاق الباب ، اتسمعنى ؟ هيا وعجل ! وحل السؤاس «العريش» عن جواد هذا السيد فى التو واللحظة . هلا تتفضل بالدخول الى الدار ، فان الجو شديد القيظ هنا حتى لقد ابتل قميصى » .

واستقر رأى ايفان فيودوروفتش وهو يدخل الدار على الا يضيع وقتا وان يتصرف فى حزم على الرغم من حيائه .

« لقد تفضلت خالتى فقصت على نبأ وثيقة بهبة كتبها المغفور له ستيبان كوزميتش ... » .

وما أن سمع جريجورى جريجوريفتش هذه الكلمات حتى شاب ملامحه تجهم شديد ، يجل عن الوصف .

واجاب قائلا : « آه ياعزيزى ، انى لا استطيع ان اسمع شيئا ، ولا اخفيك ان صرصورا تسلل الى اذنى اليسرى ، الا تبا لأولئك الروس الملتحين ، فهم يربون الصراصير فى اكواخهم ، وان القلم ليعجز عن وصف ما انتابنى من الم ، فقد ظل يخزنى ، ثم يخزنى حتى جاءت امراة عجوز فشفتنى على ايسر سبيل ... » .

واستجمع ايفان فيودوروفتش شجاعته وقاطعه ، اذ رأى انه يحاول ان ينأى عن الموضوع ، وقال : « انما قصدت ان اقول : انه ورد فى وصية الطيب الذكر ستيبان كوزميتش ذكر وثيقة بهبة ، وانى لأستحق بمقتضى هذا العقد ... »

« انى لأدرك ما تقول ، وهأنذا ارى ان خالتك قد انبأتك بنبأ هذه الرواية ، قسما انها لغرية ! فان خالى لم يكتب وثيقة بهبة ، صحيح ان الوصية اشارت الى وجود وثيقة من هذا القبيل ولكن أين هى ؟ ما من احد أبرزها ، وانى لأقول لك هذا لأننى أرجو لك الخير من كل قلبى ، قسما انها لغرية ! » .

ولم يحر ايفان فيودوروفتش جوابا ، فقد دار بخلده ان خالته قد تكون مخطئة حقا .

وقال جريجورى جريجوريفتش : « آه ، ها هى ذى امى واختاى ! اذن فقد أعد الغذاء ! فهيا بنا ! » .

وعندئذ امسك ايفان فيودوروفتش من يده وقاده الى غرفة وضعت على مائدة فيها الفودكا واطايب المأكولات .

وولجت الغرفة فى هذه الأثناء سيدة عجوز قصيرة القامة كابريق القهوة سواء بسواء ، ترتدى قبعة وفى صحبتها شابتان : احداهما شقراء ، والأخرى سمراء . وتقدم ايفان فيودوروفتش الى السيدة

العجوز وطبع قبلة على يدها كما يفعل السادة الفضلاء ، ثم قبل ايضا يدى الشابتين .

وقال جريجورى جريجوريفتش : « أماه ، هذا هو جارنا ايفان فيودوروفتش شبونكا » .

ونظرت السيدة العجوز مليا الى ايفان فيودوروفتش ، او ربما كان ذلك هو ما تراءى للأنظار ، على انها كانت مثالا للطيبة والبساطة مجتمعتين حتى بدا على العجوز كأنها تود أن تسأل ايفان فيودوروفتش : « ما مقدار ما خللتم من خيار هذا الشتاء ؟ » .

وسألته السيدة العجوز : « هل اصبت شيئا من الفودكا ؟ » .

وقال جريجورى جريجوريفتش : « لاشك انك لم تنالى كفايتك من النوم يا أماه ، كيف يسأل ضيف : هل اصاب شيئا من الفودكا او لم يصب ؟ حسبك ان تقدميها لنا ، ولا عليك ان كنا اصبنا منها او لم نصب ، فان هذا من شأننا . اى ايفان فيودوروفتش ، هل تصيب شيئا من فودكا القنطريون او فودكا تروفيمون ؟ أيهما تفضل ؟ » ، ثم التفت واردف : « وانت يا ايفان ايفانوفتش ، ما بالك تقف هناك ؟ » ، ورأى ايفان فيودوروفتش السيد الذى وجه اليه جريجورى جريجوريفتش الحديث يقترب من الفودكا وهو يرتدى سترة رسمية لها ذيلان كبيران وبنيقة ضخمة منتصبة غطت قفاه كله حتى بدا للأنظار ان راسه قد استوىعليها كما يستوى المرء فى عربة .

واقبل ايفان ايفانوفتش على الفودكا وفرك يديه وتفرس جيدا فى القدح ثم ملأه ورفعه الى النور وافرغه دفعة واحدة فى حلقه ، على انه لم يجرع الشراب فى الحال بل راح يمصمصه فى فمه جيدا ثم تركه آخر الأمر يهبط الى جوفه ، ثم أصاب شيئا من الخبز ومن الفطير المصنوع بالكامخ ، والتفت الى ايفان فيودوروفتش وسأله قائلا : « هل ايفان فيودوروفتش شبونكا هو الذى اتشرف بالتحدث اليه ؟ » .

واجاب ايفان فيودوروفتش : « أجل ياسيدى » .

« لقد تغيرت كثيرا مذ رأيتك آخر مرة » ، ومضى يقول : «وى! انى لأذكرك ولما تشب فى الطول عن هذا ! » ، ورفع يده عنالأرض

باردة ، « ان أباك رحمة الله عليه كان من الرجال النادرين ، لا تقصده الا رايت عنده بطيخا لا تجد له الآن نظيرا فى اى مكان»، واسترسل يقول وهو ينتحى به جانبا : « وهاك شاهدا على ما اقول ، فانهم سيضعون امامك على المائدة بطيخا ، اجل بطيخا حقا! ولن تحفل بالنظر اليه » ، ثم هتف فى شيء من الغموض والخفاء باسطا ذراعيه كما لو كان على وشك ان يعانق جذع شجرة ضخما: « أو تصدق ياسيدى انه كان عنده من البطيخ ما يبلغ هذا الحجم والله على ما أقول شهيد ؟ » .

وقال جريجورى جريجوريفتش وهو ياخذ بذراع ايفان فيودوروفتش : « تعال نتناول الغداء » .

ومضت الجماعة الى غرفة المائدة .

وجلس جريجورى جريجوريفتش فى مكانه المالوف من طرف المائدة وقد لف نفسه بمفرش ضخم من مفارش المائدة جعله يبدو للأنظار شبيها بالأبطال الذين ينقشهم الحلاقون على واجهات محالهم ، وجلس ايفان فيودوروفتش فى المكان الذى اجلسوه فيه قبالة الشابتين وقد علت وجهه حمرة الخجل ، ولم يدع ايفان ايفانوفتش فرصة الجلوس الى جواره تفلت من يده ، فقد سر فى قرارة نفسه اذ وجد انسانا يستطيع ان يفضى اليه بما فى جعبته من جوامع الأخبار واشتاتها .

وقالت السيدة العجوز موجهة الخطاب الى ايفان فيودوروفتش اذ رات الخادم الريفى الذى يرتدى سترة للسهرة رمادية اللون تغشاها رقع سود يقدم له صفحة من الطعام ، « دع الزمك يا ايفان فيودوروفتش فانه ديك رومى ! وعليك بالأوراك ! » .

وعلق جريجورى جريجوريفتش على قولها هاتفا : « أماه ، دعيه وشأنه ! واعلمى ان ضيفنا يعرف كيف ياخذ ما يحلو له عليك بجناح يا ايفان فيودوروفتش ، وليكن الجناح الذى عليه الحوصلة! وى ! انك لم تصب منه الا القليل ! فخذ ساقا ! يا غلام ، ما بالك ؟ اعزم عليه ! واجث على ركبتيك ايها الوغد ! وبادره بقولك: خذ ساقا يا ايفان فيودوروفتش ! » .

وصاح الخادم الذى يحمل الطبق وهو يجثو : « خـذ سـاقا يا ايفان فيودوروفتش ! »

وغمغم ايفان ايفانوفتش فى صوت خفيض وهو يلتفت الى جاره مستهزئا : « ايه ! او تسمى هذا ديكا روميا ؟ اهيئة ديك رومى تلك ؟ آه لو رأيت ديكتى الرومية ! انها لتحمل من الشحم ما لا يحمله اثنا عشر ديكا من هذا القبيل ، لعمرى ياسيدى ، انمنظرها وهى تتميح فى الفناء من فرط ما تحمل من شحم ولحم لشىء تنفر منه النفس ! » .

فهتف جريجورى جريجوريفتش اذ وصل الى سمعه هذا التعليق: « انك تـكذب يا ايفان ايفانوفتش ! » .

ومضى ايفان ايفانوفتش يقول لجاره ، وقد تظاهر بأنه لم يسمع ما قاله جريجورى جريجوريفتش : « ولا اخفيـك اننى بعثت بها الى جادياخ فى العام الماضى لعرضها فى السوق ، فبلغ ثمن الواحد منها خمسين كوبكا ، ولكننى رفضت هذا الثمن المرتفع » .

وقال جريجورى جريجوريفتش ، وقد علا صـوته علوا ، وراح يشد علىكل مقطع من كلماته زيادة فى البيان : « ايفان ايفانوفتش! أقول لك انك تـكذب » .

ومضى ايفان ايفانوفتش على سنته كأنما كان هذا الـكلام لا يعنيه من قريب أو بعيد ، وراح يتحدث فى لهجته المعهودة وقد خفض من صوته كثيرا : « اجل ياسيدى ، لم اقبل ذلك الثمن ، فما من سيد فى جادياخ ... »

وصاح جريجورى جريجوريفتش : « لعمرى انك لأحمق يا ايفان ايفانوفتش ! ان ايفان فيودوروفتش ليعلم من الأمر كله ما لاتعلم، وأنا واثق انه لن يصدقك ! » .

وبوغت ايفان ايفانوفتش هذه المرة حقا ، فلم ينبس ببنت شـفة بل أقبل على الديك يزدرده على الرغم من انه لم يكن يحمل من الشحم ما تحمله تلك الديكة السمينة التى تنفر النفسمن منظرها.

وتعطلت لغة الكلام لحظة وحلت محلها قعقعة السكاكين والملاعق والصحاف ، وغلب علىذلك كله ما احدثه جريجورى جريجوريفتش من صوت وهو يمصمص النخاع من عظم الضأن .

وران السكون برهة ثم انبعث ايفان ايفانوفتش يسأل جاره على المائدة مبرزا رأسه من بنيقته الشبيهة بالعربة : «هل قرأت رحلات كوروبيينيكوف الى الأرض المقدسة ؟ انه لمتعة للقلب والنفس حقا ! وهيهات أن ينشر مثل هذا الكتاب فى ايامنا هذه ، ولشد مايؤسفنى اننى لم الحظ السنة التى كتب فيها ! » .

وما ان سمع ايفان فيودوروفتش اسم كتاب يذكر حتى اقبل على المرق المتبل بهمة ونشاط .

« انك لتعجب حقا ياسيدى اذا علمت ان مواطنا رقيق الحال كهذا استطاع زيارة كل هذه الأماكن . لقد قطع فى رحلته تلك ياسيدى اكثر من ثلاثة آلاف فيرست ! ولاشك أن فضل الله هو الذى أتاح له أن يبلغ فلسطين وبيت المقدس » .

وقال ايفان فيودوروفتش ، وكان قد سمع الكثير عن بيت المقدس من الجندى الذى كان يقوم على خدمته : « اذن فأنت تقول : انه زار بيت المقدس » .

وسأل جريجورى جريجوريفتش من طرف المائدة : « ماذا تقول يا ايفان فيودوروفتش ؟ » .

وقال ايفان فيودوروفتش : « لقد تهيأت لى الفرصة لمعرفة ما فى العالم من بلاد قاصية ! » وافعم قلبه بالسرور اذ أفلح فى النطق بمثل هذه العبارات المطنبة العسيرة .

وقال جريجورى جريجوريفتش ، ولم يكن قد ميز كل ماقيل : « لا تصدقه يا ايفان فيودوروفتش ! انه يكذب دائما ! » .

وفرغ القوم من تناول غذائهم فى هذه الاثناء ، واوى جريجورى جريجوريفتش الى غرفته كشأنه ليغفو قليلا ، وتبع الضيفان مضيفتهما العجوز والشابتين الى غرفة الاستقبال فوجدوا المائدة المعهودة التى تركوا عليها الفودكا عندما مضوا لتناول الغذاء وكأنما مستها يد ساحر ، فحفلت بأطباق صغيرة من المربى على اختلاف انواعها وصحاف الكرز وانواع شتى من البطيخ .

وكان غياب جريجورى جريجوريفتش ملحوظا فى كل شىء ، فقد جنحت العجوز الى الاسراف فى الكلام ، وانطلقت بمحض اختيارها ومن غير اثارة ولا سؤال تفشى كثيرا من الأسرار عن صنع فطيرة

التفاح وتجفيف الكمثرى ، ولم يقتصر الأمر على المرأة العجوز، بل لقد انحلت عقدة لسان الشابتين ولو ان الشقراء آثرت الصمت ، وبدا من مظهرها انها تصغر اختها بست سنوات وقد كانت على ما يلوح فى الخامسة والعشرين من عمرها .

على ان ايفان ايفانوفتش كان اكثر القوم كلاما ونشاطا ، ذلك انه اطمأن الى ان أحدا لن يزجره أو يقاطعه ، فراح يتحدث عن الخيار وزراعة البطاطس ويقول : ان عدد العقلاء فى الأيام الخالية يزيد على عددهم اليوم زيادة لا تجدى معها المقارنة ! وانكل شيء يتحسن بمرور الزمن وتكتشف من الاختراعات ادقها واشدها تعقيدا . وما من شك ان الرجل كان من اولئك الاشخاص الذين يجدون فى مواصلة الحديث لذة عظيمة ، فلا ينفكون عن الخوض فى كل ما يمكن أن يخوض الناس فيه ، حتى اذا مس الحديث موضوعات خطيرة أو مسائل من مسائل الدين الفيت ايفانايفانوفتش يتنهد بعد كل كلمة ويومىء براسه قليلا . اما اذا تطرق الحديث الى امور وثيقة الصلة بالشئون المنزلية فلا تلبث ان تجده يبرز راسه من بنيقته التى تشبه العربة ، ويقلب وجهه تقليبا يكاد يفصح عن كيفية صنع شراب الكمثرى المسكر ومبلغ ما يصل اليه حجم انبطيخ الذى كان يتشدق به ، ومقدار ما يحمل الأوز الذى يجول فى فنائه من شحم ولحم .

واخيرا افلح ايفان فيودوروفتش فى الاستئذان بعد جهد ، على ان يغادر القوم عند حلول المساء ، ومع ان الرجل كان قد الف ان يستسلم للرجاء ، فانهم لم يستطيعوا استبقاءه حتى المساء الا بشق الأنفس ، فقد صمم على رأيه ثم مضى .

— ٥ —

خطة جديدة تدبرها الخالة العزيزة ..

«هل انتزعت وثيقة الهبة من الآثم العجوز ؟» ، وهكذا ابتدرت الخالة ايفان فيودوروفتش بالتحية ملقية عليه هذا السؤال ، وكانت قد ظلت تنتظره بضع ساعات على الدرج ، ولم تستطع آخر الأمر أن

تقاوم ما تملكها من رغبة فى الخروج الى الباب .

وقال ايفان فيودوروفتش وهو يترجل عن العربة الخفيفة : «كلا ياخالتى العزيزة ، فليس عند جريجورى جريجوريفتش وثيقة » .

« أو صدقته ؟ لقد كان ذلك المخبول يكذب عليك ! لسوف يقع فى قبضتى يوما فأضربه بيدى هاتين ضربا مبرحا ، آه ، لو تم لى ذلك لخلصته من بعض شحمه ! ولعل من حسن الرأى ان نشاور فى الأمر اولا مساعد القاضى فى ناحيتنا ، لنرى هل يحق لنا أن نستعدى القانون عليه ؟ ولكن ليس هذا بيت القصيد الآن ، هل كان الغذاء شهيا ؟ » .

« شهيا جدا ــ بل رائعا ايتها الخالة العزيزة » .

« فماذا اصبت اذن من الوان الطعام ؟ خبرنى ، فانى لاعلم ان السيدة العجوز تتقن الطهى » .

« عجين قد قلى بالجبن عليه قشدة مخثرة ايتها الخالة العزيزة ، وحمام محشو فى مرق متبل ... »

وسألته خالته : « وديك رومى بالقراصية ؟ » ، ذلك انها كانت هى نفسها بارعة فى اعداد ذلك الطبق .

« اجل ، كان من الوان الطعام ديك رومى ايضا ، الا ما املح اختى جريجورى جريجوريفتش وبخاصة الشقراء ! » .

وهتفت الخالة قائلة : « آه ! » ، وتفرست فى وجه ايفان فيودوروفتش فارخى بصره ، واحمر وجهه خجلا ، ثم طرات على ذهنها فكرة جديدة ، فراحت تقول فى غيرة وفضول : « تعال حدثنى ، ما شكل حاجبيها ؟ »

ولا يفوتنا أن نقول : ان الخالة العزيزة كانت ترى ان جمال الحاجبين هو اهم ما تتميز به ملامح المرأة .

« ان حاجبيها ايتها الخالة العزيزة يطابقان كل المطابقة ما وصفت به حاجبيك عندما كنت شابة فى مقتبل العمر ، ويغشى وجهها كله نمش صغير » .

وهتفت الخالة قائلة : « آه ! » ، وقد سرتها الملاحظة التى ابداها ايفان فيودوروفتش غاية السرور ، وان كان لم يخطر بباله أن يطربها ، ثم اردفت : « أى ثوب كانت ترتدى ؟ ولو أن من

المتعذر اليوم الحصول على نسيج من نوع جديد كالذى صنعت منه ردائى هذا مثلا ، ولكن ليس هذا بيت القصيد ، أو تحدثت اليها فى أمر من الأمور ؟ » .

« اتحدث اليها ؟ ماذا تعنين ايتها الخالة العزيزة ؟ لعلك تظنين.»

« واىضير فىهذا ؟ لوفعلتما ما عجب لذلك أحد ، فلا اعتراض على مشيئة الله ! ومن يدرى ؟ لعله كتب عليكما منذ ولادتكما ان تكونا زوجا وزوجة ! » .

« لست ادرى كيف يرد مثل هذا القول على لسانك ايتها الخالة العزيزة ! يبدو لى من قولك انك لا تفهميننى على الاطلاق » .

فردت الخالة : « وى ! وى ! لقد تضايق الفتى ، ولا عليه فانه لايزال طفلا » ، ثم قالت بينها وبين نفسها : « انه لايدرى شيئا ، فلأجمعن بينهما ولأسعين الى تعريف كل منهما بالآخر » .

وما ان فرغت الخالة من قولها هذا حتى خرجت لتلقى نظـــرة على المطبخ وتركت ايفان فيودوروفتش وحيـــدا ، ومن يومها وهى لاتفكر الا فى شىء واحد هو أن ترى ابن أختهـــا وقد تزوج بأسرع ما يمكن . واخذت هى تدلل اطفاله الصغار . وشغل الاستعداد للزفاف عقلها حتى لوحظ انها زادت نشاطا وانطلقت تروح وتغدو صاخبة مضوضية ، ولو ان ذلك أساء الى العمل أكثر مما أحسن اليه ، وآية ذلك انها كانت تقوم فى كثير من الأحيان بصنع كعكة، وهو عمل لم تكن لتتركه قط للطاهية ، فتنسى كل شىء وتتخيل ان ابن أختها قد رزق ولدا صغيرا وقف الى جانبها يسألها قطعة من الكعكة ، فتمد له يدها بأطيب ما فيها شاردة اللب ، وينتهز كلب الفناء هذه الفرصة فيخطف هـــذه القطعة الطيبة ، ولايوقظها من سباتها الا صوت أسنانه تقمقع ، فينال جزاءه المعهود : لطمة من محراك النار ! ولم يقف بها الأمر عند هذا الحقد ، ذلك انها نبذت هوايتها المحبوبة ، وانقطعت عن الصيد وخاصة بعد ان اخطـــأت ، فصادت غرابا ظانة انه حجل ، وهو أمر لم يحدث لها من قبل قط.

وبعد اربعة ايام راى الناس آخر الأمر عربتها تخرج من الحظيرة الى الفناء ، وكان أوميلـــكو الحوذى الذى جمع فى بردته صـــفتى البستانى والحارس ايضا ، يدق منذ الصـــباح الباكر مثبتا الجلد

بالمسامير ويواصل مطاردته للكلاب التي كانت تلعق العجلات ،واني لاحسب ان الواجب يقتضيني ان اقول لقرائي : « ان هذه العربة كانت هي هي العربة التي الف ابونا آدم ان يركبها ! فاذا اجترا احد وزعم ان آدم كان يركب عربة اخرى كان في زعمه هذا كذابا اشرا ، وكانت عربته هذه مزيفة بلا ريب ، على اننا لا ندري :كيف بقيت العربة بعد الطوفان ؟ ولا حيلة لنا الا ان نفترض انه كان لها حظيرة خاصة في فلك نوح ، ولشد ما يؤسفني انني لا استطيع ان ارسم لقرائي صورة حية لها .

وحسبنا ان نقول ان فاسيليا كاشبوروفنا كانت راضية عن صنعة عربتها كل الرضا ، لا تمل من ابداء اسفها على ان الطراز القديم من العربات اصبح في نظر الناس عتيقا باليـا ، وروعي في تركيب العربة ان تميل قليلا على جانب منها بحيث يعلو الجانب الايمن عن الايسر كثيرا ، وقد سرها ذلك ابلغ السرور بصفة خاصة ، زاعمة ان الشخص القصير يستطيع ان يركبها من جانب على حين يركبها الطويل من الجانب الآخر ، على ان العربة لم تكن تتسع لاكثر من خمسة اشخاص قصار القامة او ثلاثة في مثل قامة الخالة العزيزة نفسها .

وفرغ اوميلكو من عمله في العربة قرب الظهيرة ، واخرج من الحظيرة ثلاثة جياد اقل عمرا من العربة بقليل ، وبدا يشدها بحبل الى العربة الفخمة ، وركب ايفان فيودوروفتش من الجانب الايسر وخالتـه العزيزة من الجانب الايمن ، ومضـت العربة في طريقهـا ، ورأى الفلاحون الذين صادفوهما في الطريق هـذا الموكب الضخم « وقلما كانت فاسيليا كاشبوروفنا تخرج في العربة » ، فوقفوا في خشوع ، وخلعوا قبعاتهم ، وانحنوا انحناء كبيرا .

ووقفت العربة بعد مسيرة ساعتين عند الباب الامامي ، ولاحاجة الى القول بانه باب منزل ســـــــتورتشنكو ، وكان جريجوري جريجوريفتش خارج الدار. وخفت امه العجوز واختاه الشابتان الى غرفة المائدة لاســتقبال الضيفين ، ودخلت الخالة الغرفة في مهـابة وجلال ، وخطت خطوة في براعة كبيرة ، ثم قالت بصوت مرتفع :

« يسعدني ياسيدتي ان اتشرف بتقديم احترامي شخصيا ، وان

اشكرك فى الوقت نفسه على الكرم الذى لقيه ابن أختى منكم ، مما الهج لسانه بالثناء عليكم . ان حنطتكم السوداء لغاية فى الجودة ياسيدتى ، وقد رأيتها ونحن نجتاز القرية فهل لى ان اسالك عن مقدار ما تغله فى الدسياتين (١) الواحد ؟ » .

واعقب ذلك تبادل القبلات ، وما ان استقر الجميع فى غرفة الاستقبال حتى بدات السيدة العجوز الحديث قائلة : « اما عن الحنطة السوداء فلست اعلم امرها شيئا ، فان هذا من شأن جريجورى جريجوريفتش ، وقد انقطعت صلتى بهذه الشئون منذ زمن طويل ، ولا أستطيع ان اتولاها الآن ، فقد تقدمت بى السن، واني لأذكر ان الحنطة السوداء كانت فيما مضى ترتفع حتى تبلغ قامة الانسان ، اما الآن فالله اعلم بأمرها ، وان كانوا يقولون : ان كل شيء قد تحسن فى الوقت الحاضر » وزفرت العجوز زفرة قد يرى بعض المراقبين فيها انها تنم عن قرن مضى ، هو القرن الثامن عشر .

وقالت فاسيليا كاشبوروفنا : « لقد علمت ياسيدتى ان جواريك بارعات فى صنع الطنافس » ، وبهذا القول ضربت الخالة على الوتر الحساس ، فبدا الاشراق على وجه السيدة العجوز ، وانطلقت تتحدث عن كيفية صباغة النسيج واعداد الخيط .

وانتقل الحديث فى يسر من الطنافس الى تخليل الخيار وتجفيف الكمثرى .

وصفوة القول انه ما ان مضت ساعة حتى استغرقت السيدتان فى الحديث كأنما ربطت بينهما صداقة العمر ، وكانت فاسيليا كاشبوروفنا قد حدثتها فعلا فى صوت هامس تعذر على ايفان فيودوروفتش ان يسمع كلمة واحدة منه .

وقالت السيدة العجوز وهى تنتصب واقفة : « أجل ، أتحبين ان تلقى نظرة عليها ؟ » ونهضت الأنستان هما وفاسيليا لتمضين جميعا الى غرفة الجوارى ، على ان الخالة العزيزة اشارت الى ايفان فيودوروفتش بأن يبقى ، وأسرت شيئا الى السيدة العجوز .

(١) الدسياتين : قطعة من الارض مقدارها نحو فدانين ونصف الفدان.

وقالت السيدة العجوز وهى تنتصب واقفة : « اجل ، ابقى ياماشنكا مع ضيفنا وحدثيه حتى لا يشعر بالسأم ! » .

وجلست الآنسة الشقراء على الأريكة ، واستوى ايفان فيودوروفتش على كرسيه كأنما يستوى على الأشواك ، واحمرت وجنتاه خجلا وارخى بصره ، ولم يبد على الفتاة انها لاحظت ذلك ، وجلست على الأريكة لا تحفل بشىء ، وراحت تتفرس فى النوافذ والجدران ، أو ترقب القط وهو يدور واثبا تحت المقاعد فى تهيب ووجل .

وتشجع ايفان فيودوروفتش قليلا واحس بأن الأمر يقتضيه أن يبدأ الحديث ، على ان كلماته جميعا كانت فيما يظهر قد ندت منه وهى فى الطريق الى لسانه ، ولم تطرأ بباله فكرة واحدة .

ودام الصمت بينهما قرابة ربع ساعة ، وظلت الآنسة جالسة فى مكانها لا تريم .

واستجمع ايفان فيودوروفتش شجاعته آخر الأمر ، واستطاع أن يقول فى صوت تخالطه رجفة :

« لشد ما يكثر الذباب فى الصيف ياسيدتى ! »

واجابت الشابة : « ما اكثره حقا ! لقد صنع اخى مذبة لأمى من خف قديم تقتل به الذباب ، ومع ذلك فقد بقيت منه حشود وحشود » .

وبهذا انقطع الحديث ، ولم يستطع ايفان فيودوروفتش أن يجد شيئايقوله .

وعادت السيدة العجوز آخر الأمر هى وخالته والآنسة السمراء ، وواصلوا الحديث هونا ، ثم استأذنت فاسيليا كاشبوروفنا من السيدة العجوز وابنتيها بالرغم من توسلاتهن بأن يقضيا الليلة معهن ، وخرجت السيدات الثلاث الى الدرج يودعن الضيفين ، وظللن وقتا يومئن برءوسهن الى الخالة وابن أختها وهما يطلان من العربة .

وسألته الخالة فى طريقهما الى المنزل : « قل لى يا ايفان فيودوروفتش ، فيم كان حديثكما عندما انفردت بالفتاة ؟ » .

فقال ايفان فيودوروفتش : « ان ماريا جريجوريفنا لفتاة مهذبة راجحة العقل » .

« انصت الى يا ايفان فيودوروفتش ، فاننى لأود ان احـدثك حديثا جديا ، هأنت ذا قد جاوزت السابعة والثلاثين ، وحصلت فى خدمة الجيش على رتبة حسنة ، وقد آن لك أن تفكر فى الأطفال ويجب أن تتزوج » .

وصاح ايفان فيودوروفتش فى فزع : « ماذا ترددين أيتها الخالة العزيزة ؟ زوجة ! كلا ياخالتى بالله عليك ! انك لتقتلينني خجلا، فما عرفت الزواج بعـد ، ولست ادرى ماذا افعل اذا اصبحت لى زوجة ! » .

وقالت الخالة وهى تبتسم : « لتعرفن هذا يا ايفان فيودوروفتش، لتعرفنه ! » ، ثم قالت بينها وبين نفسها : « وى ! ياله من طفل واى طفل ! انه لايدرى من امره شيئا ! » ، ومضت تقول بصوت مرتفع : « اجل يا ايفان فيودوروفتش ، لن نجد لى زوجة خيرا من ماريا جريجوريفنا ، ثم انك تميل اليها كل الميل ، وقد تحدثت الى السيدة العجوز مليا فى الأمر ، ولسوف يسرها ان تصبح زوجا لابنتها ، صحيح اننا لا نعرف ماعسى ان يقول ذلك الفاجرجريجورى جريجوريفتش ، ولكننا لن نحفل به ، فاذا ركب راسه ولم يمهرها استعنا عليه بالقانون ! »

ودخلت العربة الفناء فى هذه الأثناء وازداد نشاط الجياد المتقدمة فى السن ، اذ احست باقتراب حظيرتها .

« استمع الى يا اوميلكو ، ودع الجياد تصب اولا كفايتها من الراحة ، ولا تأخذها لتستقى لحظة ان تخلع عنها سروجها ، فانها لا تزال تتوقد » .

واردفت الخالة وهى تترجل من العربة : « اما انت يا ايفان فيودوروفتش ، فانى أنصح لك بأن تفكر فى الامر مليـا ، ولأعجل الآن بالذهاب الى المطبخ ، فقد نسيت ان احدث سولوخا بما تعده لنا من عشاء ، واغلب الظن ان المراة المسكينة لايمكن ان تفكر فى الأمر من تلقاء نفسها » .

ووقف ايفان فيودوروفتش كمن نزلت به صاعقة . صحيح ان ماريا جريجورفنا كانت فتاة بهية الطلعة فائقة الحسن ، ولكن هذا شىء والزواج شىء آخر ! ذلك ان الأمر بدا له عجيبا كل العجب،

غريبا ممعنا فى الغرابة ، لا يفكر فيه‌الا انتـابه الخوف والفزع . يعيش مع زوجة ! ياله من أمر لايجوز التفكير فيه ! وكيف يصبر على حال تمنعه عن الانفراد بنفسه فى غرفة تخصه وتقتضـيه أن يعيش فى صحبة شخص آخر دائما ؟ وتصبب العرق منه وهو يزداد امعانا فى هذا الامر .

وأوى الى فراشه وبكر فى ذلك اكثر مما الف ، فعز عليه النوم على الرغم مما بذله من جهد جهيد ، ثم زاره النوم ، ذلك الملاذ الذى يسكن اليه الناس جميعا ، وما كان اعجبه من نوم ! ذلك انه لم ير فى حياته من الأحلام المهوشة المهلهلة مثلما راى فى منـامه هذا ، فقد تراءى له أول ما تراءى ان كل شىء يدور حوله صاخبا مضوضيا ، وانه انطلق يجرى ويجرى بقدر ما تحمله ساقاه ، ثم اخذ يلهث مبهور الانفاس ، واذا بشخص يمسك باذنه فيصـيح فجأة هاتفا : « اف ! من هـذا ؟ »

ودوى فى‌اذنه صوت يقول : « اننى انا زوجتك ! » ، فاستيقظ من نومه ، ثم خيل اليه انه قد تزوج ، وان كل شىء فى منزلهما الصغير كان غريبا كل الغرابة ، عجيبا غاية العجب ، وقد مد فى غرفته فراش لشخصين بعد ان كان فيها فراش لايسع الا شخصا واحدا ، واستوت زوجته جالسة على كرسي وانتابه شعورعجيب، فقد احس بانه لايعرف كيف يقترب منها ؟ وبماذا يحدثها ؟ ثم بدا له ان وجهها وجه اوزة ، ثم التفت مصادفة الى الناحيـة الأخرى فوجد زوجة اخرى وجهها وجه اوزة ، والتفت مرة ثانية فوجد زوجة ثالثة ، فرابعة من خلفه ، فامتلأ قلبه رعبا وهرع الى الحديقة ولكنه شعر بحرارة الجو فخلع قبعته فاذا بزوجة غيرهؤلاء تجلس فيها ، فتصبب العرق من وجهه ودس يده فى جيبه ليخرج منديلا فوجد زوجة سادسة فى جيبه ايضـا ، ثم اخرج من اذنه شيئا من القطن فوجد زوجة سابعة تجلس فيها ! ثم انبعث يقفز فجأة على ساق واحدة ، وقالت له خالته ، وهى تنظر اليه ، فى لهجة وقور :

« اجل ، يجب ان تقفز الآن على ساق واحدة ، فقد اصبحت رجلا متزوجا » ، ومضى اليها ، ولكن الخالة تبدلت غير الخالة ،

وانقلبت برجا لناقوس ، واحس ايفـــان شخصا يشده بحبل الى برج الناقوس ، فسأل ايفان فيودوروفتش فى لهجة حزينة : « من ذا الذى يشدنى ؟ » ، « انى زوجتك ، اشدك لانك ناقوس » ، فصاح : « كلا ، لست ناقوسا ، بل أنا ايفان فيودوروفتش » ، وتصادف ان كان قائد المشاة يمر بالمكان فقال له : « بل انت ناقوس » ، ثم تراءى له فجأة ان الزوجة لا تمت للبشر بسبب ، وانما هي ضرب من النسيج الصوفى ، ورأى انه دخـل حانوتا فى موجيليوف ، فسأله صاحب الحانوت : « اى نوع من النســـيج تحب ؟ خير لك ان تأخذ زوجة فانها احدث طراز من النســـيج ! فهو شديد الاحتمال وما من احد الا يتخذ منه اليوم معطفا» ، وقاس صاحب المحل النسيج، وقص له زوجة، تابطها ايفان فيودوروفتش، وذهب بها الى خياط يهودى ، وقال اليهودى : « كلا ، انه نسيج رديء ، وما من أحد يصنع من هذا النسيج معاطف اليوم » .

وأفاق ايفان فيودوروفتش من حلمه فزعا ، لايدرى أين هو ، وأخذ العرق البارد يتصبب منه .

وما ان اســـتيقظ فى صبيحة اليوم التالى حتى هرع الى كتابه الذى يتحدث عن الطوالع ، وكان بائع كتب فاضل قد دفعه صلاحه واستقامته الى تذييله بحاشية مختصرة فى الأحلام ، ولـكنه لم يجد فى هذه الحاشية شيئا ما يمت من بعيد الى هذا الحلم المهوش.

وكان عقل الخالة العزيزة قد تفتق فى هذه الأثناء عن خطة جديدة سوف تزدادون بها علما فى الفصل التالى .

KMH

مکان مسحور

مكان مسحور

قصة حقيقية رواها قندلفت

اقسم ان نفسي قد زهدت رواية القصص ! عجبا ! وما الذى كنتم تنتظرونه منى ؟ ان رواية القصص امر شاق حقا ، فهى تقتضى من المرء أن يظل يحكى ويحكى حتى يعز عليه ان يجد لنفسه مخرجا مما هو فيه ، وما دمتم تلحون فلا حيلة لى ، ولاقصن عليكم قصة ، وكل ما ارجوه ان تذكروا انها القصة الأخيرة : لقد وقف بنا الحديث عند القول باستطاعة الانسان ان يتغلب على الروح الشريرة أو قل الشيطان كما يسميه الناس . لما وقد بلغنا هذا فاعلموا ان هذا العالم يجوز فيه كل شيء ، وخير لنا الا نفصح هذا الافصاح ، فان الشيطان اذا شاء ان يمكر بك فعل ، والله على ما اقول شهيد .

لتذكروا ان ابى قد رزق اربعة أولاد انا واحد منهم ، وقدكنت وقتئذ طفلا غريرا لا اتجاوز الحادية عشرة او دونها بقليل ، واني لاذكر ما ساقص نباه عليكم كانه قد وقع بالأمس ، أجل اذكر كيف انطلقت اجرى على اربع وانبح نباح الكلاب ، فصاح ابى ينهرنى وهو يهز راسه : « استمع الى يا فوما ، لقد بلغت من السن ما يسمح لك بالزواج ، ولكنك تلح فى الحمق كالمهرالصغير!» وكان جدى ـ يسر الله فواقه فى العالم الآخر ـ لايزال على قيد الحياة يدب على رجليه دبيبا لابأس به ، وتتملكه من حين الى حين نزوات وصبوات .

ولكن ما هكذا تقص القصص ! فقد ظل احدكم ساعة يحرك نار الموقد ملتمسا جذوة يشعل بها غليونه ، وهرع احدكم الى خلف مخزن الحبوب يبحث عن شيء ، فما هذا ؟ لو اننى حملتكم على الاعصات الى لكنتم فى حل من ان تفعلوا ما يحلو لكم ، ولكنكم ابيتم الا ان تلحوا على وتمعنوا فى الالحاح حتى اروى لكم قصة ،

فان شئتم أن تنصتوا فأنصتوا ، واحسنوا الانصات ! ..

فى باكورة الربيع وسق أبى بعض العربات تبغا قصد به الى بلاد القريم ليبيعه ، ولكننى لا أذكر عدد ما وسق من عربات ، وهل كانت اثنتين أو ثلاثا ؟ ذلك ان ثمن التبغ كان مرتفعا فى تلك الايام ، وحمل ابى معه أخى الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات يعلمه التجارة، وتركنى فى العراء أنا وجدى وأمى وأخا ثانيا وثالثا، وكان جدى قد زرع بعض البطيخ فى قطعة من الأرض بجانب الطريق، ومضى يعيش فى كوخ هناك ، وحملنا معه لنطرد الغربان والعصافير من الحديقة . ولست ازعم ان ذلك كان على غير ما نحب ونشتهى، فقد كنا فى بعض الأحيان نصيب من الخيار والبطيخ واللفت والبصل والبازلاء حتى يخيل اليك ، والحق يقال ، ان بعض الديكة اخذت تصيح فى بطوننا ، زد على ذلك ان ما فعله كان فيه كسب لنا ، فقد كان المسافرون يجتازون الطريق وكل منهم يريد الحصول على بطيخة ، ثم ان القوم كانوا يحملون الينا من المزارع المجاورة الدجاج والديكة الرومية والبيض لقاء ما نعطيهم من خضراوات ، وكان نجاحنا عظيما .

ولكن أمرا واحدا كان يستهوى جدى اكثر من اى أمر ، ذلك ان خمسين حوذيا او نحوهم كانوا يمرون بنا كل يوم وقد وسقوا عرباتهم بالأحمال ، وأولئك هم الناس الذين شاهدوا العالم ، فاذا بدا أحدهم يروى لك قصة أرهفت اذنيك متطلعا ، وكان فرح جدى بهذه القصص كفرح الجائع بلقيمات القاضى ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يلقى جدى اصدقاءه القدماء ـ وما من احد يجهل جدى ـ وانك لتعلم كيف تكون الحال اذا اجتمع شمل الشيوخ معا ، فهم يتحدثون فى هذا وذاك من الأمور ، ويقلبون من الحوادث كيت وكيت ، وهكذا يمضى بهم الحديث ، فيذكرون أمورا لا يعلم الا الله متى وقعت ؟ ..

وقد حدث ذات مساء ـ وانى لأذكر ذلك كأنه قد وقع اليوم ـ ان أخذت الشمس فى الغروب ، وراح جدى يجول فى الحديقة ينزع أوراق الشجر التى كان قد غطى بها البطيخ اثناء النهار حتى لا تلفحه حرارة الشمس .

وقلت لأخى : « انظر يا أوستاب ، هاك بعض الحوذية قد اقبلوا علينا » .

وقال جدى وهو يضع علامة على بطيخة كبيرة حتى لايأكلها الغلمان : « اين الحوذية ؟ » .

وكان ستة من الحوذية يضربون فى الطريق يتقدمهم حوذى كلل المشيب شاربه ، وكان لايزال على مسيرة ـ ماذا أقول ـ عشر خطوات منا عندما وقف .

« طاب صباحك يا ماكسيم . اذن فقد شاءت ارادة الله ان نعود فنلتقى هنا » .

وزر جدى عينيه .

« آه طاب صباحك ، من اين انت قادم ؟ وبولياشكا هنا ايضا! طاب صباحك يا أخى ! يا للشيطان ! انهم جميعا هنا : كروتوتريشنكو ايضا وبيشيريتسيا ! وكوفيليك ! وستيتسكو ! طاب صباحكم ! » وراحوا يقبل بعضهم بعضا .

وفكوا سروج الثيران واطلقوها ترعى ، وتركوا العربات فى الطريق، وجلسوا فى حلقة امام الكوخ واشعلوا غلايينهم ، ولو انهم لم يفكروا فيها ، فما اظن انهم كانوا يستطيعون ان يدخنوا فى اطمئنان وهدوء وقد استغرقوا فى رواية القصص وفضول الحديث .

وتناول الضيوف العشاء ثم اتحفهم جدى بالبطيخ ، فأخذ كل منهم بطيخة وامسك بسكين وراح يزيل عنها القشر فى اناقة «وكانوا جميعا من الرجال المحنكين الذين خبروا العالم وتعلموا كيف يأكلون جماعة ، ولست أغالى اذا قلت : انه لم يكن من العسير عليهم ان يجلسوا الى مائدة سيد مهذب من افاضل الناس » وما ان انتهى كل منهم من تقشير بطيخته جيدا حتى ضرب فيها بأصبعه وشرب العصير من الثقب ، واخذ يقطعها قطعا يضعها فى فمه .

وقال جدى : « مابالكما تقفان هكذا مشدوهين ايها الصبيان ؟ ارقصا ايها الجروان ! اين مزمارك الغاب يا اوستاب ؟ علينا بالرقصة القوزاقية ! فوما ، ضع ذراعيك فى خاصرتك ، هلم ! أصبت ! والآن ! »

وقد كنت فى تلك الأيام فتى نشيطا خفيف الحركة ، الا لعنة الله

على الشيخوخة ! فقد اصبحت اليوم لا استطيع الخطو فى رشاقة كما كنت افعل فى شبابى ، وقد كانت ساقاى تطفران وتقفزان ، اما اليوم فهما لا تعرفان الا الزلل والعثار ، وظل جدى يراقبنا وقتا طويلا وهو جالس مع الحوذية ، ولاحظت ان ساقيه لا تسكنان تحته ، كأنما كان هناك ما يجذبهما .

وقال أوستاب : « لترين يا فوما ان العجوز لن يلبث حتى يرقص » .

وما أن انتهى أوستاب من قوله حتى فرغ صبر العجوز، فقد كان يتوق كما ترى الى اظهار براعته للحوذية .

فقال وهو ينتصب واقفا ويبسط ذراعيه وينقر بكعبيه : « ايه ايها الغلامان ! أهكذا يكون الرقص ؟ انما الرقص هو هذا ! » .

ولاشك انه كان يستطيع أن يرقص خيرا من ذلك لو انه كان يصاحب زوجة شيخ القوزاق ، واخلينا له السبيل ، وانطلق العجوز يدور بساقيه فى البقعة الملساء التى تجاوز أحواض الخيار ، وما ان بلغ وسط البقعة وأراد ان يأتى بخير ما عنده فيقفز بعض القفزات وساقاه تدوران فى الهواء حتى أبت ساقاه ان تبارحا الأرض على الرغم من كل ما بذل من جهد !

يا للبلاء ! لقد اخذ العجوز يتحرك مرة أخرى الى الخلف ثم الى الأمام ، وبلغ وسط البقعة ، ولكن هيهات ! لقد عجز الرجل عن الاتيان بهذه الحركة ، وظلت ساقاه ساكنتين كأنما قدتا من خشب : « انظروا ، لاشك ان هذا المكان مسحور ، وتلك مكيدة من مكايد الشيطان! ان هيرودس عدو البشرية له يد فى هذا الأمر!» .

ولاريب ان الرجل لم يكن يرضى لنفسه هذا العار أمام الحوذية، وكيف يرضى بذلك ؟ اذن فليبدأ من جديد ، وراح يقفز قفزات صغيرة تافهة كانت متعة للناظرين ، ثم مضى الى وسط البقعة من جديد فعجز مرة أخرى عن الرقص !

« عجبا لك ، ايها الشيطان الملعون ! الا فليفص حلقك بطيخة فاسدة ، ليتك هلكت وانت بعد صغير ، يابن الكلب ، انظروا أى عار جللنى به فى شيخوختى ! » . والحق أن شخصا اطلق ضحكة من خلف ظهره .

وتلفت حوله فلم ير حديقة البطيخ ولا الحوذية ، بل لم ير شيئا ، فقد القى حقلا ينبسط من أمامه ومن خلفه ومن جانبيه ، فهتف : « وى ! هذا مستحيل ! » ؛ وبدا يزر عينيه فتراءى له ان المكان ليس غريبا عليه كل الغرابة ، فالى جانبه اجمة ، وخلف الأجمة عمود يرتفع فى الفضاء حتى ليبدو للأنظار من بعيد. الا لعنة الله على هذا كله ! فقد كان هذا الذى الى جانبه هو برج الحمام فى حديقة خضر القس ! وذاك الذى على الجانب الآخر شيئا يضرب الى السمرة ، وأمعن العجوز فى النظر. فوجد ان هذا الشيء هو مخزن دراسة كاتب الناحية ، اذن فقد ساقته الروح الشريرة الى هذا المكان . وطفق الرجل يدور ويدور فوقع على طريق صغير، ولم يكن القمر ظاهرا ، وانما حلت محلة بقعة بيضاء تتألق من خلف غمامة سوداء .

وقال جدى يحدث نفسه : « لتكونن الريح شديدة غدا » ، ولم يلبث ان ظهر وميض شمعة فوق قبر على بعد قليل من الطريق، « وى ! وى ! » ، ووقف جدى لايبدى حراكا ، ووضع ذراعيه فى خاصرته واخذ يتفرس فيما راى ، وانطفأ الضوء ، وتلألأ ضوء آخر على بعد كبير، فيما وراء الضوء الأول بقليل ، فهتف جدى : «كنز! اراهن بأى شيء انه كنز!» ، وهم بأن ينفخ فى يديه استعدادا للحفر، واذا به يتذكر انه لم يحمل معه مجرفا ، آه ! ما اشد اسفى ! لقدكنت خليقا بألا اتكلف من الجهد اكثر من ازاحة العشب فاجد الكنز النفيس تحت موطىء قدمى ! ولكن لاحيلة لى فى الأمر الآن ، وحسبى ان اشير الى مكانه بعلامة حتى لاتخوننى ذاكرتى».

ثم جذب غصنا كبير الحجم لاشك ان الريح أطاحت به من شجرة ووضعه على القبر حيث راى الشمعة تتألق ، ثم مضى فى الطريق. وخفت كثافة اجمة السنديان القصيرة العود ، ولمح سياجا ، فراح يحدث نفسه قائلا : « انظروا ! الم اقل انها حديقة القس ؟ ها هو ذا سياجه ، وليس بيننا الآن وبين بستان البطيخ الا مسافة تقل عن الفرسخ » .

على انه عاد الى المنزل فى الهزيع الأخير من الليل وأبى ان يتناول شيئا من لقيمات القاضى ، وايقظ اخى أوستاب وساله : أو قد

انصرف الحوذية منذ وقت طويل ؟ ثم التف بغطائه المصنوع من جلد الماعز، وسأله أوستاب : « أين استبقاك الشياطين اليوم ياجدى؟» فأجابه وهو يحكم الغطاء حوله : « لاتسلنى ، لاتسلنى ياأوستاب، والا شاب شعرك ! » .

وأخذ يغط غطيطا عاليا أفزع العصافير التى كانت قد حطت فى بستان البطيخ ، فطارت وجلة مذعورة ، ولكن كيف كان يستطيع أن ينام ؟ على ان الشيخ كان ، رحمة الله عليه ، رجلا داهية يستطيع دائما ان يفلت من اى مأزق ، فيلفق فى بعض الأحيان قصة يقف لها شعر رءوسنا .

وما أن حل الظلام فى اليوم التالى حتى ارتدى جدى سترته وتمنطق بحزامه وتأبط مجرفا ووضع قبعته على رأسه وشرب ابريقا من الجعة ومسح شفتيه بنفسه ، ثم مضى الى حديقة بطيخ القس لايلوى على شيء ، ومر بالسياج وبأجمة السنديان القصيرة العود ، وكان يمتد فى هذا الموضع طريق يلتف بين الأشجار ثم يبرز فى الأرض المنبسطة ، فخيل اليه انه الطريق المعهود ، وخرج الشيخ من الأجمة وتراءى له ان المكان هو هو ، مكان الأمس ، ورأى برج الحمام واضحا ، ولكنه لم يستطع رؤية مخزن الدراسة، « كلا ، ليس هذا هو المكان ، ولاشك انه يبعد عن هذا الموضع قليلا ، ويخيل الى ان الأمر يقتضى أن انعطف قليلا ناحية مخزن الدراسة » ، وقفل راجعا ومضى فى طريق آخر ، فاستطاع أن يرى المخزن ، ولكنه لم ير برج الحمام ، فانعطف مرة اخرى ، فرأى المخزن مختفيا على مقربة من برج الحمام ، وكأنما أرادت السماء ان تكيد له ، فأخذت تمطر رذاذا ، وجرى ثانية صوب المخزن فاختفى برج الحمام ، وجرى شطر برج الحمام ، فاختفى المخزن!

فصاح : « أيها الشيطان الملعون ، تمنيت ألا تعيش حتى ترى أولادك ! » .

ثم انهمر المطر فخلع حذاءه الجديد ولفه فى منديل يقيه المطر ، وجرى كالرهوان سواء بسواء ، ثم دلف الى الكوخ وقد نفد المطر الى جسده وتغطى بجلد الماعز ، وراح يتمتم بصوت خفيض ويسب الشيطان سبابا لم أسمع له مثيلا فى حياتى قط ، ولو اننى سمعت

هذا السباب فى وضح النهار لاحمر وجهى خجلا بلا شك .

واستيقظت فى صباح اليوم التالى فرايت جدى يجول فى بستان البطيخ كان لم يحدث شيء ، وراح الرجل يغطى البطيخ بورق الأرقطيون ، ثم عاد يتحدث اثناء الغذاء ويخيف اخى الأصغر قائلا: « انه سيعدل عن مقايضة البطيخة بدجاجة ويتخذ منه بديلا عن البطيخة . وصنع بعد الغذاء مزمارا من قطعة من الخشب ، واخذ ينفخ فيه ،ثم أراد ان يروح عنا فأعطانا بطيخة التفت ثلاث لفات كأنها الأفعى ، واطلق عليها اسم البطيخة التركية ، ولست أرى الآن لها مثيلا فى اى مكان ، والحق انه حصل على بذور هذا النوع من بلاد بعيدة .

وفى المساء خرج جدى بعد تناول العشاء ، وحمل معه مجرفا يحفربه مهدا جديدا لليقطين المتاخر ، ومر بذلك المكان المسحور فلم يتمالك نفسه من القول مغمغما :« يا له من مكان ملعون ! » ومضى الى وسطه حيث البقعة التى لم يستطع ان يتم فيها رقصته بالأمس ، وضربها بالمجرف غاضبا ، فلم يلبث أن رأى الحقل المعهود يحيط به مرة اخرى من كل جانب ، ووجد برج الحمام الى جانبه باديا للعيان وعلى الجانب الآخر مخزن الدراسة ، « مرحى ، لقد كان من حسن التوفيق اننى فكرت فى حمل المجرف معى ، فهاهو ذا الطريق ، وهاهوذا القبر! وهاهوذا الغصن الملقى عليه ، وهاهى ذى الشمعة المعهودة ، آه ! لو كنت قد وفقت ولم أقع فى خطأ!» .

وجرى متسللا وهو يرفع المجرف فى الهواء كأنه يهم بضرب خنزير ولغ بخطمه فى بستان للبطيخ ، ثم وقف أمام القبر، وانطفأت الشمعة ، وقام فوق القبر حجر غطته الأعشاب ، وراح الشيخ يحدث نفسه قائلا : « يجب أن أرفع هذا الحجر» ، وحاول أن يحفر حوله الا ان الحجر الملعون كان ضخما ، فثبت قدميه فى الأرض ودفعه عن القبر ، وتجاوب الوادى بصوته وهو يهتف : « أوه ! » ، ثم أردف : « ان هذا هو الطريق الصحيح الذى يجب ان تسلكه ! ولسوف تسير الأمور من بعد فى سهولة ويسر!» .

ووقف جدى عند هذا الحد ، واخرج صندوق سعوطه ونثر قليلا من السعوط فى يده ، وهم بان يرفعه الى انفه ، واذا بشيء

يعطس فوق راسه عطسة اهتزت لها الأشجار وتلطخ وجه جدى كله.

وقال جدى وهو يمسح عينيه : « لقد كان أجدر بك أن تدير وجهك على الأقل ان شئت أن تعطس » ، والتفت حوله ولكنه لم ير أحدا ، فمضى يقول وهو يضع صندوق السعوط فى صدره ويتناول مجرفه : « يبدو ان الشيطان لايحب السعوط ، يا له من أحمق! فما أصاب جده ولا ابوه شيئا من مثل هذا السعوط!».

وبدا يحفر، وكانت الأرض رخوة غاص فيها المجرف ، ثم قعقع شيء ، فأزاح التراب فراى قدرا كبيرة .

وصاح جدى وهو يدفع المجرف تحتها : « آه ! اذن فهـــذه انت ! »

وصاح منقار عصفور كان ينقر القدر : « آه ! اذن فهذه انت ! » .

وتنحى جدى فسقط منه المجرف .

وثغى راس شاة من اعلى شجرة : « آه ، اذن فهذه انت ! »

وجأر الدب وهو يطل بأنفه من خلف شجرة : « آه ، اذن فهذه انت ! »

وسرت رعدة فى ظهر جدى .

وغمغم يقول بينه وبين نفسه : « وى ! لشد ما يخشى المرء ان ينطق بكلمة هنا ! »

فصاح منقار العصفور: « لشد مايخشى المرء ان ينطق بكلمة هنا! »

وثغى راس الشاة : « يخشى ان يقول كلمة هنا ! »

وجأر الدب : « ان ينطق بكلمة هنا ! »

وقال جدى : « هم ! » ، واحس بالفزع يغشى قلبه .

وصاح المنقار : « هم ! » .

وثغت الشاة : « هم ! » .

وجأر الدب : « هم ! » .

وتلفت جدى حوله فى فزع ، تباركت يا الله ! يا لها من ليلة !

غابت نجومها واختفى قمرها ، ولم يجد فيها الا حفرا تكتنفه وهوة سحيقة عند قدميه ، وصخرة شامخة تشرف عليه ، ولا تلبث أن تنحط فى اية لحظة فتهوى فوق راسه ، وتراءى لجدى ان راسا بشعا يطل من ورائها ، « اوه ! اوه ! » ، ويمتد انف كمنفاخ الحداد ، يلقى بسطل من الماء فى كل فتحة فيفيب فيه ! وشفتان كانهما كتلتان من الخشب ! وعينان حمراوان ناتئتان مستشرفتان ولسان برز من الفم ساخرا متهكما .

وهتف جدى متخليا عن القدر : « فلياخذك الشيطان ! الا لعنة الله عليك وعلى كنزك ! يا له من خطم كريه ! » ، وهم الشيخ بالهرب مكتفيا من الغنيمة بالاياب لولا انه تلفت حوله وتوقف ، فقد راى كل شىء يعود الى سيرته الأولى ، « انما هى الروح الشريرة تحاول أن تخيفنى ! »

وراح يرفع القدر مرة اخرى ، فوجدها ثقيلة اشد الثقل ! فماذا يصنع ؟ وكيف يتركها بعد ؟ وبذل العجوز غاية ما فى وسعه وقبض على القدر بكلتا يديه .

وهتف وهو يشدها شدا : « هيلاهوب ! هيلاهوب ! اف ، فلأروحن عن نفسى بشىء من السعوط ! » ، وأخرج صندوق سعوطه وتريث قليلا قبل أن ينشر من السعوط شيئا ، فقد بدا له أن يلقى حوله نظرة فاحصة ليستوثق من ان احدا لايراه ، وخيل اليه ان المكان قد خلا من كل احد ، واذا بجذع الشجرة يبدو وكانه يلهث وينفخ ثم برزت منه أذنان ثم عينان حمراوان ومنخران ينفثان ، وأنف مجعد تراءى له انه على وشك أن يعطس ، فقال جدى بينه وبين نفسه ، وهو يدس صندوق السعوط فى صدره : « كلا ، لن أصيب شيئا من السعوط ، فان الشيطان سوف يبصق فى عينى مرة اخرى » ، وبادر الى القدر فخطفها خطفا وانطلق يسابق الريح ، الا انه شعر بشىء من خلفه يخدش ساقيه بالعساليج ، فلم يجد فى طوقه الا أن يقول : « آه ! آه ! » وهو منطلق بأقصى سرعته ، فلما بلغ حديقة القس تنفس الصعداء .

ورحنا نتساءل : « ترى اين ذهب جدى؟ » ، بعد ان انتظرناه ثلاث ساعات ، وكانت أمى قد عادت من المزرعة منذ وقت طويل

KMH

وجاءت معها بقدر من لقيمات القاضى الساخنة ، على اننا لم نسمع بأى خبر عن جدى ! وتناولنا العشاء مرة اخرى دونه ، وغسلت أمى القدر بعد العشاء فلما وجدت مهاد البطيخ تحيط بها من كل جانب راحت تبحث عن مكان تلقى فيه ماء الغسيل ، واذا بها ترى برميلا يندفع نحوها راسا ! وكان الظلام قد بدا يرخى سدوله ، فايقنت ان غلاما يتخابث مختفيا وراءه ويدفع به نحوها فقالت : « هذا خير ، ولألقين بالماء فيه » ، وأردفت القول بالفعل ، وقذفت بما فى يدها من الماء الساخن .

وصاح صوت يهتف : « اواه ! » فاعجبوا ما شاء لكم العجب ، فان هذا البرميل لم يكن الا جدى ، وى ! من كان يتصور هذا ! تالله لقد ظنناه برميلا مندفعا نحونا ، ولست انكر ، على ما فى قولى هذا من اثم ، ان منظر جدى وقد غرق راسه الأشيب فى ماء الغسيل ورصعه قشر البطيخ ، كان مسليا يثير الضحك .

وقال جدى وهو يمسح راسه بهدب سترته : « ايتها المراة الملعونة ! يا للحمام الساخن الذى جدت به على ، حتى لكأنى خنزير اعد للذبح قبل عيد الميلاد ! اما انتما ايها الصبيان فسوف تنالان شيئا آخر غير حلقات الخبز! ثم لترفلان ايها الجروان فى الحلل الذهبية » ، ثم قال وهو يفتح القدر : « انظروا ماجئتكم به ! »

فاى شىء انطوت عليه القدر فيما تظنون ؟ هلموا فكروا جيدا ، وحذروا ، اتقولون : انه ذهب ؟ كلا ، لم يكن فيها ذهب ، بل انى لأخجل اذ اقول : ان ما فيها كان وسخا وقذارة ، وبصق جدى وطوح بالقدر ثم غسل يديه .

ومن يومها حملنا جدى على القسم بالا نشق بالشيطان .

وكان يهيب بنا فى كثير من الاحيان قائلا : « لا تصدقوه ! فان هذا العدو للمسيح لايقول الا كذبا ، فلا تصدقوه ، ابن الكلب ! فليس فيما يقول خردلة من صدق ! »

وكان الشيخ اذا سمع ان الامور قد اضطربت فى بقعة من الارض هتف : « هلما ياولدى ، ولنرسم اشارة الصليب على الشيطان! احسنتما ! احسنتما ! ولترسماها على الوجه الصحيح ! » ، ثم يبدا فى رسم اشارة الصليب . اما تلك البقعة الملعونة التى عجز

فيها عن ان يتم رقصته فقد سورها ، وامرنا ان نلقى فيها بكل الفضلات والاعشاب والقمامة التى كان يجمعها من بستان البطيخ .

ارايتم كيف تسيطر الروح الشريرة على البشر ؟ انى لاعرف تلك القطعة من الارض حق المعرفة ، وقد استاجرها بعض الجيران من القوزاق من بعد ليزرعوها بطيخا ، انها لارض عظيمة تجود دائما بمحصول وافر ، اما هذا المكان المسحور فلم ينبت قط نباتا طيبا ، وقد يلقى القوم فيه بالبذور فيحسنون ، ثم لا يعلم احد كيف يكون نبتها ، على انها لا تنبت فى الحق بطيخا ولا يقطينا ولا خيارا وانما تنبت شيئا لا يعلمه الا الشيطان وحده .

« النهاية »

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة : السيد /هاشم على نحاس
جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 990
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL.

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

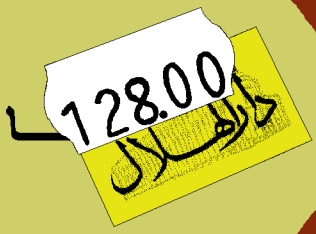

هذه الرواية

الجزء الثاني وهو مكمل للجزء الاول ، وقد قدم له بانكو مربي النحل أيضا بمقدمة طريفة أعقبها بقصة ليلة عيد الميلاد ، وقصة انتقام رهيب ، وقصة ايفـــان فيودورفتش شبونكا وخالته ، وقصة مكان مسحور .

وفي هذا الجزء يواصل جوجول وصفه النابض بالحياة الحافل بالسخرية لاخـــلاق الشعب الروسي وأهل الريف فيه ونوادر الاسلاف والاجداد ، وتقاليد القوزاق ومرحهم وصخبهم ، وتندر فيه باهل الطبقة العليا .

وحسبنا أن نصف فضل جوجول على الادب الروسي فنردد ما قيل من أن جميـــع قصاصي روسيا خرجوا من تحت « معطف » جوجول .

وصفه تورجنيف فقال : « أنه في رأينا أكثر من كاتب ، فقد كشف لانفســـنا عن أنفسنا » . وقال عنه دوستوفسكي : « لقد ضحك طول حياته من نفسه ، وضحكنا نحن معه ، وأطلنا الضحك حتى بدأنا نبكي في النهاية ... .